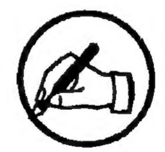
رجال من التاريخ

الجزء الثاني



على الطنطاوى

الطبعة الاولى بمصر

1418 هـ - 1998 م

• الكتـــاب : رجال من التاريخ - جـ 2 .

• الكاتـب : على الطنطاوى.

• النشر والتوزيع: دار البشير للثقافة - دار المنارة - جدة.

تليفاكس 302404 ، 308909 ☎ 210907 - 228277

• التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية -المحلة الكبرى -منشية البكرى

ص . ب 265 تليفاكس : 228277

• الإيداع القانونى : 15197 / 1997.

• الترقيم الدولى : 9 - 056 - 278 - 977 .

• تصميم الغلاف : الفنان / عطية الزهيرى



المقدمة

كل ما في هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تذاع لي من دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة . استمرت إذاعتها أعواماً، تعبت في إعدادها كثيراً ، واستمتع بها واستفاد منها (من السامعين) كثير ، بلغت ثلاثمائة حديث أو تزيد ، ضاعت فيما ضاع مما كتبت ، وأرجو ألا يضيع عند الله ثوابها ، إن كتب الله لي بكرمه الثواب عليها .

كنت إذا أزدت الحديث عن رجل ، قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كتب عنه ، وقيدت في ورقة ما أختار من أخباره ، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات ، ثم أعمد إلى خبر منها ، فأجعله مدخلاً إليها ، وأحاول ما استطعت أن أتبع فيها أسلوباً ينأى بي عن جفاف السرد التاريخي ، ويخلص من تخيل الكاتب في القصة الأدبية ، لعلي أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب ، فأوفق حيناً ، ويجانبني حينا التوفيق .

وكنت كلما أعددت (حديثاً) عن رجل من الرجال ، فتح لي الباب للكلام على أقرانه وأمثاله ، فحديث عن صلاح الدين يجر إلى آخر عن نور الدين ، وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى آخر عن مالك ، ولو أني استمررت أحدث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة ، في كل أسبوع حديثاً ، وجاء مائة مثلي يصنعون مثل صنعي ، لما نفدت أحاديث هؤلاء العظماء الأبطال ، وأنا لست من المولعين بجمع الكتب ، ورصها في الخزائن لأزهي بها ، وأفخر بكثرتها ، ولا أقتني إلا الكتاب الذي أحتاج إليه ، أرجو النفع به ، أو المتعة بقراءته ، وقد اجتمع لي - على هذا - في مكتبتي الصغيرة ، هنا وفي

دمشق ، أكثر من تسعين مجلدة فى تراجم الرجال والنساء ، فلو أن فى كل واحدة منها سيرة مائة منهم ، لكان من ذلك تسعة آلاف من سير العظماء .

ومن نظر فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابى (قصص من التاريخ) لقرأ فيها هذه الفقرة التى أعيد نشرها هنا بعد كتابتها بنحو نصف قرن ، قلت فيها :

(إن فى كتب التاريخ والأدب ، والمحاضرات والرحلات ، آلافًا من سير العظماء ليست فى كتب التراجم على كثرتها .

من ذلك أننى كنت أتسلى مرة بالنظر فى (رحلة ابن بطوطة) فاستخلصت منها تراجم كثيرين ، منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حفدة جنكيزخان المسلمين ، وكان يحكم مملكة واسعة المدى ، مترامية الأطراف ، كثيرة الجيوش ، واسعة الخيرات . فهل سمعتم باسم طرمشيرين ؟ وهل سمعتم بمن حكم روسية من ملوك المسلمين ، وكان لهم فيها حكومة عظيمة القدر ، عاشت حينًا من الدهر ، كانت تسمى دولة البلغار ، وكانت عاصمتها بقرب « ستالينغراد » ؟ .

ولن أسرد عليكم كل ما قلت فيها ، فارجعوا إن شئتم إليه ، تَطَلَّعوا عليه .

ولما كتب لى أن أزور القارة الهندية ، وأندونيسيا ، رأيت للمسلمين فيها تاريخًا ما كنت أعرفه ، ولا كان مما يدرس فى المدارس ، ولا مما يوجد فى الكتب التى اطلعنا عليها . تاريخاً ينتظر الباحث المخلص الذى يحيط به ، والقلم البليغ الذى يكتبه ، وفى هذا الكتاب مثال صغير عليه فى سيرة : أورنك زيب (15) ، وسلطانة الهند (118) ، ومن نظر فى كتابى عن أندونيسيا ، وقرأ قصة دخول الإسلام إليها ، لرأى فيها شاهداً آخر على ما أقول .

* * *

والعجب ممن يزعم أن الإسلام إنما انتشر بالسيف ، هل كان مع الرسول - ﷺ - في مكة سيف ؟ والمجتمع الإسلامي الأول ، الذي كان فيه مع محمد أبو بكر وعلي وخديجة وسلمان وصهيب وبلال ، وآخرون ممن شرفهم الله بالسبق إلى الإسلام ، هل كان معهم سيف ؟ ! .

هل تنبهتم إلى أسمائهم ؟ هل أدركتم الرمز الذي تشير إليه ؟ لقد مُثِّل فيه الرجال بأبي بكر ، والنساء بخديجة ، والأولاد بعلي ، وهل المجتمعات إلا رجال ونساء وأولاد ؟ ومُثِّل فيه العرب بهؤلاء ، والفرس بسلمان ، والحبشة ببلال ، والروم بصهيب ، وهؤلاء هم قطان هذه البقعة من الأرض .

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها دعوى بلا دليل ، والدليل القائم ، عليها لا معها ، انشروا مصور العالم الإسلامي وانظروا ، هل البلاد التي دخل إليها الإسلام عن طريق الفتح أكبر وأوسع وأكثر سكاناً ، أم البلاد التي دخلها بعد انقضاء عهد الفتوح ، وانطواء راياته ، ولا يزال يدخل إلى اليوم بلاداً جديدة ؟

هل وصلت الفتوح إلى أندونيسيا وماليزيا وأواسط إفريقية ؟ وهل بلغت كوريا واليابان ، أم انتشر فيها الإسلام وحده ؟

وهل أكره الفاتحون الأولون أحداً على الإسلام ؟ لقد عرف التاريخ قواداً فاتحين ، كالإسكندر ، وجنكيز ، وبونابرت ، وهتلر ، وأمثال لهم كثير ، فأين الآن ما فتحوه ؟

لقد كان زيتًا صببته على ماء ، وهززته هزاً حتى حسبته قد مازجه وخالطه وصار معه سائلاً واحداً ، فلما بطل الهز عاد الزيت زيتا والماء ماءً . بقي في البلاد غالبون ومغلوبون ، مفتوحة بلادهم وفاتحون .

أما الفتح الإسلامي فقد كان كاختلاط الماء بالخل ، صُبَّ ماءً على الخل ثم

انظر هل تقدر أن تفصل الخل عن الماء ؟ هذه الشام ومصر والعراق والبلاد التى بلغها الفتح هل تميّز فيها الآن أبناء الجند الفاتحين ، من أبناء البلاد الأولين ؟

لقد جعلهم الإسلام أمة واحدة ، ليست أمة العرب ، ولا أمة الفرس ، ولا أمة الترك ، ولكن أمة محمد ـ ﷺ ـ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10]

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها مقالة جاهل بالطبع البشرى ، على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها .

إن الإسلام عقيدة ، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة ، فمن سمع أن العاطفة تجيء بالقوة والبطش ؟ إذا فَرِكَتْكَ امرأتك (أى كرهتك) فهل تحمل العصا فتقول لها : إما أن تحبينى وإما أن أكسر أضلاعك ؟ وهل تحسبها تحبك بالإكراه ؟ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : 256] . لقد عرف التاريخ حكامًا طغاة جبارين ، يكرهون الناس حتى يكونوا لهم تابعين طائعين ، يخضعون أجسادهم وجوارحهم حتى يعملوا لهم ما يريدون ، ولكن هل يستطيعون إخضاع قلوبهم ، حتى تمتلئ بحبهم ؟ وعقولهم حتى ترى الحق معهم ؟

أقمت فى أندونيسيا شهراً ، نهارى فيه مع العلماء والأدباء ، وسهرى فى المحاضرات والندوات ، زرت الجامعات والمكتبات ، ووقفت فى آخر جزيرة « جاوه » على قبر الرجل الذى حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه إبراهيم ، وهم يعظمونه فيقولون : (سلطان إبراهيم) .

فمن إبراهيم هذا ؟ ما وجدت ممن لقيت من الناس ، ولا فيما قرأت من الكتب من عرف من هو ولا من أين جاء . فكيف إذن دخلت هذه البلاد فى الإسلام ، حتى صار فيها اليوم دولة سكانها اليوم مائة وخمسون مليوناً ، كلهم مسلم بالقيد الرسمى ، مسلم بالإحصاء الجغرافى ، نسأل الله أن يخلصها من

مكر الملحدين ، والبانجاسيلا (المبادئ الخمسة) التى جاؤوا بها بدلاً من الأركان الخمسة للدين ، ومن كيد المكفِّرين المنفِّرين المنصِّرين الذين يدعون افتراء بالمبشرين .

إن فى تاريخ الإسلام فى أندونيسيا رجالاً أبطالا ، ما تعرفونهم ولا سمعتم بهم .

إن عنوان (رجال من التاريخ) يمكن أن يجتمع تحته كتاب من خمسمائة مجلد . نعم وأكثر من ذلك ، لا أبالغ ، ولا ألقى القول جزافاً ، صدقونى .

إن تاريخنا أعظم تاريخ ، ولكننا أمة تجهل تاريخها . هذا التاريخ الذى ليس لأمة مثله ، هذا التاريخ الذى يفيض بالحب ، والنبل والتضحية والبطولة والإيمان .

ولست أعنى التاريخ السياسى وحده ، بل التاريخ العلمى أولا . تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم مجاهدين فى ميدان الطروس ، بأسنة الأقلام ، وهجروا لذلك لذائذهم ، ونسوا حاجات بطونهم وغرائزهم ، واطرحوا رغبات الغنى والجاه ، وكل ما يتزاحم عليه الناس ، واستهانوا فى سبيله بكل صعب ، حتى أنهم كانوا يرحلون الإبل أربعين ليلة من مشرق الأرض من خراسان ، أو من مغربها فى الأندلس ، إلى مكة أو المدينة أو الشام أو مصر أو بغداد ، فى طلب مسألة مفردة ، أو حديث واحد . أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل للقرون الآتيات ، فسارت البشرية على ضوئها . كانوا فى عصر الحكمُ فيه حكم مطلق ، وكانت حياة الناس معلقة بكلمة ينطق بها الحاكم ، فاستطاعوا أن يجعلوا لأنفسهم بإيمانهم وعدالتهم وأخلاقهم حصانة دونها

الحصانة التى يعتز بها القضاء ويكفلها لهم القانون الآن [1] ، تاريخ المجاهدين الذين خرجوا من بيوتهم ، وفارقوا أهليهم وخلفوا دنياهم وراء ظهرانيهم ، أداء لحق الله وإعلاء لكلمة الله ، ما كانوا عادين ولا باغين ، ما كانت حربهم حرباً هجومية ولا حربا دفاعية كما نفهم اليوم من كلمة الدفاع ، فما كانت دفاعا عن أرض ولا احتل الفرس أو الروم المدينة أو مكة ، فنهدنا [2] ندافع عنها، إنما هى حرب دفاع عن العقيدة .

أرأيتم الجائعين فى أفريقية ، الذين تسمعون أنباءهم فى الإذاعات ، وتقرؤونها في الجرائد . . . إذا جاء من يحمل إليهم الماء والغذاء والدواء ، وما يدفع عنهم البلاء ، فوقف ظالم فى طريقه يمنعه أن يوصل ذلك إليهم ، يريد أن يميتهم فى دورهم حتى تصير هى قبورهم .

ألا تقاتله ؟

هذا ما صنع المسلمون المجاهدون . نزل عليهم المصباح الهادى فى (حراء) والدنيا تتخبط فى الظلماء ، فحملناه لينير لهم طريقهم ، فاعترضنا من يمنعنا .

قلنا : تعال فاحمل النور معنا ، تكن منا ، لك ما لنا وعليك ما علينا .

قال: لا .

قلنا : فدعنا نمر ونحن نحميك من عدوك ، ونرد عنك من يعتدى عليك، ونبذل نحن أرواحنا دونك ، لا نريد منك إلا أجرة يسيرة من مالك ، مقابل ما نبذل من دمائنا ، قال : لا .

فما الذى نصنعه معه إلا أن نقاتله ؟ هذا هو الجهاد .

---

(1) فقرة من مقدمة (قصص من التاريخ) .

(2) نهد : أى نهض .

إن تاريخنا السياسى أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم ، ولا يخلو - على ذلك - من أمور لا يحسن أن ننشئ عليها أولادنا ، أمور تقضيها طبيعة البشر الذين يخطئون ويصيبون ، ويحسنون ويسيئون ، ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

حتى المجتمع الذى كان أسمى مجتمع بشرى ، الذى كان (ظاهرة) لم تُسْبق ولم تتكرر ، مجتمع الصحابة لم يَخْلُ من منازعات ومصادمات لم يتعمدها الصحابة ، ولكن من دس الدسائس بينهم ، وفرق بالكذب جمعهم . فلماذا ندرسها لأولادنا ؟ لماذا ، وقد كره علماؤنا الخوض فيها ؟ وكيف نسمح لمدرس غر قد يكون قليل الدين ، أن يقيم من نفسه حكمًا بين عائشة أم المؤمنين وعلى أمير المؤمنين ؟

تقولون : ما الحل ؟ لقد بصرت بالحل أيام الوحدة لما كنت قاضى دمشق ، ورئيس عمدة المدارس الشرعية التى تديرها الأوقاف [1] ، وكتبت بذلك إلى الوزير [2] ، فكلفنى وضع مناهج جديدة لهذه المدارس ، فوضعتها وأحدثت فيها أموراً ، كان منها : أنى رفعت من المنهج التاريخ السياسى ووضعت مكانه مادة سميتها : (أعلام الإسلام) . ندرس فيها مناقب العظماء ، ونكشف عن مواطن العظمة فيهم ، وأمضى الوزير ما اقترحت ، وأحسب أنه لا يزال باقياً إلى الآن .

أنا مدمن القراءة يومى كله إلا ساعات العمل ، أمضيه فى المطالعة ومحادثة الكتب ، من يوم أتقنت القراءة ، قبل سبعين سنة ، وأنا أقرأ . وأكثر ما أولعت به التاريخ ، وذلك بعد إقامة لسانى بتعلم العربية ، وضمان

(1) أى رئيس مجلسها الأعلى .

(2) عبد الحميد السراج .

آخرتي - وما تضمن إلا برحمة منه - بمعرفة الشرع . فأنا أقرأ كل ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم ، ومن المذكرات والرحلات والمشاهدات ، ولقد كتبت كتاب (قصص من التاريخ) وما ضمّ كل ما كتبت ، (ورجال من التاريخ) و (حكايات من التاريخ) التى حسب قوم أنى كتبتها للأطفال فعدوها من أدب الأطفال ، مع أنى لم أكتبها لهم ، وأسلوبها يعلو - كثيراً - عن أفهامهم .

بدأت بهذه الأنواع كلها من سنة 1930 من حين كنت (محرراً) فى جريدة (فتى العرب) ، بل لقد بدأت ، فى الفتح والزهراء سنة 1347 هـ ، وهذا الكتاب ثمرة باقية ، مما فقد .

وهذه هى الطبعة السابعة (الشرعية) لهذا الكتاب . أما الطبعات المسروقة فلا أحصيها . ومن اقترفها فسيجد عند الله حسابها .

وقد وقفت أنا على طبعها ، وعدلت فيها ، وزدت عليها شيئاً لم ينشر من قبل فى مجلة ولا صحيفة ولا كتاب ، بل لم يذع من الإذاعة ؛ لأنه لم يكمل ، وقد آثرت أن أنشره ناقصاً قبل أن يضيع .

وليس لأحد فى هذا الكتاب ولا فى غيره من كتبى حق من حقوق الطبع ، ومن ادعى ذلك كان كاذباً .

وكل طبعة آذن بها ويمر عليها الوقت الذى تنفد فيه عادة وعرفاً يسقط حق المأذون له فيها . أقول هذا لمَا فشا من عدوان بعض الناشرين على المؤلفين ، لا يردعهم عنه الدين ، ولا الخلق المتين ، حتى صار همهم دنياهم لا يفكرون إلا فيها ، ولا يحرصون إلا عليها ، يلبسون للمؤلف عندما يَلْقَوْنه جلد الحمل الوديع ، فإذا صار الكتاب فى أيديهم ، خلعوه فبدا من تحته شعر الذئب

الكاسر ، وهذه تذكرة لمن شاء أن يذكر ، ما سميت فيها أحداً ولا أشرت إلى أحد .

أما أنا فإن خسرت بهذا العدوان بعض المال فقد أبقى الله لى منه ما يكفينى وسآخذ حقى يوم أكون محتاجاً إليه ، لا من ريالات المعتدى ودولاراته ، بل من حسناته التى هى وحدها الطريق يومئذ إلى نجاته .

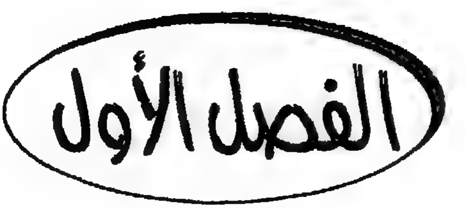
نسأل الله أن يحيى قلوبنا ، حتى نراقب ربنا ، ونذكر آخرتنا ، وأن يهدينا جميعاً : الناشرين والمؤلفين .

أما (دار المنارة) التى تنشر هذا الكتاب اليوم ، فهى منّى ليست غريبة عنى ، وصاحبها ديِّن أمين على حين قلَّت فى الناس الأمانة ، وأنا لا أزكّيه على الله ولكن أزكِّيه للناس . وأنا أعلم أنَّ هذه التزكية شهادة أنا مسؤول عنها .

أمَّا جودة الطبع ونفاسة الورق وحسن الإخراج فإنك تراه أمامك .

وبعد : فما أردتها مقدمة للكتاب ، ولكن تعريفًا بهذه الطبعة استرسل فيه القلم ، وانبسط المجال فطال المقال .

على الطنطاوى



- بقية الخلفاء الراشدين
- موسى بن نصير
- فتح الأندلس
- عنبسة

بقية الخلفاء الراشدين

من العظماء رجال ، لم يكن لهم فى غير الخط مجال ، صرفوا إليه هممهم كلها حتى برعوا فيه ، ومرنت أيديهم على صنع المعجب من آثاره ، وخلفوا لنا لوحات لا تقل جمالاً عن أخذ الصور الفنية . ومنهم رجال ضربوا فى أودية البلاغة ، وسلكوا طرق البيان ، وصاروا أئمة القول ، وأعلام الكلام، وتركوا لنا رسائل هى العسل المصفى ، وهى السحر الحلال . ومنهم رجال صرموا حيواتهم ، وأمضوا أعمارهم ، فى النظر فى الأدلة ، وتخريج المسائل، حتى صاروا سادة الفقهاء وصدور العلماء . ومنهم رجال كانوا ملوكاً عباقرة مصلحين ، بنوا ممالك ، ووطدوا دولا ، وفتحوا فى الأرض شرعة السماء[1]، وكان حكمهم خيراً على الناس وبركات . ومنهم رجال كانوا قواداً مظفرين كانوا جن الحروب ، ومردة المعامع ، لا يخرجون من معركة إلا إلى معركة أشد منها ، ينتزعون النصر من يد الهلاك ، ويبنون الحياة على أشلاء الموت ، لا يحاربون للقتل ولا للتخريب ولا للأذى ، ولكن ليدفعوا عن الحق والحضارة ، شر من يأبى أن يقوم فى الأرض صرح الحضارة وأن يرتفع فيها لواء الحق . ومنهم رجال كانت عظمتهم أن كرهوا العظمة واجتووها ، وزهدوا فى الدنيا واستصغروها ، وهانت عليهم بمتعتها ولذتها ، لما طمعوا بلذاذات الآخرة ومتعها ، فأقبلوا على العبادة ، وأنسوا بالله ، وتجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، يرجون رحمته ويخافون عذابه . . .

. . . وهذا عظيم جمع هذا كله ، فكان خطاطاً ، وكان كاتباً شاعراً ،

(1) الشرعة والشريعة:الطريق ، لذلك قلت : (فتحوا) .

وكان فقيها ، وكان ملكا ، وكان قائداً مظفراً ، وكان زاهاً متعبداً .

حكم الهند كلها خمسين سنة ، فأقام فيها العدل ، ونشر الأمن ، وأعز الصالحين ، وقهر الطغاة الجبارين ، وترك آثاراً على الأرض ، وآثاراً فى الحكم، وآثاراً فى العقول : ملأ الهند مساجد ومشافى ومارستانات، وملاجئ للعاجز ين ، ومدارس للمتعلمين ، وسن فى أساليب الحكم سنن الخير ، فنظم القضاء ، وأصلح قوانين الضرائب و ترك للعلماء كتاباً من أجل كتب الفقه الإسلامى ، هو السلطان عالمكير [1] ، أورانك زيب [2] ابن شاهجان بن جهانكير ابن الإمبراطور أكبر حفيد تيمورلنك .

نحن الآن فى الهند ، فى القارة التى حكمناها ألف سنة ، فى الدنيا التى كانت لنا وحدنا ، وكنا نحن سادتها ، فى (الفردوس الإسلامى المفقود) حقاً ولئن كانت لنا فى إسبانيا أندلس فيها عشرون مليوناً ، فلقد كان لنا هاهنا أندلس أكبر ، فيها اليوم أربعمائة مليون [3] ـ خمس سكان الأرض ، ولئن تركنا فى الأندلس من بقايا شهدائنا ، ودماء أبطالنا ، ولئن خلفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء ، فإن لنا فى كل شبر من هذه القارة دماً زكياً أرقناه، وحضارة خيرة وشيت جنباتها ، وطرزت حواشيها ، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها معاهد ومدارس ، كم أنارت عقولاً ، وفتحت للحق قلوباً ، ولا تزال تفتح القلوب ، وتنير العقول ،وإن لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء ، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء على ظهر الأرض .

ولو كنتم تعرفون من تاريخ المسلمين فى الهند ، ولو مثل القليل الذى تعرفون من تاريخهم فى الشام ومصر ، لدخلت الآن فى الحديث عن أورانك

---

(1) أى زمام العالم أو قائد العالم .

(2) أى زينة الملك . (3) صاروا الآن سبعمائة .

زيب ، ولكنكم لا تعرفون مع الأسف تاريخ الهند ، ولا أجد بداً من أن أمهد لهذا الحديث بشيء من التاريخ :

لقد مرت بالهند أربعة عهود إسلامية ، عهد الفتح العربى ، ثم عهد الفتح الأفغانى ، ثم عهد المماليك ، ثم عهد المغول .

كان أول من حمل إلى الهند لواء الإسلام ، محمد بن القاسم الثقفى ، القائد الشاب الذى هجر منازل قومه فى الطائف ، ومشى إلى العراق فى ركاب ابن عمه الحجاج ، الذى ظلم كثيراً وقسا كثيراً ، وكانت له هنات غير هينات ، ولكنه هو الذى أبقى لنا العراقين وفتح لنا المشرق كله والسند ، فبعث المهلب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الأهلية التى أضرمها الخوارج ، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان ، وأوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند .

ولولا الإيمان الذى يصنع العجائب ، ولولا الهمم الكبار التى تزيح الجبال ، ولولا البطولة التى وضعها محمد ـ ﷺ ـ فى قلوب العرب لما استطاع هذا الجيش أن يقطع خمس محيط كرة الأرض وهو ماش على الأقدام ، أو معتل ظهور الإبل والدواب ، ما عرف قطاراً ولا سيارة ، ولا رأى على متن الجو طيارة ، ولما وضع ابن القاسم الحجر الأول فى هذا الصرح الهائل ، وأدخل الشعاعة الأولى من هذه الشمس التى أشرقت فى مكة إلى هذه القارة ، وفتح السند ولم تبلغ سنه سن تلاميذ الشهادة الثانوية .

وعاد إليها لواء الإسلام مرة ثانية فى القرن الرابع ، عاد بالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوى ، الذى خرج من غزنة وكانت قصبة بلاد الأفغان ، وهى إلى الجنوب من كابل ، فاخترق ممر خيبر ، المضيق المهول الذى يشق تلك الجبال الشاهقة شقاً ، والذى تجزع أن تسلكه من وعورته ووحشته

أسد الفلا ، وجن الليالى السود ، ثم دخل الهند ، وخاض عشرات من المعامع الحمر ، التى يرقص فيها الموت ، ويشتعل الدم ، واجتمع عليه أمراء الهند وأقيالها جميعاً ، فطحن أبطالهم ، ومزق جيوشهم ، ومضى حتى جاب البنجاب ، واستجابت له هاتيك البلاد ، فأقام فيها حكم الله ، وأذاق أهلها عدالة الإسلام .

وجاء من هذا الطريق بعد أكثر من قرن ، السلطان شهاب الدين الغورى ، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً ، وأكمل منه ما كان ناقصاً ، وملك شمالى الهند ، وبلغت جيوشه دهلى فأوقدت فيها منارة الدعوة الإسلامية ، فضوأت بعد الظلمة ، وأبصرت بعد العمى ، ودوى فى أرجائها الصوت الذى خرج من بطن مكة . . صوت المؤذن ينادى فى قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والأصنام أن خابت آلهتكم ، وهوت أصنامكم ، إنما هو إله واحد : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وقامت فى الهند حكومة إسلامية قرارتها دهلى .

وبينما كان قطب الدين أيبك قائد السلطان الغورى يفتح المدن بسيفه ، كان الشيخ معين الدين الجشتى يفتح القلوب بدعوته ، فدخل الناس فى الإسلام أفواجاً ، وكان هذا الفتح أبقى وأخلد ، وكان منه اليوم ثمانون مليونا من المسلمين فى باكستان ، وأربعون مليوناً غيرهم فى هندستان [1] ، وسيبقى الإسلام فى تلك الديار إلى آخر الزمان .

وولى الملك بعد السلطان الغورى قائده قطب الدين ، الذى فتح دهلى وبدأ

---

(1) هم على شر حال اليوم من الجهل فيهم وإهمال الحكام لهم . والأمل فى جماعة التبليغ وفى جماعة المودودى وفى الجامعات والمدارس كجامعة ديوبند ودار العلوم لندوة العلماء فى لكنو ، وهى خير مدارس الهند منهجاً ومسلكاً ، والعدد الذى ذكرته تضاعف الآن .

به عهد المماليك ، وكان منهم ملوك عظام حقاً ، منهم قطب الدين هذا بانى منارة قطب [1] (قطب مينار) التى يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلى وشمس الدين الألتمش وغياث الدين بَلَبَان .

ثم جاء الخلج وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجى الذى عدل فى الناس ، وضبط البلاد ، وبسط الأمن ، وأوغل فى الهند .

وجاء من بعدهم آل تغلق ، وكان منهم الملك الصالح المصلح فيروز ، ثم جاء اللودهيون ، وكان فى أحمد آباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الدين الحليم الكجراتى [2] .

وكان للعلماء فى دولة المماليك دولة أكبر منها ، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك . ولقد روى أخونا أبو الحسن على الحسنى الندوى ، أن السلطان شمس الدين الألتمش الذى دانت له البلاد كلها (وكان فى القرن السابع الهجرى) وخضع له ملوك الهند جميعاً ، كان يستأذن على الشيخ بختيار الكعكى ، فيدخل زاويته ويسلم عليه تسليم المملوك على الملك ، ولا يزال يكبس رجليه ويخدمه ويذرف الدموع على قدميه حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف .

وإن علاء الدين الخلجى أكبر ملوك الهند فى زمانه استأذن الشيخ الدهلوى فى أن يزوره فلم يأذن له الشيخ .

ولما مرض الشيخ الدولة آبادى المفسر وأشرف على الموت عاده السلطان إبراهيم الشرقى ، ودعا عند رأسه أن يكون هو ـ أى السلطان ـ فداءه من الموت .

---

(1) وقد مر ذكرها فى حديث الملك الظاهر .

(2) وسيأتى حديثه .

وكانت زاوية نظام الدين البدايونى ، أحفل بالقصاد ، وأزخر بالناس من قصر الملك ، وكان سلطانه الروحى أعظم من سلطان الملك المادى .

كـان ذلك ـ يا سـادة ـ لما تجـرد هؤلاء العلمـاء من أثواب المطامع والرغبات ، وزهدوا بما فى أيدى الملوك ، فسعى إلى أبوابهم الملوك ، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم ، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا .

وفى عهد السلطان إبراهيم اللودهى سنة 933 هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل وكسر جيوش اللودهى ـ وكانت مائة ألف ـ باثنى عشر ألفاً من فرسان المغول المسلمين ، وأسس دولة المغول التى كانت أكبر الدول الإسلامية فى الهند ، وكان من ملوكها ، الملك الصالح الذى أحدثكم عنه : أورانك زيب .

ولما مات بابر ، وولى ابنه همايون ، وثب عليه رجل عصامى لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له همم الملوك ، فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة فى الدول ، ونظم الإدارة والمالية والجيش تنظيماً لم يسبق إلى مثله ، هو السلطان شيرشاه [1] السورى ، ولما مات عاد الملك إلى ابن همايون ، وهو الإمبراطور أكبر وكان من أعاظم الملوك ، حكم الهند كلها ، إلا قليلاً ، وطال حكمه فكفر فى آخر أيامه بالله ، وأكره الناس على الكفر ، و ابتدع لهم دينا جديداً ، وأزال معالم الإسلام ، وبطل شعائره [2] ، وكان معه الجيش ، وكان معه الأمراء ، وكانت البلاد كلها فى يده ، فمن يقوم فى وجهه ، ومن ينصر الإسلام ، ومن يدافع عن الدين؟ .

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم ، قليل المال والجاه والأعوان ، ولكنه قوى الإيمان بالله ، كبير النفس والقلب ، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل

(1) شيرشاه أى الملك الأسد ، أو ملك الأسود .

(2) ولذلك يعظمه المؤرخون من أعداء الإسلام من الغربيين ومن يقلدهم منا بلا علم ولا فهم .

ما فيها من مال ومناصب ولذائذ واستهان بالحياة فهو لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه ، هو الشيخ أحمد السرهندى .

ولم يكن يطمع بإصلاح الإمبراطور ، ولا يجد فيه أملاً ، فجعل يتصل بالقواد الصغار ، وبالحاشية ، ويعد لانقلاب شامل ، لا لانقلاب عسكرى ، بل لانقلاب روحى فكرى ، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والإيمان . ولما مات أكبر وولى ابنه جهان كير (أى قائد الدنيا) استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندى ابن الشيخ السرهندى أن يشرف على تربية طفل صغير ، هو أحد حفدة جهانكير .

ولم يكن هذا الطفل كبير أخوته ، ولا كان ولى العهد ، ولم يكن يؤمل له أن يلى الملك ، ولكن الشيخ وضع فى تربيته جهده ، وبذل له رعايته كلها ، فنشأ نشأة طالب فى مدرسة دينية داخلية ، بين المشايخ والمدرسين ، فقرأ القرآن وجوده ، والفقه الحنفى وبرع فيه ، والخط وأتقنه ، وألم بعلوم عصره، وربى مع ذلك على الفروسية ، ودرب على القتال . ولما مات جهانكير ، وولى شاه جهان ، ولى كلا من أبنائه قطراً من أقطار الهند ، وكان نصيب هذا الطفل وهو (أورانك زيب) ولاية الدكن .

وكان لشاهجهان زوجة لا نظير لحسنها فى الحسن ، ولا مثيل لحبه إياها فى الحب ، هى (ممتاز محل) ، فماتت ، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر ، وخلدها ولكن لا بصورة ولا تمثال ، لقد رثاها فخلدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها ، فهى شعر ، وهى أغنية ،وهى صورة، وهى أعظم تحفة فى فن العمران .

هى تاج محل ، هذا البناء العجيب الذي أدهش بجماله الدنيا ، وما زال يدهشها ، والذى لان فيه الرخام لهذه الأيدى العبقرية فجعلت منه أجمل بناء

شيد على ظهر هذه الأرض بلا خلاف ، ونقشته هذا النقش الذى لم يعرف قط نقش فى مثل دقته وفنه وسحره .

هذا القبر الذى يأتى اليوم السياح ، من أقصى أميركا إلى (أكرا) قرب دهلى ليشاهدوه ويسمعوا قصته ، وهى أعظم قصص الحب على الإطلاق . لقد صدع موت هذه الزوجة الحبيبة الإمبراطور العظيم ، فزهد فى دنياه ؛ لأنها كانت هى دنياه ، وحقر ملك الهند ؛ لأنها كانت أعظم عنده من ملك الهند ، ولم يعد له أرب بعدها إلا أن يملص من حاضره ، ويوغل بذكرياته فى مسارب الماضى ، ليعيش بخياله معها ، يستروح رياها ، ويستجلى جمالها ، ويسمع خفى نجواها ، ويحس حرارة أنفاسها ، ثم استحال حبه إياها حبا لهذا القبر الذى شاده لها ، فجن به جنوباً ، وصار يحس فى برودته حرارتها ، وفى جموده خطراتها ، وفى صمته حديثها ، وانصرف عن الملك وأهمله ، فوثب ابنه الأكبر فولى الملك إلا اسمه ، وتصرف بالأمر وحده ، ونازعه أخوته ، وجاء كل من إمارته : شجاع من البنغال ، ومراد بخش (أى مراد الله) من الكجرات ، وأورانك زيب هذا من الدكن ، واستطاع أن يغلبهم جميعاً وينفرد بالأمر ، ووضع أباه فى قصر من قصور الملك ، جعل له فيه ما يشتهيه من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجوارى ، وجعل له حيال سريره مرآة أقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح ، يرى منها (تاج محل) على البعد ، وهو مضطجع فى سريره كأنه أمامه . وكان ذلك كل ما بقى له من لذائذ دنياه !

وكان جلوسه على سرير الملك سنة 1068 هـ (قبل ثلاثمائة سنة) [1] وكأنى بكم تظنون أن هذا الملك الذى ربى بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية ، سيدخل

---

(1) من يوم إذاعة هذا الحديث سنة 1368 هـ .

خلوته ، ويعمل من قصره مدرسة أو تكية ، يصلى ، ويقرأ فى كتب الفقه ، ويسيب أمور الدنيا ويهملها زاهداً فيها ، كلا يا سادة ، وما هذه خلائق الإسلام ، ولا هذى طريقته ، إن العمل لإسعاد الناس ، وإقامة العدل ورفع الظلم ، وجهاد الكافرين المفسدين فى الأرض ، كل ذلك صلاة كالصلاة فى المحراب ، بل هو خير من صلاة النفل ، وصوم التطوع ، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة .

لذلك ترونه قد لبس لأمة الحرب من أول يوم ـ وكان يومئذ فى الأربعين ـ ونهض بنفسه يقضى على الخارجين ، ويقمع المتمردين ، ويفتح البلاد ويقرر العدالة والأمن فى الأرض ، وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة ، ومن بلد يصلحه إلى بلد ، حتى امتد سلطانه من سفوح همالايا ، إلى سيف البحر من جنوب الهند ، وكاد يملك الهند كلها ، حتى قضى شهيداً فى سبيل الله فى أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيل .

ومن خاض هذه المعارك ، استنفدت وقته كله ولم تدع له بقية لإصلاح فى الداخل ، أو نظر فى أمور الناس ، ولكن أورانك زيب ، حقق مع ذلك من الإصلاح الداخلى ما لم يحقق مثله إلا قليل من الملوك .

كان ينظر فى شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها بمثل عين العُقاب ، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد ، فأسكن كل نأمة فساد ، وقضى على كل بادرة اضطراب ، ثم أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقيًا من الزندقة التى جاء بها (أكبر) أبو جده ، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال أمراء المجوس لفح من نارها ، فأبطل منها ثمانين نوعاً ، وسن للضرائب سنة عادلة ، وأوجبها على الجميع ، فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الأمراء ، ولولا هيبته ولولا شدته فى الحق لأبوها عليه ، وأصلح الطرق القديمة ، وشق طرقاً

جديدة ، ويكفى لتدركوا طول الطرق فى الهند أن تعرفوا أنَّ طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السورى ، كان يمشى فيه المسافر ثلاثة أشهر ، وكانت تحف به الأشجار من الجانبين على طوله وتتعاقبُ فيه المساجد والخانات !

وبنى المساجد فى أقطار الهند ، وأقام لها الأئمة والمدرسين ، وأسس دوراً للعجزة ، ومارستانات للمجانين ، ومستشفيات للمرضى .

وأقام العدل فى الناس جميعاً ، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم القضاء ، وكان أول من جعل للقضاء قانوناً ، فكان يحكم فى القضاء بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفى معللا له مدللا عليه ، ونصب القضاة للناس فى كل بلدة وقرية ، وكان للإمبراطور امتيازات فألغاها كلها ، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية ، ولمن له عليه حق أن يقاضيه به أمام القاضى مع السوقة والسواد من الناس .

وكان الرجل عالماً ، فقيهاً بارعاً فى الفقه الحنفى ، فأدنى العلماء ولازمهم، وجعلهم خاصته ومستشاريه ، وبنى لهم المدارس ، وجعل لهم الرواتب .

ووفق إلى أمرين لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين :

الأول : أنه لم يكن يعطى عالماً عطية أو راتباً إلا طالبه بعمل ، بتأليف أو تدريس ، لئلا يأخذ المال ويتكاسل ، فيكون قد جمع بين السيئتين : أخذ المال بلا حق ، وكتمان العلم ـ فما قول مدرسى الإفتاء والأوقاف فى الشام ؟

والثانى : أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية ، فى كتاب واحد، يتخذ قانوناً فوضعت له ـ وبأمره وبإشرافه ونظره ـ الفتاوى التى نسبت إليه ، فسميت الفتاوى العالمكيرية ، واشتهرت بالفتاوى الهندية ، ويعرفها كل

من يقرأ هذا المقال من العلماء ؛ لأنها من أشهر كتب الأحكام فى الفقه الإسلامى ، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً [1] .

وكان ـ بعد ذلك كله ـ يؤلف . . ألف كتاباً فى الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية ، ويكتب الرسائل البليغة ، التى تعد فى لسانهم من روائع البيان ، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد فى أموال المسلمين وترك الأخذ منها . وحفظ القرآن بعد أن ولى الملك . وكان شاعراً موسيقياً ، ولكنه ترك ذلك ، وكرهه ، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا ، ولم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبنى فى الأرض صرح مجدها .

وكان يصلى الفرائض فى أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال ، والجمعة فى المسجد الكبير ولو كان غائباً عن المصر لأمر من الأمور ، يأتيه يوم الخميس ليصلى الجمعة ثم يذهب حيث شاء ، وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر ، وما أدراكم ما حر الهند ؟ ويحيى الليالى بالتراويح ، ويعتكف فى العشر الأواخر من رمضان فى المسجد ، ويصوم الإثنين والخميس والجمعة من كل أسبوع من أسابيع السنة ، ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على الأذكار ، ويمد أهل الحرمين بالصلات المتكررة الدائمة .

وكان مع ذلك آية فى الحزم والعزم ، والبراعة فى فنون الحرب ، وفى التنظيم الإدارى . فكيف استطاع أن يجمع هذا كله ؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة ؟ ويقضى بين الناس ؟ ويؤلف فى العلم ؟ ويكتب المصاحف ويحفظ القرآن ؟ ويدير هذه القارة الهائلة ؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة ؟

---

(1) وضعت على أسلوب القوانين فيها الحكم ولكن ليس فيها ذكر الدليل فمن أراد معرفة دليلها رجع إلى مطولات المذهب كالمبسوط وبدائع الصنائع وشرح الكنز وأمثالها .

لقد كان يقسم بين ذلك أوقاته ، ويعيش حياة مرتبة ، فوقت لنفسه ، ووقت لأهله ، ووقت لربه ، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها .

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل ، وكان أعظم ملوك الدنيا فى عصره، وكانت بيده مفاتيح الكنوز ، وكان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير ، من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من أموال الدولة !

هذا هو الملك الذى قلت : إنه كان بقية الخلفاء الراشدين ، توفى فى مثل هذا الشهر من سنة 1118 هـ وما رأى الناس بعده وقلما رأوا قبله مثله .

رحمة الله على روحه الطاهرة .

***

موسى بن نصير

هذى صفحة من تاريخ الفتح ، الذى كان أعجوبة التاريخ فى سرعته ومضائه ، كما كان أعجوبة التاريخ فى استمراره وبقائه ، وفى طهر أسلوبه ونقائه ، وفى سمو مقصده وعلائه . رأى التاريخ فتوحاً لا تعد من كثرتها ولا تحصى ، فما رأى فتحاً أسرع منه ولا أنفع . لم يكن فيه شعب غالب وشعب مغلوب ، بل كان فيه أتقياء بررة ، وفساق فجرة ، وملحدون كفرة ، فكان أكرم الناس أتقاهم ، سواء فيه أكان فى الأصل من الغالبين أو المغلوبين ؛ لأن الإسلام لا ينظر إلى الأنساب ، بل إلى الأعمال ، ولا يميز الناس بآبائهم بل بأنفسهم . وليست العظمة فيه بعلو الجاه وكثرة المال ، بل بصدق الإيمان وحسن الفعال .

ولئن هدى الله مصر بعمرو ، فكان إسلامها حسنة من حسناته . فالمغرب حسنة من حسنات عقبة بن نافع أولاً ، وحسان بن النعمان ثانياً ، وموسى بن نصير أخيراً . ولولا موسى ما استقر فيها الفتح ، ولا خلصت للإسلام . ولولا موسى ما كان لنا فى الأندلس هذا الفردوس الذى فقدناه .

وموسى بطل مظلوم ، ظُلِمَ فى حياته ، فكانت مكافأته شر مكافأة على أحسن عمل ، حمل وزرها سلَيمان بن عبد الملك إذ أساء إلى كل من أدركه من الفاتحين الذين أحسنوا للعروبة والإسلام ، ولم يكن له من أعمال الخير إلا أنه سمع رأي روح بن زنباع فجعل ولى عهده الخليفة الصالح المصلح عمر بن عبد العزيز .

وظلم بعد موته . فخلد اسمَ طارق هذا الجبلُ ، والجبل الآخر الذى أقامه فى التاريخ من المكرمات ، وكاد ينسى اسم (جبل موسى) . وهو الذى بعث طارقاً ، وهو الذى مكَّن له ، وهو الذى أرسى أساس ذلك الصرح الذى شاد طارق شرفة من عالى شرفاته .

على أنى لا أظلم طارقاً ، وسيأتى عنه من الحديث ما فيه النَّصَفَة والحق إن شاء الله .

* * *

هذه سيرة موسى بن نصير ، أعرضها عرض القصة المتسلسلة ، لا أقف فيها لأعلل وأدلل ، وأقابل وأفاضل ، بل أدع الحوادث تنطق بلسان حالها ، لتكون قصة لمن أرادها قصة يتسلى بها ، وتاريخاً لمن شاء العبرة من التاريخ .

ولم يكن موسى قائداً عسكرياً فقط ، بل كان ـ كما ترون بعد ـ حاكماً إدارياً ، وكان خطيباً بليغاً ، وكان دَيِّنًا مراقباً ربه ، عاملاً لآخرته . وكان نموذجاً كاملاً لطلبة الدورة الثانية فى مدرسة محمد ـ ﷺ ـ ، وهم التابعون ، أما طلبة الدورة الأولى فهم خلاصة البشر ، ولباب اللباب « صحابة رسول الله » .

وكان والده نصير (مولى عبد العزيز بن مروان) من حرس معاوية ، فلما أعلن معاوية ثورته على أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وقام بهذا الانقلاب العسكرى الذى نجح ـ مع الأسف ـ قعد عن نصرته ، فقال له معاوية :

ـ ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها ؟

ـ فقال :

ـ لم أستطع أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكرى .

- قـال : ومن هو ويحك ؟ (فـوازن فى نفسـه بين حق معـاوية عليـه فى وجـوب نصرته ، وحق الله عليـه فى وجـوب القـعـود عنهـا ، ورأى أن الله يعصمه إن أطاعه من معاوية وغير معاوية ، ومعاوية لا يعصمه من الله) .

- قال : الله .

- فأطرق معاوية ملياً ، ثم قال له :

- لقد قلت حقاً . وأنا أستغفر الله .

ولو كان معاوية ملكاً كمن يعرف التاريخ من الملوك لغضب عليه ، ولكنه كان صاحب محمد - ﷺ - ، كان من كتاب الوحى الذى أنزله الله عليه . فلما رأي الحق رجع إليه .

ولزم موسى عبدَ العزيز بن مروان وكان أمير مصر ، وكان خير بنى مروان ، لا يفضله فيهم إلا ابنه عمر العظيم . فكان موسى مع المجاهدين لنشر الإسلام فى أفريقية ، سلك معهم الصحراء ، وركب معهم البحر ، وقاد حملات وسفناً إلى أن ولى الخلافة عبد الملك ، فأراد أن يُشَرِّف أخاه الأصغر بشْراً بولاية العراق ، ولكنه كان يعرف ضعفه عنها ، وكان يعلم أن من ولى رَجلاً ولاية وفى المسلمين من هو أقدر عليها ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين . فكتب إلى أخيه عبد العزيز أن يبعث بشراً - وكان معه فى مصر - أميراً على العراق ، وأن يبعث معه بموسى ، وأن يفهمه أنه هو الأمير الحقيقى ، وما لذاك إلا الاسم ، وأنه مسؤول عن كل خلل أو تقصير ، فاستلم بشر إمارة العراق ظاهراً ، وكان موسى الأمير حقاً . فأدار الأمور خير إدارة ، وساس الناس أعدل سياسة ، وبقى على ذلك حتى مات بشر ، وولى الرجل الحازم الصارم الظالم الحجاج . وكان يكرهه ويتهمه بتهم هو برىء منها ، فاستأذن عبد الملك فى

عقوبته ، وكان فى دمشق صديق لموسى هو خالد بن أبان فكتب إليه :

« إنك معزول ، وقد وجه إليك الحجاج بن يوسف ، وقد أمر فيك بأغلظ أمر ، فالنجاةَ النجاةَ ، فإما أن تلحق بالفرس فتأمن ، وإما أن تلحق بعبد العزيز مستجيراً به ، ولا تمكن ملعون ثقيف من نفسك فيحكم فيك » .

فلما أتاه الكتاب ركب فلحق بعبد العزيز بن مروان وكان فى الشام قد وفد يحمل أموال مصر إلى أمير المؤمنين .

وغضب الحجاج لما رآه أفلت منه . وكتب إلى عبد الملك : « يا أمير المؤمنين، إن موسى بن نصير قد اقتطع من أموال العراق ما لا يقدر ، وفرّ ، فابعث به إلى » .

ولكن عبد العزيز أدخله على أخيه الخليفة ، وعمل حتى رضّاه عنه ، ثم سيّره معه إلى مصر . وبقى فى مصر ، حتى خلا مكان القائد العام لجيوش العرب بموت حسان أو بعزله ـ وفى ذلك روايتان ـ فولى موسى القيادة العامة .

وكانت راية الإسلام قد رفرفت من قبل على أفريقية كلها ، على يد عقبة ابن نافع أولاً الذى اخترق بجيشه الشمال الأفريقى كله ، ماضياً وسط القبائل البربرية كالسهم . ثم على يد حسان بن النعمان ، ولكنها كانت حركة عسكرية . لم يكن بعدها استقرار ، ولم تطهر البلاد من قوى الأعداء .

فلما تسلم موسى ، رأى الجيوش الإسلامية التى بلغت البحر قد عادت إلى القيروان ، التى بناها عقبة مؤقتاً ، لتكون مركزاً ثابتاً للقيادة ، قد أصابها الجزر بعد ذلك المد ، فاضطرت إلى الانسحاب والتوقف بعد ذلك الهجوم[1] .

(1) كما وقع لرومل أقدر قائد معاصر فى أقوى جيش حديث بعد ذلك بثلاثة عشر قرناً ، ولكن رومل فشل نهائياً ، وفشل خصومه وإن ظفروا فى المعركة . وعادت البلاد إلى أهلها . وما أهلها إلا أولئك الفاتحين الأولين .

والقيران نفسها لم تكن إلا مجموعة من الأكواخ والخصاص ، حتى أن المسجد لم يكن أكثر منّ جدران من الطين قد سقفت ببعض الخشب ، وكانت الجبال المحيطة بها كلها بيد البربر . وكانوا يهددون المدينة دئماً ، فكان أهلها يصبحون على ترقب ، ويمسون على حذر .

ولم يجد الفاتحون المسلمون فى كل من قابلوا من الأمم من هو أقوى ساعداً، وأجرأ قلباً ، وأكثر بالحرب تمرساً من الترك فى الشرق ، والبربر فى الغرب . فرمى الله أولئك بقتيبة وهؤلاء بعقبة ثم بموسى .

ولما وصل موسى إلى مقر القيادة فى ذات الجماجم . جمع القواد والضباط وخطبهم خطبة عرفهم فيها بنفسه وبخطته ، وأعلن فيها أسلوبه فى الحكم . فكان الأسلوب العمرى : شدة فى غير عنف ، ولينا فى غير ضعف ، وتواضعا فى غير مذلة ، لا استئثار فيه ولا استبداد ، وليس فيه حمل على باطل . فكان مما قال :

« وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى منى حسنة فليحمد الله وليحض على مثلها ، ومن رأى منى سيئة فلينكرها فإنى أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون . ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان ـ إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

ثم نقل القيادة إلى المركز الأمامى إلى القيروان . وهناك خطب خطبة ثانية أعلن فيها طريقته فى القيادة العسكرية ، كما أعلن فى الأولى طريقته فى الإدارة المدنية ، فقال :

« ليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم من غير

أن يكلم أو يكلم . متوكلاً فى حزمه ، جازماً فى عزمه ، مستزيداً فى علمه ، مستشيراً لأهل الرأى فى إحكام رأيه ، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً ، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً ، راجياً من الله حسن العاقبة . وإن من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدواً منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عونًا عليه عند النكبة ، وأيم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها ، أو يحكم الله فيها وهو خير الحاكمين » .

وفى هذه الخطبة الموجزة المعجزة أصدق صورة للقائد الكامل ، ولقد أمضى كل ما قاله فيها ، فجرد حملة من خمسمائة فارس ، وصلت إلى زعوان وعادت بشىء من الأسرى والغنائم .

ووجه حملة أخرى بقيادة ابنه عبد الرحمن ، وثالثة بقيادة ابنه مروان ، فطهر بذلك منطقة القيروان كلها من الأعداء . وأمن على مركز القيادة . وأحصيت الغنائم فبلغ الخمس ستين ألفاً . أعده ليبعث به إلى عبد العزيز ، وكتب إليه فى ذلك كتاباً ، أخطأ الكاتب فيه فذكر أن الخمس كان ثلاثين ألفاً .

فلما وصل الكتاب إلى عبد العزيز ، أكبر الرقم ولم يصدقه وكتب يقول له : « هل هذا صحيح أو هو خطأ من الكاتب ؟ » .

فأجابه أنه خطأ كما قدر الأمير ، ولكنه خطأ نقص لا زيادة ، والرقم الحقيقى هو ستون ألفاً .

***

ووجه همته إلى الفتح .

وكان أدنى القبائل إليه هوارة وزناتة وكتامة ، تسرح فى موضع حكومة

الجزائر اليوم . وهى قبائل بربرية مقاتلة لا تحصى كثرة وعدداً ، وكان فى المغرب الأقصى قبائل صنهاجة القوية الشديدة ، وكانوا جميعاً محاربين صحراويين ، ولكن العرب كانوا كذلك صحراويين محاربين . وكانوا مسلحين بالإيمان الذى يجعلهم يطلبون الموت فى سبيل الله ، كما يطلب غيرهم الحياة ، فلم يكن يخيفهم شيء ، وهل أخوف من الموت ، فبماذا تخيف من يطلب الموت ؟ .

وجرد الحملات أولا على القبائل القريبة منه ، وكانت قد جربت قتال العرب المسلمين وعرفت ما هم فى الحروب . فدافعت دفاعاً قوياً ، وكانت مواقع مهولة كان فيها الظفر للمسلمين فاستسلمت تلك القبائل ، فصالحهم موسى وأخذ منهم رهائن لئلا يغدروا على عادة تلك القبائل . فأحس منهم الغدر ، فهم بالبطش بالرهائن فقالوا له :

لا تعجل أيها الأمير حتى يتبين لك الأمر ، فإن آباءنا وقومنا لن يعودوا إلى الخلاف ، ونحن فى يدك ، فإن وجدتهم غدروا فأنت على ما تريد أقدر منك على استحيائنا بعد القتل . فأمهلهم وخرج إلى كتامة فوجد وجوهها ورؤساءها قد تلقوه مسالمين معتذرين . فقبل منهم واستحيا رهائنهم .

***

وتوجه بعد ذلك إلى قبائل صنهاجة بقوى ضخمة من أهل الديوان (أى الجند النظامى) والمتطوعة من العرب وممن أسلم من البربر ، فوجد النهر فى طريقه فى فيضانه وزيادته ، فأحدث فيه مخاضة غير التى كان أحدثها عقبة ومضى قدماً ، فوجدهم مستعدين للحرب ، وكانت المعركة فى دارة واسعة بين جبال منيعة اختاروها ، لا يوصل إليها إلا من مضايق قليلة بين الصخور ، ودارت المعركة يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت إلى العصر ، وكانت من أعنف المعارك .

وخرج خلالها فارس من فرسان البربر ، فدعا إلى المبارزة فلم يجبه أحد ، لما رأوا من شكله وهوله . فأمر موسى ابنه مروان فخرج إليه . فلما رآه البربرى شاباً حدثاً ضحك منه وقال له :

ارجع فلست أريد أعدم منك إياك .

فحمل عليه مروان ، حتى ألجأه إلى طرف الجبل ، فكر البربرى ورماه بالمزراق ، وهو كالرمح القصير فتلقاه مروان من الهواء بيده ولحقه فرماه به ، فخرج جنبه وسقط .

وكان الظفر للمسلمين ، وبسطوا سلطان الإسلام على الشمال الأفريقى ، ولم يبق إلا منطقة طنجة والريف ، وبعث بالأخماس إلى الخليفة .

وهاكم خبراً يدلكم على جانب من نبل هذا الرجل وتقاه .

ولما قدم كتاب موسى على عبد الملك بن مروان بالفتح ، أمر له بمائة ألف عطية له يأخذها من الأخماس ، وله أن يأخذها شرعاً ؛ لأن السنة أن من جاءه شيء من هذا المال بغير طلب منه له ، ولا استشراف نفس ، كان له أن يأخذه ثم يتموله أو يتصدق به . فإن أخذه لنفسه انتفع به فى دنياه والدنيا فانية ، وإن تصدق به قدمه بين يديه ابتغاء منفعة فى الآخرة الباقية ، فآثر موسى الآخرة على الدنيا ، وجمع الجند فأشهدهم أنه جعله كله معونة للمسلمين ، وفى الرقاب [1] .

وكان إذا أفاء الله عليه شيئاً نظر فى الأسرى ومحص عقولهم ، وجرب فطنتهم ، فمن وجده ذا عقل وفطنة ، عرض عليه الإسلام ، فإن أسلم أعتقه وتولاه ، وتعهده حتى ينجب ، فنشأ بذلك طبقة من البربر كان منها القواد

(1) أى لتحرير العبيد .

ومنها العلماء . ولعل طارقاً فاتح الأندلس كان من هؤلاء ، لأن أصح الأقوال فى أصله أنه كان من مسلمة البربر .

كان عقبة قد وصل إلى البحر الأعظم (الأطلسى) فخاضه بفرسه ، وقال : « اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهدا فى سبيلك » .

ولولا أن البحر منعه لمضى .

أما موسى فلم يمنعه البحر أن يمضى ، ولم يخضه بفرس ولا ناقة ، بل دخل البيوت من أبوابها ، ونال الأمور بأسبابها ، فركب ظهر البحر بسفينة وأسطول ، وكان موسى كما قدمنا قد شارك قبل إمارته فى الجهاد المقدس فى البر وفى البحر .

فلما أخضع الآن البر كله ، وأتم ما كان ابتدأ به عقبة ، ولى وجهه شطر البحر ، فأنشأ داراً للصناعة ، وهى بركة عظيمة جداً حفرها فى موضع أمين قريب من موضع تونس اليوم ، وحفر قناة أجرى فيها الماء من البحر إلى هذه البركة . وأمر بصناعة مائة مركب .

وقدم عطاء بن أبى نافع الهذلى فى أسطول مصر . وكان قد بعثه عبدالعزيز إلى جزيرة سردانية ، فأرسى بسوسة ، فأمر له موسى بما يحتاج إليه ، وكتب إليه أن ركوبالبحر قد مضى فى هذا العام وقته ، وقد جاء تشرين الآخر فلا تغرر بنفسك وبالمسلمين . فلم يلق عطاء بالاً لكتاب موسى ولم يبال به ، وشحن مراكبه وأبحر ، فافتتح جزيرة صغيرة وأصاب مغنماً وربحاً ، وعاد فأصابته الرياح العاصفة وهاج عليه البحر ، فغرق عطاء وغرق من كان معه ، ووقع من نجا منهم إلى سواحل أفريقية ، فلما بلغ ذلك موسى ، بعث فرقة من الجيش للتفتيش عنهم وإنقاذهم ، وأمر بحطام تلك المراكب فأدخلت دار

الصناعة وجددت ، فلما تم الأسطول ، احتفل بإنزال سفنه إلى البحر احتفالاً ضخماً حضره وجوه الناس وأشرافهم . فأعلن أنه راكب بنفسه فرغب الناس في الركوب وأسرعوا ، فلما اكتمل جمعهم في السفن ، عقد لواء القيادة لولده عبد الله ، وولاه عليهم وأمره بالإقلاع من ساعته ، فوصل إلى صقلية وفتح مدينة فيها ، ورجع بالنصر المؤزر ، والغنائم الوافرة . وتعاقبت الغزوات في البحر إلى سردانية وصقلية ، وافتتحت الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة وغيرهما) .

ثم وجه ابنه مروان ففتح السوس الأقصى ومدينتها طنجة ، ولم يبق بقعة في أفريقية خارجة عن حكم الإسلام إلا سبتة ، فكانت من أملاك إسبانيا .

وكان موسى عازماً على افتتاحها بل كان يطمح إلى افتتاح إسبانيا ذاتها . ولكن أحب أن يمهد لذلك بمعارك فرعية خوفاً من المغامرة بجمهور الجيش الإسلامي ، وعملاً بتوجيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وأعد حملة بحرية بقيادة طريف بن مالك البربري ، فوصلت إلى الجزيرة التي سميت جزيرة طريف ، وعادت سالمة غانمة .

فجهز حملة كبيرة ، من سبعة آلاف أكثرهم من البربر . وكان البربر قد أسلموا وحسن إسلامهم . والبربر أمة صحراوية ، سليمة القلوب ، متينة الأخلاق ، حاربت الإسلام أولاً كما حاربه العرب . ثم قبلته كما قبلوه فكان منها جند موسى وأعوانه في هذا الجهاد . فنجحت ذلك النجاح العجيب ، وفتح مدناً عظاماً ، وكاد يكتسح الأندلس كلها[1] لولا أن موسى ، أمره بالتوقف حتى يلحق به ، وكان موسى ـ وهو القائد العام ـ لم يرد من بعث طارق فتح البلاد بل إثارة معارك محلية للاختبار ودراسة حال العدو ، وحدد

(1) ستقرأ خبر ذلك مفصلاً إن شاء الله .

له أمداً لا يجاوزه ، والحياة العسكرية تقوم على الطاعة ، فلما جاوز المدى ، وأوغل بجيشه الصغير حتى صار معرضاً للتطويق ، وكان مستحقًا للعقوبة على ما أتى من المخالفة ، وإن كان مستأهلاً للشكر على ما أصاب من النجاح . ولو كان طارق قائداً من قواد اليوم وفعل ذلك لحوكم أمام المجلس العسكرى ، فإما أن يعاقبه وإما أن يخفف الحكم عليه أو يبرئه . وهذا ما صنعه موسى بطارق . كما تعلمون بعد قليل .

دخل موسى الأندلس بجيش كبير ، فيه ثمانية عشر ألفاً نصفهم من البربر ، يحمى به جيش طارق ، ويشد أزره ، وكان شيخاً كبيراً قد جاوزت سنه السبعين ، ولكنه كان كالأسد الكاسر ، فعبر إسبانيا ودوخها ، لم يقف أمامه عدو ، ولم يثبت أمامه خصم ، ولم يستعص عليه حصن .

ترك الجبل الذى دخل منه طارق ، ودخل من الموضع الذى كان معروفاً ـ إلى أيام المقرى مؤلف نفح الطيب (إلى ما قبل ثلاثمائة سنة فقط) ـ بجبل موسى ، كما عرف مدخل طارق بجبل طارق ، ولا يزال يعرف بذلك إلى الآن ، فى الدنيا كلها .

ثم سلك غربى الطريق الذى سلكه طارق ، فأتى أولاً على شذونة فافتتحها عنوة ، ثم سار إلى مدينة قرمونة (كارامونا) ولم يكن فى الأندلس ـ كما فى نفح الطيب ـ أحصن منها ، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال . فدخلها ، ثم مضى إلى أشبيلية ، وكانت أعظم المدن شأنا ، وأعجبها بنياناً ، وأكثرها آثاراً . وكانت دار الملك قبل القوط ، فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس ، حولوا السلطان إلى طليطلة وبقى رؤساء الدين فى أشبيلية . فامتنعت على موسى مدة ثم فتحها الله عليه ، واعتصم فلول جيش الإسبان فى

قلعة لقنت (آليكانت) ففتح الحصن وتوجه إلى مدينة ماردة (ميريدا) وكانت عاصمة مملكة قديمة ذات عز ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر ، فحاصرها ودافع أهلها دفاعاً شديداً . فعمل موسى دبابة [1] ، دب المسلمون تحتها من برج إلى برج يهدمونه بمعاولهم ، فصالحه أهلها وفتحت . وانتفضت أشبيلية وثار أهلها فبعث إليهم ابنه عبد العزيز فأعاد فتحها ثم توجه موسى إلى طليطلة .

ولما لقى طارقاً ، ووقعت عليه عينه ترجل طارق ، فوبخه موسى على مخالفته أوامر القيادة العليا ، وهم بعقوبته وطالبه بأداء ما عنده من مال الفىء وذخائر الملوك ، واستعجله بالمائدة فأتاه بها بعدما خلع رجلاً من أرجلها وخبأها عنده .

ولهذه المائدة أخبار كثيرة ، وأوصاف فيها مبالغات . و كانت تسمى مائدة سليمان النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ . وما لسليمان علم بها . وحقيقة أمرها أن أتقياء النصارى فى إسبانيا كانوا يوصون بالأموال الجزيلة للكنائس ، فإذا اجتمع ذلك المال صاغوا منه الموائد والكراسى من الذهب والفضة وحلوها بكريم الحجارة ، وحمل عليها القساوسة الأناجيل فى حفلاتهم وأعيادهم .

وكانت تلك المائدة فى طليطلة مما صيغ فى هذا السبيل ، وبالغوا فى تفخيمهما ، يزيد فيها كل ملك على ما صنع سلفه ، حتى بلغت مبلغاً لم تصل إليه تحفة من التحف . ولم يكن يبلغ حقيقة قدرها ثمن من الأثمان .

***

(1) عربة مغطاة بالخشب والجلود ، يهجمون بها على الأسوار ، ومنها ما له رأس من حديد ثقيل لنقب السور يسمى الكبش .

ثم عفا موسى عن طارق ، وغفر له مخالفته فى جنب ما جاء على يديه من عظيم الفتوح ، وأقره على مقدمته ، وسيره لفتح شرق الجزيرة ، وسار هو غرباً ، وكانا قد انتهيا من فتح مقاطعة الأندلس ، ومقاطعة قشتالة ، وتوجه موسى إلى الأراغون ، فاجتمعا أمام أسوار سرقسطة ، فافتتحت بقيادة موسى ، ثم شرق طارق فافتتح بلنسية (فالانس) وبرشلونة (بارسلونا) وهى العاصمة الثانية للبلاد ، ثم اخترق موسى جبال البرنس (البرنة) وفتح جنوبى فرنسا . ووجه طارقاً إلى جليقية ،وهى الزاوية الشمالية الغربية من إسبانيا ولم يكن قد بقى للعدو غيرها . وأعلن موسى خطته الجريئة العظيمة ، وهى اختراق أوربة من الغرب إلى الشرق ، وافتتاحها كلها ، وكان ذلك ممكنًا عسكريًا ، وكان موسى أهلاً له بمساعدة طارق وغيره من قواده ، وكان قادراً بعون الله عليه ، وكان فى ذلك -لو تم- تغيير تاريخ العالم ، وكانت السيادة اليوم فى الأرض للمسلمين ، وكانوا هم أرباب العلم والقلم ، والسيف والعلَم، ولنجت الدنيا من شرور الغرب والشرق ، من القنبلة الذرية التى تهلك الحرث والنسل ، وتخرب المدن والقرى ، ومن القنبلة (الأخرى) التى تذهب الدين والخلق والحرية والإنسانية : وهى الشيوعية ، ولكن الله لم يرد هذا ، ولا راد لإرادته ، فأقام دونه حاجزاً من أمر الخليفة فى دمشق باستدعاء موسى إليه ، وأنتم تعرفون بقية المأساة التى انتهت بها سيرته .

***

فاتح القدس

قل للملوك تنحوا عن عروشكم

فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

هذا الذى أخذ الدنيا بسيف الظفر ، ثم جاد بها بيد الكرم ، هذا الذى روع أوروبة مرتين : مرة حين قهر جيوشها بسيفه ، و مرة حين شَدَهَ نفوسها بنبله . هذا الذى كان النموذج الأتم للقائد المنصور ، وكان المثل الأعلى للحاكم المسلم ، وكان الصورة الكاملة للفارس النبيل ، والمسلم الصادق . وكان المحرر الأعظم ؛ حرر هذه البلاد : الشام و فلسطين من استعما ر الأوربيين بعدما استمر نحوا من مائة سنة .

هذا الذى انتزع من أصدقائه ومن أعدائه ، أعظم الإعجاب ، وأصدق الحب ، و ترك فى تواريخ الشرق والغرب أكبر الأمجاد ، وأعطر السجايا ، وكان اسمه من أضخم الأسماء التى رنت فى سمع الزمان ، ودوت فى أرجاء التاريخ ، وخلدت على وجه الدهر : « صلاح الدين الأيوبى » .

سقطت على أقدامه الدول ، ووقفت على أعتابه الملوك ، ودانت له الرقاب ، وانقادت إليه الخزائن ، ومات ولم يخلف إلا سبعة وأربعين درهماً وديناراً ذهبياً واحداً ، ولم يترك داراً ولا عقاراً ، فجهز وأخرجت جنازته ـ كما يقسم القاضى ابن شداد ـ بالدين ! ! .

لقد قرأت سيرة صلاح الدين مراراً ، ولكنى عدت أنظر فيها قبل أن أكتب هذا الفصل ، فقرأت فى سيرته وحروبه أكثر من ألف صفحة ، فكان من

أعجب ما وجدت أن ينبغ هذا الرجل العظيم (جداً) ، فى ذلك الزمان الفاسد (جداً) ، وأن يتغلّب على العدو القوى (جداً) .

كان المسلمون قبل نور الدين ، وصلاح الدين ، على شر حال من الانقسام، على حال لا يمكن أن يصل إلى توهمها وهم [1] واحد منكم مهما بالغ فى تصور الشر ، كان فى هذه البقعة الضيقة من الوطن الإسلامى ، من الدول ، بمقدار ما كان فيها من البلدان ، ففى كل بلدة دولة مستقلة : فى دمشق دولة ، وفى شيزر دولة ، وفى حماة دولة ، وفى بعلبك ، وفى حلب ، وفى ماردين ، وفى خلاط ، وفى الموصل ، وفى سنجار بجنب الموصل ! وفى الحلة [2] ، وفى بانياس وفى الجبل دول . وكان فى كل دولة ملك أو أمير ، أمراء منكرون لهم أسماء عجيبة وسير أعجب . وكان أقصى مدى لصلاح الدين ونور الدين من قبله ، أن يكون كواحد من هؤلاء الأمراء ، وإن هو نبغ كان أكبرهم ، فكيف ظهر هذان البطلان الخالدان ، فى مثل ذلك الزمان ؟

***

وكانت قد دهمت الشام قبل صلاح الدين حملتان صليبيتان ، جاءتا كموج البحر لهما أول وليس لهما آخر ، ساقهما الطامعون فى هذه البلاد باسم الغيرة على النصرانية ، وإنقاذ أرض المسيح من أيدى الوحوش الضوارى ذوات الأنياب والمخالب : المسلمين !

وكانت لهم دول ، دول لا دولة واحدة ، فلهم فى القدس مملكة ، وفى أنطاكية إمارة ، وفي طرابلس ، وفى الرها (أورفه) حكومة . ولهم فى يافا كونتيه . دول وإمارات طالت جذورها ، وبسقت فروعها ، وعششت بومها وباضت وفرخت ، وحسب أهلها ، وحسب المسلمون أنها امتلكت الشام إلى الأبد .

---

(1) « الوهم » و « التوهم » عند علمائنا الأولين ما يسمى « الخيال » ومنه الرسالة القيمة « التوهم » .

(2) وللباطنية (الحشاشين) من الإسماعيلية دولة .

فكيف استطاع صلاح الدين أن يصنع من ضعف المسلمين قوة ، ومن انقسامهم وحدة ، حتى واجه بهم أوروبة كلها ، وأزال ـ ما أمكن ـ من بقايا الحملتين الماضيتين ، ورد الحملة الثالثة الهائلة التى رمته بها أوروبة ؟

أتدرون كيف ؟

إنه ما رد العدو بعدد المسلمين ولا بعُدَدهم ، ولكن بالسلاح الوحيد الذى لا ينفع فى هذا المقام غيره : « بالإيمان » .

غير ما كان بنفسه من الفساد ، فغير الله على يديه ما كان فى قومه من الضعف والتخاذل ، كان يلهو ويعطى نفسه هواها ، فتاب وأناب ، لم يفسد بالإمارة كما يفسد بها كل صالح ، بل صلح بها بعد أن كان هو الفاسد ، ورجع إلى الله ، فأرجع الله إليه النصر .

استمد أخلاقه وسيرته من إرث محمد ـ ﷺ ـ فى التقوى والصلاح فأعطاه الله إرث محمد فى الغلبة والظفر .

تمسك بالدين وأقام دولته على أساس من الإسلام متين ، فاستطاع بهذه الدولة المتفرقة الجاهلة الهزيلة ، وهؤلاء الأمراء المنكرين ذوى الأسماء العجيبة ، أن يحارب أوروبة كلها ، أوروبة الحانقة الحاقدة المتعصبة التى اجتمع ملوكها جميعاً على حرب فلسطين .

صحح عقيدته أولاً ، وسأل (القطب النيسابورى) فألف له عقيدة عكف عليها وصار يلقنها أبناءه ، وقرب أهل العلم والدين ، فكان مستشاريه وخاصته أعلام العصر : القاضى الفاضل ، والقاضى ابن الزكى ، والقاضى ابن شداد ، وكان كلما نزل بلداً دعا علماءه ، ومن كان لا يأتى منهم أبواب السلاطين أخذ أولاده وذهب إليه ، كما ذهب إلى (الحافظ الأصبهانى) فى

الإسكندرية ، وكان يحرص على صلاة الجماعة ، ولا يترك الصلاة قط إلا فى الأيام الثلاثة التى غاب فيها قبل موته ، وكان يصوم حتى فى أيام المعارك ، وكان مكثراً سماع القرآن يبكى من خشية الله عند سماعه ، ويواظب على مجالس العلم والحديث ، حتى فى ليالى القتال ،لم يترك صلاة الليل إلا نادراً، يلجأ إلى الله كلما دهمته الشدائد ، وضاقت عليه المسالك ، فيجد الفرج والنجاة ؛ لأنها إن سدت أبواب الأرض أحياناً ، فإن باب السماء لا يسد أبداً ، وكان يقيم الحق لا يبالى ولا يحابى أحداً . أخذ مرة ابن أخيه تقى الدين وأعز الناس عليه بشكوى عامى من دمشق اسمه ابن زهير ونكل به . أما كرمه وهوان الدنيا عليه ، فأمر لا تتسع له الأحاديث . وكان اعتماده على الله ، ما استكثر قط عدواً ، ولا خافه ، ولا فقد أعصابه قط فى هزيمة ولا ظفر . وكان متواضعاً يطأ الناس (طراحته) عند ازدحامهم للشكوى ، ويردون عليه ويضايقونه فى أوقات راحته، ما غضب لنفسه قط ، ولكنه إذا غضب لله ، لم يجرؤ أحد أن يرفع النظر إلى وجهه ،وصار كالأسد الكاسر لا يقف أمامه شيء . وكان محتسباً صابراً ، ولما جاءه نعى ولده إسماعيل ، قرأ الكتاب ودمعت عيناه ، ولم يقل شيئاً ولم يعرف الناس إلا بعد .

ولما جاءه نعى ابن أخيه تقى الدين ، أبعد الناس عن خيمته وجعل يبكى بكاء شديداً ، والقضاة معه يبكون لبكائه ولا يعرفون السبب ، فقال لهم والعبرة تخنقه : مات تقى الدين . ثم رجع إلى نفسه فاستغفر الله ، وغسل عينيه بماء الورد ، وكتم الخبر كيلا يبلغ العدو فيقوى ، أو الجيش فيضعف .

وكان حسن العشرة ، طيب الأخلاق ، حافظاً للأخبار والنوادر ، وكان معتلاً بدمامل ما تفارق نصفه الأدنى ، وكان مع ذلك يركب الخيل ويصبر على الألم ، ويخوض المعارك .

* * *

وأى معارك ؟ أنا لا أعرف فى كل ما قرأت من كتب التاريخ ، وأظن أنى قرأت تاريخ الشرق والغرب ، جيشاً خاض من المعارك أكثر مما خاضه جيش صلاح الدين ، لقد ضرب كل رقم قياسى إلى ذلك العصر ، خاض أربعاً وسبعين معركة فى مدة ولايته على الشام ، فى أقل من تسع عشرة سنة .

حارب هؤلاء الأمراء ، أمراء الموصل ، وأمراء حلب وحماة ، وحارب الحشاشين القتالين ، ومن اشتهارهم بالقتل اشتق اسم (أساسان) فى الفرنسية للقاتل . ولا تقولوا كيف حارب أمراء الإسلام ؟ فإن الذى يريد أن يبنى له داراً ، لابد أن يزيل الأنقاض والخرائب ، فهو يهدم بيته البالى ليبنى بيتاً جديداً ، وكذلك فعل صلاح الدين ، ثم ابتدأت سلسلة المعارك الهائلة ، حروب ما عرفت مثلها أرض فلسطين وديار الشام إلى ذلك العصر ، حروب لا تقاس بها القادسية ولا اليرموك . . حروب جرب فيها كل سلاح : السيف والرمح والدبابات والمجانيق ، والشجاعة والكيد ، والذكاء والاختراع ، والمروءة والشهامة ، وكان صلاح الدين ظافرا فيها جميعاً .

حروب استعملت فيها المنجنيقات التى تقذف الصخور الهائلة كالمدافع الثقيلة اليوم ، والسهام المتلاحقة كالرشاشات ، يمهد للمعركة بآلاف القذائف ، وبالضرب الذى يستمر يومين وثلاثاً . واستعملت الأكباش ، وهى عربات ضخمة مصفحة لها رأس ثقيل ينقب الأسوار ، والدبابات ، نعم الدبابات ، وهذا هو اسمها القديم ، وكانوا يفتنون فيها حتى اخترع الإفرنج فى حصار عكا دبابة ثقيلة صنعوا منها ثلاثاً ، فى كل منها أربع طبقات ، فجاءت أعلى من السور ، وحصنوها بالحديد والجلود المسقاة بمواد يعرفونها تمنع الحريق ، ولم تؤثر فيها قذائف المسلمين ولا النار اليونانية التى كانوا يلقونها ، وجزع المسلمون وخافوا ، فقال لهم صانع من دمشق اسمه ابن شيخ النحاسين : أنا

أصنع لكم ناراً تحرقها ، فاستصغروه فلما ألح أجابوه ، فاستمهل يومين ثم صنع أشياء خلطها ووضعها فى قدور ثلاث ، وألقاها فانفجرت كالقنابل ، بمثل دوى الرعد ، وأحرقت الدبابات ، وكبر المسلمون، وكان يومًا عظيمًا ، ولما عرضوا عليه الجوائز أباها ، وقال : عملت ذلك لله !

وجاء العدو مرة بكبش (مصفح) عظيم ، فأحرقه المسلمون ، ثم خافوا أن ينسحب ، فرفعوه (وهو يشتعل) بالآلات (اللنشات) حتى قارب السور فصبوا عليه خراطيم الماء ، وأخذوه والفرنج ينظرون مشدوهين ، فوجدوا فيه (425) رطلاً من الحديد .

واستعملوا الحيلة : لما ضاقت الميرة على عكا أثناء الحصار ، وفشلت كل محاولة لإمدادها بالأغذية ، تطوع جماعة من المسلمين فحلقوا لحاهم ولبسو لباس الإفرنج ، وحملوا معهم الخنازير ، وتكلموا الفرنسية ، وركبوا بطشة (زروقا ضخماً) ودخلوا بحيلة من أعجب حيل الحروب .

ومن هذه الحيل أن صلاح الدين كان يعرف القاعدة العسكرية ، وهى أن الجيش ليس المرابط فى الجبهة ، ولكن الشعب كله جيش ، لذلك كان يستغل كل قواه للحرب ، حتى اللصوصية ، جمع اللصوص ليتخلص من شرهم ، ولكنه لم يحبسهم بل استخدمهم فى صنعتهم ، فكانوا يسرقون له الأمراء والجنود من فرشهم بطرق عجيبة رواها ابن شداد ، وطالما انتزع أمراء من تحت لحفهم والخناجر على أعناقهم ، والمخدر فى أجسامهم ، فلم يروا أنفسهم إلا أمام صلاح الدين .

ويوم حطين اتبع صلاح الدين (تكتيكاً) حربيا عجيباً ، حين أجبر الإفرنج على ملاقاته فى المكان الذى تخيره هو ، وتحصن فيه . ويوم نجح فى استرداد القدس أتى من النبل والكرم والمروءة ، ما لم يفرغ بعد مؤرخو الإفرنج من

الكلام فيه وتقديره .

استرد القدس بعدما ملكها الإفرنج إحدى وتسعين سنة ، أفتشكون فى استردادها اليوم ، و قد ملكها اليهود سبع سنين [1] ؟ استردها وحولها ، يحامى عنها دول أوروبة كلها وملوكها ، أفلا نستردها اليوم وحولها حفنة من شذاذ الآفاق ؟

لقد كانت للصليبيين دول ، استمرت أكثر من مائة سنة ، فأين تلك الدول؟ ولم نكن على مثل انتباهنا اليوم ، فعاملناها لم نقاطعها كما نقاطع الآن إسرائيل ، وحالفناها جميعاً حتى دمشق بلدنا قد حالفت مرة الصليبيين ضد المجاهد الأول عماد الدين ، وحالفهم الحشاشون ، وحالفهم شاور من قبل ، فهى بقى مع ذلك أثر للصليبيين ؟

إن الأمة التى أخرجت صلاح الدين ، وهى أسوأ من حالنا اليوم حالاً ، وأشد انقساماً وأكثر عيوباً ، لا تعجز عن أن تخرج اليوم مثل صلاح الدين .

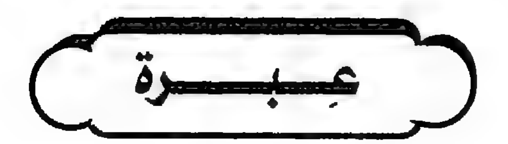
إن نكبة فلسطين بالصليبيين كانت أشد بمائة مرة من نكبتها بإسرائيل ، وقد مرت بسلام ، فهل تشكون فى أننا سننقذ فلسطين ؟ أما أنا فوالله الذى لا إله إلا هو ، لو بقى على وجه الأرض أربعون مسلماً لما شككت فى أنهم يستردونها ، وإنى لأشك فيمن يشك فى هذه الحقيقة ، أشك فى إدراكه لطبيعة هذه الأمة ، أشك فى عقله ، أشك فى أنه عربى وأنه مسلم [2] .

وإذا عجزنا نحن عن أن نعود إلى مثل سيرة صلاح الدين ليكتب لنا مثل نصر حطين ، فسيخرج من أصلابنا ، من هم أنقى منا وأطهر ، وسيستردون فلسطين .

---

(1) أذيع هذا الحديث سنة 1955 م .

(2) وهذا بعد أن نغيّر ما بأنفسنا ، ونعود إلى ديننا ، ونجاهد لإعلاء كلمة ربنا .



عِبـــــرة

كنت أتمنى ألا أحدثكم إلا أحاديث المكارم والمفاخر ، ولا أقص عليكم إلا أخبار النصر والظفر ولكنى رجل مؤرخ ، وحياة الأمم كحياة الأفراد ، فيها الصفاء وفيها الكدر ، وفيها الأعراس وفيها المآتم . ولا أكون أمينا على التاريخ ، ولا صادقاً فى الرواية ، ولا ناصحاً للقارئين ، إذا أريتكم صفاء الماضى دون كدره ، وسردت عليكم مباهجه دون مآسيه ، ولعل العبرة فى الهزيمة أكبر من العبرة بالنصر .

وأنا أستجديكم اليوم الدمع ، وأدعوكم إلى البكاء لا بكاء أبى عبد الله الصغير الذى سأحدثكم حديثه فهذا بكاء الأنذال ، إنما أريد بكاء الرجال ، والرجل قد تجيش عاطفته ، ويسيل قلبه دمعاً من عينيه ، ثم يمسح الدمعة ، وينسى العاطفة ، ويحكم العقل ، ويمضى إلى العمل ، فلئن ضاعت منا الأندلس ـ وسترون لم ضاعت ـ فقد أبقت لنا عبرة ، ولقنتنا درساً .

حديث اليوم عن الفردوس الإسلامى الذى فقدناه ، عن المأساة التى لم ير تاريخنا مثلها ، اللهم إلا مأساة فلسطين ، التى ستغدو لنا إن بقينا على غفلتنا وانقسامنا أندلساً جديدة ، ولن يكون ذلك ـ إن شاء الله ـ ما دام فى السماء رب عادل ، وعلى الأرض شعب مسلم .

الحديث عن أبى عبد الله الصغير ، وعن سقوط الأندلس ، وما هو ـ مع الأسف ـ إلا إشارات عابرة لتلكم الأحداث الجسام ، وكلمات قليلة عن هاتيكم الفواجع الكبار التى ملأت صحف التاريخ أسى وحزناً .

نحن الآن فى أواخر العهد بالأندلس ، فلقد تقلص ذلك المجد المنبسط ، وانزوت تلك الراية التى كانت ترفرف على أسوار طليطلة وقصور قرطبة ، وعلى سيف البحر من المرية إلى برشلونة ، والتى جازت جبال البرنس (البيرنة) حتى بلغت قلب فرنسا ، لقد مضى ذلك كله وانقضى ، فلا أمية باقية، تلوح أعلام قوادها وهى على عرش الخضراء فى دمشق ، أو على عرش الزهراء فى قرطبة ، ولا الموحدون تموج (الزلاقة)بفرسانهم الذين ينتزعون النصر من بين فكى الدهر ، لقد ذهبت الدول الحاكمة القوية ، فناد اليوم لا يلبك القائد عبد الرحمن الغافقى ، ولا الأمير عبد الرحمن الداخل ، ولا الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ولا يجبك الملك المظفر أسد الصحراء ابن تاشفين . وقد ذهبت الإمارات القوية ، فما فى البلاد اليوم مثل الحاجب المنصور ولا مثل ابن عباد ، ما فيها إلا إمارة صغيرة حقيرة فيها عرش صغير حقير ، نخر سوس الخلاف باطنه ، وهدت فؤوس الإسبان جوانبه ، ولا يزال أهله يتنازعون عليه ، ويتقاتلون من حوله ، عرش بنى الأحمر فى غرناطة . .

أتعرفون من أين جاءت هذه الإمارة التى كتب الله أن يكون ضياع الأندلس على أيديها ؟ .

كانت دولة الموحدين تحكم البلاد كلها ، والموحدون صحراويون أشداء ، لم تكن الحضارة بترفها قد أفسدتهم يوم أقبلوا ، ولا المدن بنعيمها ، فكانوا ينامون بمثل عين الذئب ، ويكشرون عن مثل أنياب الأسد ، كانوا أسود قفر ، فانجحرت منهم الذئاب ، وفرت من أمامهم ، فلما ذاقوا متع الحضارة ، واستراحوا إلى النعيم صاروا طواويس ، فاستأسدت من ضعفهم الثعالب .

وخرج عليهم ابن هود ، فاقتطع لنفسه ما استطاع من بلادهم ، وخرج على ابن هود ابن الأحمر ، فانتزع منه ما قدر عليه من بلاده ، وكان الموحدون

فى الأصل خارجين على الإمامة العظمى ، فكانت مملكة بنى الأحمر هذه ، مملكة خوارج على خوارج على خوارج .

ولم ينج ابن الأحمر من أمراء كانوا أصغر منه ، فخرجوا عليه ، يشترون منه ملكه برأس ماله ، وكان يحميهم الإسبان الذين كانوا يمدون أيديهم أبداً من وراء ستار ، فيضرمون هذه النار ، فلم يجد وسيلة لاستبقاء لذة الحكم ، إلا أن يبيع نفسه للشيطان ، ويخضع للإسبان ، ويجعل من نفسه ملكا على المسلمين ، وتابعاً لأعدائهم ، وكذلك يصنع حب السلطان .

وهذه مصيبتنا دائماً ، الانقسام وشهوة الحكم .

ثم تتنبه فى نفسه حمية المسلم ، وتستيقظ عزة المؤمن ، فيقطع حبل مودة الإسبانيين ، وتقوم الحرب بينه وبينهم ، ويعينه ملوك المغرب بجامع الأخوة الإسلامية التى لا تنفصم قط عراها ، فينتصر عليهم .

ويتسلسل الملك فى أولاده ، إلى العهد الذى أحدثكم حديثه ، حين يقوم النزاع على هذا العرش الصغير الذى لا يستحق أن يتنازع عليه غريبان ، فضلاً عن أن يتقاتل من أجله أخوان ، أبو عبد الله الكبير المعروف بالزغل ، وأبو الحسن والد أبى عبد الله الصغير ، وغلب الثانى على الملك ، وإن كان الأول أقوى وأحزم وأبرع وأحكم ، واستهوته حلاوة هذا العسل ، فأنسته السم الكامن فى قرارته ، وحمات النحل التى تحوم من حوله ، وغرق فى لذائذه ، وكانت له زوجة شريفة عفيفة من بنات عمه اسمها عائشة ، هى أم ولديه محمد (وهو أبو عبد الله الصغير) ويوسف ، فتركها وعشق فتاة إسبانية بارعة الجمال فاتنة الحسن ، وارتكب جريمة مثلثة اللعنات :

1 ـ حكمها فى نفسه وقصره ، وأطلعها على دخيلته وسره هى وقومها

الإسبان أعداءه وأعداء بلاده ودينه[1] .

2 ـ وظلم من أجلها زوجته الشرعية وجافاها وأذلها .

3 ـ ثم عمل ما لا يعمله رجل شريف ، فحبسها هي وولديها في البرج ، وبقيت الحمراء كلها لهذه الإسبانية تمرح فيها هي وأعوانها ، وتكيد للعرش وصاحبه ، وتخدم قومها الإسبان وهي محمية بعرش الملك المسلم .

وكانت هذه السيدة عائشة امرأة قادرة داهية أريبة ، فلم ترض لنفسها هذا المصير ، وأعدت العدة للفرار من البرج العالي وكاتبت أنصارها ، وهيأتهم للثورة على زوجها ، ثم شققت الستائر والملاحف ، واتخذت منها حبالاً تعلقت بها وولداها وهبطت من البرج .

وبينما كان أبو عبد الله الكبير يقاتل الإسبان ، ينازل جيشاً لهم جراراً جاء ليقضي على هذه البقية الباقية من دولة العرب في الأندلس ، كانت عائشة وابنها أبو عبد الله الصغير يقاتلان الملك العربي ، الأب يؤثر لذته على مروءته ، ويسيء لولده إرضاء لزوجته ، والابن يحارب أباه ، وكل ذلك والعدو على الأبواب .

هذا العدو الذي لم يكفه ما اقتطع من بلاد العرب ، ولم يكفه ما أراق من دمائهم ، فهو لا يزال لما يرى من تخاذلهم وانقسامهم وغفلتهم ، يطمع في القضاء عليهم[2] .

وانتزع أبو عبد الله الصغير هذا العرش المنحوس من أبيه ، وغلبه عليه

---

(1) وزواج الخلفاء بينات الأعداء ، كان من أكبر أسباب الضياع .

(2) هذا ما قلته وأذعته من أكثر من خمس وثلاثين سنة ، أسأل الله ألا يتكرر فينا الآن ، ومع عدونا الجديد قوم إسرائيل ، ومن يقف وراءهم ، ويحمي ظهورهم ، ويملأ بالطعام بطونهم ، وبالمال خزائنهم ، وبالسلاح أيديهم .

ولكن الإسبان جاؤوا فأسروا أبا عبد الله الصغير ، وحرموه بر الوالد ، ولذة الحكم .

وراحت عائشة تعمل عملها .. تستبيح كل شيء لتنقذ ولدها ، لقد غلبتها عاطفتها فنسيت حقوق الأمة ، وواجبات الدين ، وأحكام الشرف ، فعرضت على الإسبان معاهدة تخضع البلاد كلها لحكم ملك قشتالة ، ويؤدى أهلها الجزية إليه بعد أن كانوا هم الذين يأخذونها منه ، معاهدة الذل والخزى والعار ، ومع ذلك فقد تدلل الإسبان وأعرضوا ، وشمخوا بأنوفهم ، لأنه لم يعد يرضيهم وقد رأوا العرب يفقدون سلائق آبائهم ، وبطولات ماضيهم إلا أخذ كل شيء . ولم يطلقوا أبا عبد الله الصغير من الأسر إلا بعد ثلاث سنين . ودفعت البلاد حريتها ثمن حريته ، وبذلت كرامته وحياتها ليتربع على عرشه ـ وعاد معه الانقسام ، وانشطرت البلاد الإسلامية شطرين : شطر تبع هذا الملك الذى باع نفسه للشيطان كما فعل جده من قبل ، فكان ملكاً على المسلمين وعبداً للإسبان ، وشطر بقى على الولاء لعمه أبى عبد الله الكبير .

ووقعت الحرب الأهلية ، وأعان الإسبان صنيعتهم وتابعهم ، فطرد عمه وانفرد على هذا العرش الملطخ بالأوضار .

ورحل أبو عبد الله الكبير إلى المغرب ، وكان بطلاً مجرباً وقائداً حازماً أريبًا ، ورأى الإسبان أنه لم يبق فى الميدان إلا هذا الشاب الضعيف ، أبو عبد الله الصغير ، فقرعوا طبول الحرب ، وأعلنوا أن قد أزفت ساعة إخراج العرب من إسبانيا التى كان دخولهم إليها سبب نعم الله عليها ، نقلها من الجهل إلى العلم ، ومن الهمجية إلى المدنية ، وأقام فيها صرح الحضارة الخيرة التى أرساها على العلم والإيمان ، فأثمرت السيادة والسعادة والأمان وقبست أوربة منها ومن المشرق أسباب الثقافة والعرفان .

وكانت عائشة قد أغضبت الله لترضى الإسبان ، وألبست قومها الذل والعار ، ليستمتع ابنها بهذه اللعبة الحلوة التى اسمها العرش ، فلم تستبقِ العرش ، ولا رضا الإسبان .

وكانت المعركة الأخيرة ، وبدأ الهجوم الغادر على القرى المسلمة فى الضواحى ، فكان منها أمثال « دير ياسين»و « تل الزعتر » وورد اللاجئون بالآلاف المؤلفة على غرناطة ، وهاج الناس وماجوا يفتشون عن القائد . والمسلمون مهما قل عددهم ، ونضب موردهم وساءت حالهم ، وانقطع مددهم ،لا يفقدون بطولتهم ما داموا يجدون القائد الذى يقودهم فى المعركة الحمراء ـ فلما ظهر هذا القائد وكان البطل الفارس المغوار موسى بن أبى الغسان[1] ورفع لهم لواء الجهاد ، وسل سيف القتال ، عصفت فى رؤوسهم نخوة العروبة ، وغلت فى دمائهم عزة الإيمان وأقدموا يدافعون ، ولولا ضعف أبى عبد الله الصغير ، ولولا هذه الحاشية حاشية السوء ، ولولا الانقسام وتدخل النساء فى شؤون الملك ، لبدأت هذه الفئة المجاهدة ، عهداً جديداً فى تاريخ الأندلس ، قد يمتد قرونا أخر ، وما كان طارق يوم هبط هذه الجزيرة أقوى عدة ولا كان أكثر عدداً ، ولكن كان جنده أشد اتفاقاً وطاعة ، وأكثر إيماناً.

لقد أبدى موسى وهؤلاء الأبطال المجاهدون من ضروب البطولة ، وألوان التضحيات ، ما لم يعرف التاريخ أعظم منه روعة ، وأكثر جلالاً ، ولكن كانت لله إرادة فى العرب والإسبان ، فلم يكن لهذه التضحيات وهذه البطولات ثمرة تقطف من رياض النصر . لقد قر رأى هذا الملك الضعيف العاجز وحاشيته على التسليم وكانت الهدنة .

---

(1) لى مسرحية عنه مثلت فى (الأمنية) فى دمشق سنة 1932 م بقيت مخطوطة عندى حتى طلبها الرائى (التليفزيون) فى جدة ، وأعطاها لمخرج اسمه العورى فأضاعها وما خجل ولا اعتذر .

وعقدوا معاهدة جديدة مع الإسبان ونسوا أنهم كلما عاهدوا عهداً نقضوه. معاهدة ظنوا أنهم سيحفظون بها للعرب أملاكهم وحريتهم فى دينهم ودنياهم، فلم يكن منها إلا ما حدثكم التاريخ، وقص عليكم الرواة.

وتلفتوا يفتشون عن نصير، فلم يجدوا نصيراً، واستجاروا بإخوانهم المسلمين فلم يلقوا مجيراً، وكان آل عثمان فى أوج سلطانهم، يحكمون ما بين خراسان وأسوار فيينا، ولكن لم يلتفت إليهم السلطان سليمان عاهل آل عثمان، الذى كان يومئذ أعظم ملوك أوربة، رغم الصرخة القوية التى أطلقها الشاعر الأندلسى، فدوت فى أرجاء الأرض ولا تزال تدوى فى جواء الزمان.

وخرج الملك المسلم سليل الأبطال، ليضع بين يدى عدوه أمانة القرون التى انتهت إليه، ليلقى على قدميه بكرامة المسلمين وأمجادهم، ليفتح له عاصمة ملكه، ويبيحه أبهاء الحمراء ومقاصرها، فلما تلاقيا هم بأن ينزل عن فرسه، مترجلاً أمام فرديننـد، فمنعه من الترجل وتقبل خضوعه واستخذاءه، ثم حوله إلى زوجته إيزابيلا فقدم إليها طاعته وولاءه، وسلمها مفاتيح غرناطة.

وانتهى هذا السفر الضخم الذى ملأناه مجداً وفضيلة وعلماً، فكانت خاتمته الخزى والعار، وهكذا تقوض هذا الصرح الذى أقمناه على جماجم أبطالنا، ونضحنا عليه دماء شهدائنا، ثم هدمناه بمعاول التفرق والانقسام، وشهوة الحكم وانتهاب اللذات، وهكذا انتهت فى لحظة حياة ثمانمائة سنة عاشها العرب فى الأندلس، جعلوها فيها شعلة نور، وروضة زهر وثمر، على حين كانت أوربة صحراء موحشة، تائهة تحت سجف الظلام.

وبكى أبو عبد الله بكاء الجبان الذليل فصرخت أمه عائشة: ابك مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال.

ومشى أبو عبد الله حتى إذا بلغ تل غرناطة ، وقف وتلفت ينظر من بعيد إلى شرفات القصر الذى كان منزل آبائه وملعب صباه وعرش ملكه فصار لعدوه [1] .

فهو لن يدخل أبهاءه مرة ثانية ولن يمرح فى جناته ، ولن تكتحل عينه برؤية الماء يفور من نوافيره ولن يصافح أنفه ريا عبيره .

وأدار رأسه، ومشى إلى الأمام يستقبل الآتى المجهول . وغابت عن عينيه أبراج الحمراء إلى الأبد .

* * *

(1) اقرأ فى كتابى (قصص من التاريخ) قصة (محمد الصغير) إنها قصة متخيلة كتبتها أنا ، ولكن ما قرأها عربى مسلم إلا بكى .



الفصل الثانى

- حجة الإسلام
- الظاهر بيبرس
- السلطان الشهيد
- شيخ من دمشق

حُجَّة الإسلام

نحن اليوم فى نيسابور ، فى معسكر الوزير العظيم ، نظام الملك ، الذى كان يدير من هذا المعسكر فى ضاحية نيسابور ، أكثر من نصف بلاد الإسلام ، وكان قصره حافلاً أبداً بالعلماء ، ولكنه اليوم أحفل منه كل يوم ؛ لأنه يوم المباراة العامة ، وأنتم تعرفون المباريات الرياضية ، وتحتشدون لها ولكنكم لا تعرفون المباريات العلمية التى كانت تسمى المناظرات ، ويجتمع لها الناس، ويشرف عليها الأمراء وقد يكون منها ما هو قاصر على فن من الفنون، كالمناظرات النحوية والكلامية والفقهية ، ومنها ما يشتمل على أكثر من فن واحد . أما مباراة اليوم فعجيبة حقاً ؛ لأنها مباراة فى كل علم ، والمتبا رون العلماء جميعاً ضد رجل واحد ، يقدم [1] المعسكر للمرة الأولى .

شاب عمره ثلاث وثلاثون سنة . ولكن اسمه كان قد ملأ الأسماع ، وتآليفه سارت كل مسير .

وكان اليوم الأول للمناظرة فى فقه الشافعية : أصوله وفروعه ، واجتمع كبار الفقهاء ، وازدحم الناس يستمعون ، وحضر نظام الملك ، فأوردوا على هذا الشاب غرائب المسائل ، فأجاب عنها كلها بنظر دقيق ، واستخراج عجيب ، وأورد عليهم ما لم يستطيعوا له جواباً ، فأقروا له جميعاً بالإمامة فى المذهب ، وبايعوه على رياسة الشافعية فى تلك الديار .

ثم كان اليوم الثانى ، فناظر المتكلمين ، وأنتم تعلمون أن هاتيك الحقبة كانت العصر الذهبى للكلام ، وأن علم الكلام كان يومئذ خلاصة الفلسفة

(1) قدم يقدم على وزن علم يعلم ، أى جاء .

والشريعة ، وكان المطلب الأعلى للعلماء ، و إن كان من الواجب عليّ أن أقرر هنا أن أسلوب القرآن فى تقرير مسائل التوحيد هو الأسلوب الكامل ، الذى لا نحتاج معه إلى فلسفة ولا كلام . وكانت مناظرة هائلة ، استمرت ساعات ، وانتهت بالإقرار له بإمامة المتكلمين ، وبأنه فذ مفرد نسيج وحده ، لا مثيل له فى الرجال .

وكان اليوم الثالث موعد المناظرة فى الفلسفة اليونانية ، وجاء الفلاسفة الذين قرؤوا كتب أفلاطون وأرسطو متعالين شامخين بأنوفهم ، كأنهم يترفعون عن مناظرة هذا الشيخ الفقيه ، الذى لم يقرأ - كما ظنوا - كتب فلاسفة يونان ، ولا شروح فلاسفة الإسلام . وكانت المناظرة ، فما زالوا يتضاءلون ويصغرون حتى رأوا أن هذا الفقيه أعرف منهم بمذاهب الفلسفة وأشد إدراكاً لها ، ولم يخرجوا حتى أقروا بالتقدم فيها .

واستمرت هذه المناظرة العامة أياماً ، قهر فيها هذا الشاب الخصوم ، وغلب المناظرين ، وأعجب به نظام الملك ، الذى أسس المدارس الجامعة فى كثير من بلاد الإسلام : فى بلخ ونيسابور وهرات وأصبهان ومرو والبصرة والموصل ، ولم يفارق مجلسه حتى كتب له مرسوم تعيينه أستاذاً فى الجامعة النظامية الكبرى فى بغداد [1] .

ورحل إلى بغداد ، وبغداد حاضرة الأرض ودار الخلافة ، فناظر علماءها ، فكان له الغلبة عليهم جميعاً ، وأقروا له جميعاً بالرياسة والتقدم .

***

(1) وقد ذهبت ، ومكانها أول الشورجة ومدرسة مرجان الباقية إلى اليوم أنشئت فى جوارها . هذا ما عرفته لما كنت مدرساً فى العراق سنة 1936 ولست أدرى ما صنع الله بذلك الآن .

تسألوننى الآن : من هو هذا العالم ، وهل كانت له هذه المزايا كلها أم أنت تبالغ وتتخيل ، ومن أين جاء ؟ وكيف حصَّل هذا كله ؟

ثقوا ـ يا سادة ـ أنى لا أبالغ ولا أتخيل ، وأنه كان أكبر مما وصفت ، وأنه أحد العشرة الكبار جداً من رجال الفكر الإسلامى ، وأحد العشرة الكبار جداً من أرباب القلم ، وهو أقدر من لخص الفلسفة اليونانية ، وأقدر من رد عليها ، أيّدها وقوّاها ، ثم ضربها ضربة لم تقم لها بعده قائمة أبداً . وما قرأها على أستاذ ولكن نظر فى كتبها بنفسه ، لأنه كان يرى من المهانة لنفسه وللفكر أن يرد على مذهب أو رأى لم يفهمه . فلما فهمها ألف كتابه (مقاصد الفلاسفة) فأقبل الفلاسفة أنفسهم عليه ؛ لأنهم رأوا فيه تلخيصاً وفهماً لم يروه فى كتبهم ، ثم ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) فكانت كالضربة القاضية فى الملاكمة ، لا يقوم بعدها الخصم . وكانت له ميزة عجيبة هى القدرة على هضم كل فكرة ، وعرضها عرضاً واضحاً مفهوما ، يجمع بين البيان السهل ، والتسلسل المنطقى .

***

وقد انفرد بأمر لم يكن لسواه ، هو أن حياته قسمان : قسم للعقل وقسم للقلب ، وكان إماماً فى الحالين ، درس فى الجامعة النظامية فى بغداد وألف الكتب العجيبة ، التى كانت ولا تزال مطمح أنظار المفكرين والفقهاء ، ثم تجرد للعبادة والتأمل فألف (الإحياء) الذى كان ولا يزال غاية ما يطلبه المتصوفة وأرباب القلوب .

هل عرفتم الآن من هو ؟ . . هو حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى .

***

أما قصة تحصيله ودراسته فقصة عجب . . اسمعوا طرفاً منها لتدركوا كيف تكون الرجل العظيم عوامل ترونها ضعيفة ، ولتعلموا أنه ربما كان فى أولاد العوام ، وفى أبناء الفقراء ، من لو كتب له التعلم والدرس لكان منه عالم كالغزالى ، أو شاعر كالمتنبى ، أو وزير كنظام الملك ، أو ملك كالملك الظاهر .

أعود بكم إلى نيسابور ، لأقف بكم على دكان صغير لرجل عامى صالح يشتغل بالغزل . . رجل لم يكتب له أن يتعلم القراءة ، ولم يكن من العلماء ولكنه أهدى إلى الأمة الإسلامية هذا العالم الفذ، ولولاه لم يكن قط عالماً .

هذا هو محمد بن محمد والد الغزالى .

كان ينتهى من عمله فيدخل المسجد ، فيقف على حلقات الفقهاء مستمعاً ، فيأسى على حاله ويبكى على جهله ، ويتمنى لو أن الله جعله فقيهاً ، ولكن ولى الشباب ومضى العمر ، ولم يبق له فى نفسه أمل فهو يأمل بولده ، فيسأل الله من قلب مخلص ، أن يرزقه ولداً فقيهاً ، ثم يقعد فى مجالس الوعظ ، فيسأل الله أن يرزقه ولداً واعظاً .

واستجاب الله دعاءه فرزقه ولداً صار من أعظم الفقهاء هو أبو حامد الذى أحدثكم عنه ، وولداً آخر كان من أكبر الوعاظ ، ولولا أن غطت عليه شهرة أخيه هذا ، لملأ اسمه صحف التاريخ .

وأدرك الوالد الموت والولدان صغيران ، فتقطع قلبه حسرة على ألا يكون قد علّمهما ما فاته من العلم ، وكان له صديق صوفى ، فعهد بهما إليه ، وأوصاه أن ينفق على تعليمهما ، ولو أتى ذلك على كل ما خلفه لهما من مال .

فكان هذا الوالد أول عامل فى تكوين الغزالى العظيم .

والعامل الثانى هو هذا الصوفى ، لقد كان يسعه ـ وقد علّمهما كل ما عنده، وأنفق عليهما كل ما عندهما ـ أن يقول لهما : اكتفيا بما حصلتما ثم كونا

عاملين كأبيكما أو صوفيين مثلي ، وإذن لا يكون الغزالي ، إلا رجلاً عادياً مغموراً . وإن كان له نبوغ ، كان نبوغه محصوراً في هذه البلدة الضيقة ، وهذه الدائرة الصغيرة ، ولكن هذا الصوفي الذي أجهل اسمه كان رجلاً مكشوف البصيرة ، فرأى بفراسة المؤمن ، وهي من نور الله ، أن الولدين خلقا ليكونا عالمين عَلَمَيْن ، وأن هذا الدماغ لا يمتلئ بما وضع فيه هذا الصوفي من علمه القليل ، فقال لهما :

لقد أنفقت عليكما كل ما كان لكما من مال ، وأنا رجل فقير ليس عندي ما أعينكما به ، وحرام أن تدعا العلم ، فعليكما بمدرسة من هذه المدارس .

وكانت هذه المدارس هي العامل الثالث في تكوين الغزالي .

هذه المدارس التي أدركتم بقاياها في دمشق ، في العمرية في الصالحية التي كانت جامعة حقيقية ذات فروع وأقسام ، وفي المرادية ، وفي البادرائية وغيرها .

هذه المدارس التي بناها الأخيار من الأمراء والأغنياء ، ووقفوا عليها الوقوف الكبيرة وفتحوها لطلاب العلم ، فهي تقدم لهم الفراش والطعام والشراب والكسوة والنفقة ، وتحمل عنهم هموم العيش ، وتفرغهم لطلب العلم ، وتعلمهم مع العلم ما هو خير من العلم ، وهو التقى والأخلاق ، والعلم بلا تقوى ولا أخلاق شر على صاحبه وعلى الناس . . الجهل خير منه ! وتعصمهم من مثيرات الهوى ، ومفاسد الحياة[1] .

---

(1) وقد عادت إلى دمشق هذه المدارس والحمد لله في السنين الأواخر على أيدي نفر من خيار العلماء كالشيخ علي الدقر ، والشيخ هاشم الخطيب ، والشيخ حسن حبنكة ، والشيخ ناصر الدين الألباني ، والشيخ صالح فرفور ، والشيخ عبد الكريم الرفاعي ، والشيخ الرنكوسي ، والشيخ الطيبي ، والشيخ المجذوب ، والشيخ عبد الحكيم المنير وأمثالهم .

والعامل الرابع : الرحلات فقد رحل في طلب العلم كما كان يرحل العلماء ، يقطعون الأيام والليالي مسافرين ، ليأخذوا مسألة ويتلقوا حديثاً ، رحلات خالصة لوجه الله ، ولطلب العلم ، لا للتسلية ولا للمتعة والتفرج ، ولا للتجارة والكسب . وفي إحدى هذه الرحلات تلقى درساً كان له في نفسه وفي مستقبله أبلغ الأثر ، درساً لم يتلقه من عالم ولا محدث ولكن من قاطع طريق . . .

قاطع طريق خرج على القافلة التي كان فيها ، فجردها من كل شيء ، وكان مع الغزالي دفاتره التي يدون فيها ما يسمعه ، فجعل يبكي عليها ، ويتوسل إلى قاطع الطريق أن يردها ويقول له : أنا لا أبالي بالمال ولا بالثياب ولكن تعليقتي ، هي ثمرة كل ما حصلته ، فقال له متعجباً : وما تعليقتك ؟ قال : دفتر فيه علمي كله . فضحك قاطع الطريق . وقال له : كيف تقول : علمي ، وأنت لا تعلمه ، وإن ضاعت تعليقتك ، لم يبق لك منه شيء ؟ . ورماها إليه .

قال الغزالي : هذا رجل أنطقه الله ، ليبصرني في أمري . ولما وصل إلى البلد حفظ كل ما فيها ، وصار لا يبالي إن ضاعت أو سرقت أو احترقت .

والعامل الخامس في تكوينه : صحبة العالم العظيم إمام الحرمين ، فقد لازمه مدة طويلة ، وأخذ منه . وسار أولا على طريقته ، ثم استقل وشق لنفسه طريقة جديدة ، وفاق في المعقولات إمام الحرمين ، وهو لا يزال إلى اليوم أكبر أئمة الفكر الإسلامي ، ونحن نقرأ كتبه ، مستفيدين منها ، معجبين بها ، كما استفاد منها وأعجب بها رجال عصره ، ولقد سما العقل خلال هذه القرون الثمانية ، واتسع العلم ، ولكن الغزالي لا يزال في القرن الرابع عشر ، كما كان في القرن الخامس ، إماماً يقتدى به ، وعبقرياً لا نظير له .

حياة الغزالى - يا أيها السادة - لها صفحتان ، هذه الصفحة العلمية والصفحة الصوفية .

لقد بقى فى نفسه أثر من أستاذه الأول ، الرجل الصوفى الذى أوصى إليه به أبوه ، وكان يتنازع قلبه التفكير العلمى الذى هو أثر من إمام الحرمين ، وهذا التأمل الصوفى ، ثم غلب عليه التصوف ، فاستقال فجأة من أستاذية الجامعة ، ورحل منقطعاً إلى العبادة ، آخذاً نفسه بالزهد والسهر وقلة الطعام ، وما ابتدعه الصوفية من مناهج زعموا أنها هى التى توصل إلى الله ، مع أن أقرب الطرق إلى الله ، ما كان عليه الرسول - ﷺ - وأصحابه ، وكان يطوف على الترب والمقابر ، ويأوى إلى القفار ، ويجاهد نفسه مجاهدة شديدة ليقتل فيها حب الغنى والجاه والملذات ، ومع ذلك لم يقبل على الوعظ لأنه يرى أن الواعظ يجب أن يكون نموذجاً كاملاً لما يدعو إليه ، وأن يتجرد من حب الدنيا ولذائذها ، وحب المال وجمعه ، قبل أن يعظ الناس . وفى هذه المدة حج ودخل الشام ومصر ، وكانت أكثر إقامته فى دمشق ، فى الأموى ، فى الغرفة التى يصعد منها إلى المنارة الغربية ، والزاوية التى عرفت بعد بزاوية الغزالى ، وفيها ألف كتابه العظيم إحياء علوم الدين .

ووقعت له فى دمشق وقائع عجيبة ، جاءها متنكراً فنزل السميساطية ، وكان يقهر نفسه على تنظيف المراحيض إذلالاً لها ، ويدخل المسجد بزى العوام ، وكان ليلة فى المسجد فجاء قروى يسأل عن مسألة ، فدلوه على دكة المفتين والعلماء ، فسألهم فلم يعرفوا جوابها ، فدعاه الغزالى فقال : ما مسألتك؟ قال : إن المفتين لم يعرفوا جوابها أفتعرف أنت ؟ قال : هاتها . فألقاها عليه فأجابه الغزالى عنها فعاد الرجل إلى المفتين ، وقال : أنتم لم تعرفوا الجواب وقد عرفه هذا العامى ، وخبرهم بما أجابه به ، فشدهوا وقاموا

إليه فقالوا : من أنت ؟ إن لك لشأناً ! واستحلفوه فخبرهم ، فاحتفلوا به وسألوه أن يعقد لهم من الغد مجلساً ، وبحثوا عنه فى الغد فلم يجدوه ؛ لأنه كان قد هرب فى الليل [1] .

ومن وقائعه أنه دخل المدرسة الأمينية مرة (وهى قائمة [2] فى سوق الحرير وهى من أقدم المدارس الإسلامية فى الدنيا) وكان متخفياً فسمع المدرس يقرأ كتبه ويشرحها ، فخاف أن تغلبه نفسه فيظهر أمره فهرب . . .

ثم عاد إلى بلده ، وأكرهوه على أن يعود إلى التدريس ، فعاد يدرس فى الجامعة النظامية فى نيسابور ، ولكن بغير النفس الأولى ، إذ كان منصرفاً عن المناظرات ، زاهداً فى الجاه ، ثم استقال ، وذهب إلى طوس فأنشأ فى داره خانقاه (أى تكية) ومدرسة وكان يصرف وقته فى العبادة والذكر والتعليم .

حتى مات ميتة تدل على حسن الخاتمة وهو ابن خمس وخمسين سنة فقط .

***

هذا هو الغزالى الذى كان أحد أفذاذ المفكرين فى العالم كله ، وأحد الكبار من أعلام الإسلام ، وكان عيبه ضعفه فى الحديث ، وقد أقبل على روايته فى آخر عمره ، ولكن الأجل لم يمهله . وكتاب الإحياء على جلالة قدره مملوء بالأحاديث الموضوعة ، ومن أراد أن يقرأه ، فليرجع معه إلى مَنْ خرّج أحاديثه كالعراقى ، أو ليقرأ مختصره للشيخ جمال الدين القاسمى [3] .

---

(1) وقد جعلت من هذه الحادثة قصة نشرتها فى الرسالة فى سنتها الثانية أو الثالثة .

(2) وقد هدمت ولم يبق منها الآن إلا بابها وصارت سوقاً .

(3) وخير منه منهاج القاصدين لابن الجوزى ومختصره لابن قدامة الذى طبعه فى دمشق الأستاذ دهمان ، وللغزالى نفسه مختصر للإحياء ولكن فيه عيبى الإحياء : الأحاديث الموضوعة ، وبعض الصوفيات المخالفة للسنة التى بينها ابن الجوزى فى المنهاج وفى تلبيس إبليس .

وشىء آخـر هو أن هذه الروح التى تتـجلى فى كـتـاب الإحـيـاء روح الانصراف عن الدنيا ، والميل إلى الفقر ليست هى الروح الإسلامية ، إن الروح الإسلامية تتجلى فى سيرة الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه ، والعجيب أنه ألفه فى العصر الذى توالت فيه الهجمات على الإسلام من مغول الشرق وصليبيى الغرب . فلو أخذ المسلمون بما يدعو إليه كتاب الإحياء ، لما وجدت قوة عسكرية ترد التتار المغول من هنا ولا الصليبيين من هناك .

هذا هو الغزالى ، والفكر الإسلامى من خمسين سنة إلى اليوم مطبوع بطابع شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولكنه بدأ يعود إلى طابع الغزالى كما كان من قبل ، وكلاهما عظيم ولكن الغزالى أعظم فى عالم الفكر ، وعالم البيان ، وابن تيمية أقرب إلى الكتاب والسنة ، وإلى ما كان عليه السلف .

رحمة الله عليهما ، وعلى كل من وضع لبنة فى هذا الصرح العظيم . . صرح الفكر الإسلامى .

* * *

الظاهر بيبرس

هذا الحديث عن بطل من أعظم أبطال الإسلام بل من أعظم أبطال الحروب فى التاريخ البشرى فى عهوده كلها ، عن الرجل الصالح المصلح ، القائد المجرب ، المحارب المظفر ، الذى تعرفه العامة بقصته التى كانت تشغل الناس الليالى الطوال فى المنازل والقهوات ، ويعرفه تاريخ الشرق وتاريخ الغرب ، ببطولاته وأمجاده فهو من أبطال التاريخ ، وهو من أبطال الأسطورة ، وهو أحد الثلاثة الكبار الذين جاؤوا تباعاً . فأسس الأول ، وشاد الثانى ، وأكمل الثالث ، فطهروا هذا الجزء من الوطن الإسلامى من أوضار (الاستعمار) ، وأقاموا فيه صرح العزة والمجد ، وتركوا فى دنيا المكارم والبطولات دوياً لا تخمده العصور : نور الدين ، وصلاح الدين ، وهذا الثالث الملك الظاهر بيبرس .

***

لقد كان واحداً من المماليك ، من هذه الطائفة التى كتبت فى تاريخنا أعجب الصفحات ، وهل أعجب من عبيد يشترون بالمال ، كما تشترى السلع ، ثم لا يلبثون حتى يصيروا ملوكاً ، يتحكمون برقاب الأحرار !

لقد كان عهد المماليك عهد خزى فى التاريخ الإسلامى ، ولكنه لم يخل من ثلاث مناقب ، الأولى:أنه كان على الغالب عهد حكام قادرين ؛ لأن الملك لم يكن إرثاً فيهم يرثه الابن من أبيه كما يرث جبته ودابته ووسادته ، بل كان للأقوى والأقدر ، فلا يصل إليه إلا شجاع قدير ، أو سياسى بارع ، والثانية :

أن تاريخهم مملوء بالفتوح العظام ، وحسبكم بفتوح هذا البطل الذى أحدثكم حديثه . والثالثة : أن جل الآثار الباقية فى مصر والشام هى من عهد المماليك ، ولهم آثار كثيرة فى الهند وغيرها من البلدان ، ومن آثارهم فى دهلى : منارة قطب ، وبقايا مسجد قوة الإسلام .

***

أصل الملك الظاهر من القفجاق (فى القفقاس) ، جلب منها إلى سورية ، وبيع فى سوق العبيد فى حماة بثمانمائة درهم ! ولكن المشترى رأى فى عينه بياضاً فرده بخيار العيب كما ترد البضاعة المعيبة ! فاشتراه مملوك للملك الصالح نجم الدين الأيوبى ، ثم دخل فى مماليك الملك الصالح . وسيرته صفحتان مختلفتان أبعد الاختلاف ، متناقضتان أبلغ التناقض : سيرته قبل الملك ، وهى صفحة بطش ومؤامرات وغدر وقتل ، وسيرته بعده وهى صفحة إصلاح وبطولة ، ونبل وعظمة ، لم يصل إلى مثلها من عظماء الأمم كلها إلا القليل . اشتراه الملك الصالح وضمه إلى جنده ، فظهرت طلائع نبوغه وشجاعته من أول يوم ، وما زال يترقى حتى صار قائد الفرقة ، التى ردت مقدمة الحملة الصليبية التى كان يقودها ملك فرنسا : لويس التاسع ، الذى دعوه (القديس لويس) ، وشارك فى حربه ، حتى أسر وحبس فى دار القاضى ابن لقمان فى المنصورة . . . وقصته مشهورة لما فكر فى أن يعيد الكرة ، بعد إطلاقه ويأتى بحملة جديدة ، فقال له الشاعر :

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

ثم شارك فى المؤامرة على طوران شاه ابن الملك الصالح ، وغدر به بإيعاز من (شجرة الدر) التى حكمت مدة قصيرة ، حكماً سيئاً ، ثم لما اضطروها إلى الزواج بعز الدين أيبك ونزلت له عن الحكم ، فكان الحكم شركة ! كان الملك

الظاهر أحد الشركاء فيه . وكان عهد فساد ورشوة وظلم ، حتى أن المقريزى يقول عنه صادقاً : إنه لو ملك الإفرنج ما زادوا على هذا الفساد !! .

ثم وقع الاختلاف بين الشركاء ، وقتلت شجرة الدر زوجها عز الدين ، ثم قتلوها . فى هذا العهد المضطرب الفاسد ، وقع النداء فى مصر أن جيوش التتر قد توجهت تلقاء مصر ، التتر الذين أزالوا كل ما كان فى طريقهم من دول الإسلام من أقصى الشرق إلى مصر ، وهدوا عرش الخلافة العباسية ، وخربوا بغداد ، واعتقد الناس جميعاً أنه لم يبق فى دنيا الإسلام من يقف أمامهم .

هنالك قام الشيخ ، الذى سيأتيكم حديثه : العز بن عبد السلام ، الذى نفخ فى الناس روح الإيمان ، وأحيا فى نفوسهم سلائق البطولة ، ونصب عليهم القائد المجرب (قطز) ملكاً . وسار (قطز) بالجيش المصرى حتى واجه التتر فى موقعة (عين جالوت) ، وأنقذ الله به الحضارة والإسلام ، وكان الظاهر من قواده الكبار ، ولكنه ناوأه عقب المعركة وكاد له ، حتى إذا أدركه العجز أظهر له الود والتوبة ، فعفا عنه (قطز) وأعاده إلى مصر وأكرمه ، فكافأه على ذلك بأن قتله غدراً ، وتولى الملك بعده ، ولقب نفسه الملك الظاهر .

وهنا تبدأ الصفحة الثانية فى تاريخه .

***

ولى الملك ، والبلاد مضطربة ، والموظفون فاسدون مرتشون ، والمظالم مستمرة ، والأعداء فى الداخل وفى الخارج . فى داخل البلاد أمراء يطمعون بالملك من دونه ، فهم يتربصون به ، ويعدون العدد للانتفاض عليه ، وفى خارجها أقوى عدوين عرفهما التاريخ الإسلامى كله : التتر والصليبيون ،

فماذا يصنع هذا الرجل الواحد حيال ذلك كله ؟ .

لقد صنع العجب العجاب ، وجعل من هذه البلاد المتقسمة ، وهذه الحكومات الفاسدة دولة من أكبر دول الإسلام ، وقفت فى وجه الشرق والغرب ، وحاربت التتر والصليبيين معاً ، وكان لها الظفر عليهما جميعًا ، وكل ذلك بفضل الملك الظاهر ، العبد الذى بيع فى سوق العبيد بحماة بثمانمائة درهم ، ورد لعيب كان فيه . .

بدأ بهؤلاء الأمراء الطامعين بالملك ، ومد لهم الحبل حتى إذا استضعفوه وطمعوا فيه ، وأعلنوا الثورة عليه ، ضبطهم متلبسين بالجرم ، وقتل ثورتهم فى مهدها .

ثم اتخذ من ذلك ذريعة إلى ضبط المماليك ، فجمعهم وأكرمهم ورتب لهم الأرزاق ولكنه حجزهم ، وحال بينهم وبين إيذاء الناس والاعتداء عليهم ، وأفهمهم أن فى البلد ملكاً وحكومة ، وأن الفوضى قد انقضى عهدها ، ثم عمل على الإصلاح فأصدر سلسلة من المراسيم المتتابعة أبطل فيها المكوس ، ورفع المظالم ، وجعل للضرائب قانوناً عادلاً معروفاً ، وأصلح أسلوب القضاء ، ونصب أربعة قضاة للمذاهب الأربعة ، وأعاد افتتاح (الأزهر) ، وعمل على نشر التعليم ، ففتح المدارس وأقام لها المدرسين ، وأقر العدالة الاجتماعية ، فأحصى الفقراء ، وضمن لهم ما يعيشون منه ، وأصلح الطرق والترع والجسور ، ثم التفت إلى الجيش ، فأعاد تنظيمه ، وحرم على الجند النهب وإتلاف المزروعات ، وأخذهم بالطاعة والتدريب ، وترك الخمر والفحش .

ثم وجه نظره إلى السياسة الخارجية ، فعقد المحالفات مع الدول المجاورة ، خشية اتفاقها عليه وتأييد أعدائه ، مع بيزنطية وسلاجقة الروم ، والمغول ،

ومملكة صقلية ، ثم بدأ سلسلة المعارك العظيمة .

***

وياليتنى أستطيع أن أصف لكم هذه المعارك وأحدثكم حديثها ، ولكن هيهات ! وكيف ألخص فى دقائق أحداثًا شغلت المؤرخين ، وشغلت القصاص، وكانت شغل الناس على مر الزمان .

خرج بجيشه من مصر إلى فلسطين ، وكانت المعاهدة مع صاحب يافا الصليبى قد انتهت ولم تجدد ، وحسب الصليبيون أنه أمير كهؤلاء الأمراء الذين عرفوهم من قبل ، لم يدروا أنهم أمام قائد عبقرى ، من أعظم العباقرة العسكريين فى التاريخ ، فلم تكن إلا جولة واحدة حتى فتحت يافا ، وتلتها طرابلس ، وأنطاكية ، وارتاع الصليبيون، لما رأوا أنَّ (بيموند) أعظم ملوكهم قد غُلب وأخذت منه أنطاكية ، واجتمعوا وفاوضوا التتر والمغول ، ليحالفوهم على الظاهر ، وهو ماض فى طريقه ، ووقف له الفرسان (الهسبتاليون) ، وكانوا أشجع فرسان أوروبة ، فلم يصنعوا شيئاً أمام فرسان المماليك ، واستمرت هذه الحروب عشر سنين حارب فيها مرة المغول والصليبيين فى وقت واحد ، ولم يغلب قط ولم يمتنع عليه حصن ، وكان فى شجاعته وثبات عزمه أعجوبة ، بنى الأسطول من أربعين سفينة حربية ، فتحطم كله ، فلم ييأس ولم يداخله القنوط، بل عاد يصنع غيره ، ويشرف عليه بنفسه، وكان أبداً على رأس الجيش وكان يتفقد الجرحى ويواسى أهل القتلى ، ويرتب لهم الرواتب .

وانتقض عليه مرة امبراطور القسطنطينية ، وحالف التتر ، فلم يبال بهما ، وصنع مراكب ثم نقلها على ظهور الجمال من بحيرة حمص ، إلى نهر الفرات ، وحارب الروم والتتر معاً ، وعاد الإمبراطور إلى الخضوع له واسترضائه ، وجدد من أجله المسجد الذى كان بناه مسلمة بن عبد الملك فى

القسطنطينية . وحارب الأرمن ، (وكانت مساكنهم فى قيليقية) لما نقضوا العهد ، وكانت كتبه إلى أعدائه أعجوبة فى الإيجاز والسخرية، والواقعية، واكتفى ببلاغة السيف عن بلاغة القلم ، ومن كان فعالاً لم يكن قوالاً ، ومن كان يكثر الأقوال فإنه يقل الأفعال .

***

أخذ البلاد وهى أوصال مقطعة ، تحكمها حكومات فاسدة شريرة ، ويعيث العدو فيها ، ويملك أطرافها ، وتركها وهى حكومة واحدة قوية ، تشمل سورية ومصر والنوبة والحجاز وأطراف العراق ، وتزلف إليه إمبراطور القسطنطينية وملوك إسبانيا ، وحكام الشرق والغرب ، وكان يطمع فى أكثر من ذلك » فى أن يعيد توحيد البلاد الإسلامية كلها ويرجع الخلافة ، ويحيى رسومها . وجاء بأمير عباسى فبايعه بالخلافة ، ولكنه سن سنة سيئة ، فجعل الخلافة اسماً بلا رسم ، وجعل الخليفة رئيساً بلا حكم . وقهر أقوى عدوين فى تاريخ الإسلام ، وخلف فى تاريخ الإصلاح الداخلى ، وفى تاريخ البطولات الحربية أروع الأمثلة وأعظم الأخبار .

هذا هو الرجل العظيم الذى كانت تقرأ العامة قصته فى القهوات ، ويقرأ الخاصة سيرته فى المدارس ، ويرى الناس آثاره حيثما ساروا ، فى الشام ومصر ، وهذا هو الدليل الثالث على أن هذه البلاد ، مهما انقسمت وضعفت وأخذ العدو من أطرافها ، لا يزال فيها من القوة والأيدى ، ما تنتفض معه انتفاضة فتلقى عنها هذه الأوضار ، وتعود حرة نظيفة طاهرة كما كانت .

***

وقبر الملك الظاهر فى دمشق ، فى مدرسته التى صارت دار الكتب ، ومثابة العلم . غفر الله له ، ورحمه ، وأجزل ثوابه .

السلطان الشهيد

هذا الحديث عن نور الدين زنكى ، نور الدين ابن الشهيد ، الرجل الذى مهد الطريق لصلاح الدين ، ووضع له الأساس ، وشرع له المنهج ، وكان إمامه وقدوته فى كل خير .

أحد الرجال الذين لم يعرف تاريخ البشرية كلها أطهر منهم نفوساً ، ولا أقوم سيرة ، ولا أعظم أثراً ، اللهم إلا الأنبياء الذين لا تجد عليهم مطعناً فى دين ولا خلق ولا سياسة ولا قيادة ، والعظماء من غيرهم إن استكملوا ثلاثاً من هذه الأربع نقصتهم الرابعة . الرجال الذين لا تجد أمثالاً لهم فى غير التاريخ الإسلامى : أبى بكر وعمر ، وعمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى ، وأورانك زيب ومن سار سيرتهم ، وسلك طريقتهم .

* * *

جاء الشيخان فى صدر الإسلام حيث الدين غض ، والزمان مقبل ، وجاء هذان [1] والزمان مدبر ، والدين ضعيف ، والعدو الغاصب يملك أكثر من نصف الشام ، والمسلمون دول وحكومات ، كل بلدة دولة ، وكل قرية حكومة ، حتى صرخد [2] فقد كان لها إمارة وملك واستقلال : وكانت خلافة بغداد اسماً بلا جسم ، وخلافة القاهرة جسداً بلا روح ، والدولة السلجوقية

(1) أعنى : نور الدين وصلاح الدين .

(2) ويسمونها اليوم : صلخد .

تصدعت كنجم الفجر ، ففى كل جهة منه شهاب . وقد استفحل هذا الداء الذى رمانا به معاوية ـ رحمه الله ـ : داء توارث الملك ، وتمكن وعظم شره ، حتى صارت القاعدة فى دول الإسلام ، ولا سيما فى بلاد الشام أنه كلما مات ملك ، تقاسم أولاده ملكه ، كما يتقاسمون أمواله ودوابه . ومن هنا صار فى الشام نحو من عشر دول صليبية وإسلامية ، وكانت الشام كلها قديماً ولاية صغيرة من دولة الإسلام .

ولم يَخْلُ الميدان من أمراء أولى نجدة وبأس ، ناوشوا الإفرنج ونازلوهم ولم يدعوهم يستريحون يوماً واحداً ، أمراء السلجوقيين : (ألب أرسلان ، وقليج أرسلان) ، وتتش ، وابن عمار ، وابن منقذ ، وطغتكين ، وبورى ، وآق سنقر : جد نور الدين . وآق سنقر مملوك لألب أرسلان السلجوقى ، بدا نبوغه ، وظهر فضله ، وسمت به مواهبه إلى محاولة جمع هذه الدويلات فى دولة واحدة قوية تنازل العدو الغاصب ، الذى أسس فى السواحل ، وفى فلسطين : دويلات ألقت مراسيها ، وطوت أشراعها ، وحسبت أنها ستبقى فيها إلى الأبد . ثم جاء من بعده ابنه زنكى : عماد الدين زنكى ، العاقل الجرىء المحارب البطاش ، الذى قتل غيلة فسمَّوْه : (الشهيد) ، ثم جاء نور الدين.

وكان الإفرنج قد ملكوا أكثر البلاد منذ خمسين سنة ، لا خمس سنين[1] وكانوا أعداد الرمال تمدهم أوربة كلها ، لا حفنة من يهود . وحسب الناس أنها لن تزول هذه الغمة ، فما هى إلا أن ظهر الرجل الذى نشر راية القرآن ، وضرب بسيف محمد ، حتى عاد النصر يمشى فى ركاب المسلمين ، وعاد أمرهم إلى الزيادة ، وأمر الصليبيين إلى النقص ، وبذلك يكون لنا ـ كلما شئنا ـ النصر .

---

(1) لما أذيع هذا الحديث كان عمر دولة إسرائيل ـ قصف الله عمرها ـ خمس سنين .

إن راية القرآن لـم تهزم قط ، ومن هزم من أمـراء المسلمين فى هذا التـاريخ الطويل ، إنما هزمــوا لأنهـم كــانوا يســتظلون برايات المطامع والأهـواء ، والعصبيات والأحقـاد، ما استظلوا براية القـرآن ، وكانوا يضربون بسيف البغى والإثم والعدوان ، وما ضربوا بسيف محمد .

إنه ما ضرب أحد بسيف محمد ونبا فى يده سيف محمد!

***

لما مات عماد الدين تنفس الإفرنج الصعداء ، وألقوا بأنفسهم على فراش الأمن ، يستبشرون يحسبون أنه قد خلا العرين بموت الأسد . ما دروا أنه الآن قد دخل الأسد العرين ، ما دروا أنه قد جاء نور الدين .

قتل عماد الدين الشهيد غدراً على أبواب (جعبر) . فما بكى ابنه بكاء النساء، ولا ثار بالقاتلين ثورة الصبيان ، بل وقف أمام جسد أبيه وقفة الرجل ، وأخذ خاتم الملك من إصبعه ، وجمع الجنود وتوجه تلقاء حلب ، يوطد فيها أمره، ويؤسس فيها ملكه ، وأطمع موت عماد الدين الإفرنج ، وخرجوا كما تخرج الفيران من جحورها إن شهدت مصرع القط ، وجاء أمير أنطاكية بجنوده يغير على أطراف حلب ، وكان اليوم السابع من ولاية محمود نور الدين ، فترك حفلات التتويج ، وأبهة الملك ، وخرج بجيشه فضرب جيش الإفرنج ضربة أطارت من رؤوسهم الفرحة بموت عماد الدين ، وفتحت عيونهم رهبة ورعباً ، وأعلمهم أن اليوم الذى كانوا يبكون فيه من عماد الدين ، سيبكون عليه من نور الدين .

وتلفت حوله ، فإذا الإفرنج فى كل مكان ، فى كل ناحية لهم ملك وسلطان . وإذا هو يرى العدوان من أقرب الناس إليه : أمير دمشق ـ وهذه

علتنا أبداً يا أيها السامعون . علتنا الانقسام والاختلاف . ولو أننا تركنا الاختلاف بيننا ، ما قوى علينا إنس ولا جان !

فركز نور الدين غرضين[1] ، ونذر حياته لإصابتهما ، غايتين جعل همه كله بلوغهما : توحيد المسلمين فى دولة قوية ، وطرد الإفرنج من بلاد الإسلام .

بدأ المسعى للوحدة بتقوية الروابط الروحية فتزوج بنت ملك دمشق ومدبر أمرها ، وبنت صاحب قونيه (ابن قليج أرسلان) .

ولكنه لقى من أمراء هذه المماليك الألاقى .

جاهره صاحب دمشق بالعداء ، وهدده بالاستعانة بالإفرنج ، فتلقاه بالحلم مع الحزم ، وصبر عليه ، حتى إذا وقعت الحرب بينه وبين صاحب صرخد ، وتصوروا كيف كانت قرية صرخد حكومة مستقلة ! وأراد صاحبها تسليمها للإفرنج ، استنجد مجير الدين ملك دمشق بنور الدين ، فأعانه وسير جيشاً ضخماً يساعده على الإفرنج ، وذلك فى سبيل الغايتين معاً : توحيد المسلمين وطرد الغاصبين . وأوقع بالإفرنج وقعة لم ينسوها .

***

فى هذه الظروف يا سادة ، جاء الجيش الصليبى الضخم ، الذى قدر المؤرخون عدد جنوده بمليون ، أى بعدد يهود الأرض ، وهى الحملة الصليبية الثانية ، ولم يكن جيشاً واحداً ولكن جيوش أوربة جميعها ، جيوش كل أمة فيها ، يقوده ملوك وأمراء وبارونات ، على رأسهم لويس السابع ملك فرنسا ، و (كونراد) ملك ألمانيا . وتوجه من وصل منهم إلى الأرض المقدسة ونجا من

(1) الغرض فى الأصل الهدف أى المرمى .

سيوف السلجوقيين إلى كنيسة القيامة ، فصلوا صلاة الموت ، وقصدوا دمشق.
وأصبح أهل دمشق يوماً ، وإذا جيوش الإفرنج فى المزة ، وفسطاط ملك الألمان فى الميدان الأخضر (الملعب البلدى) وخيمة ملك فرنسا فى ميدان الحصى (الميدان) . فهبت دمشق ، ولدمشق المؤمنة المجاهدة هبّات تَشْدَه التاريخ ، واستنجد صاحبها بنور الدين فى حلب ، وأخيه سيف الدين فى الموصل ، فأقبل الشقيقان بالجيش اللجب ، وقابل المسلمون أوربة كلها ، وردوا جيوشها عن دمشق . وقد أتى شبابها ومتطوعوها من البطولات الأعاجيب .

وقفل الشقيقان إلى بلدهما ، وتركا دمشق لصاحبها .

ومات ملك دمشق ، ومال القوم بعده إلى الإفرنج حسداً لنور الدين واستعانوا بهم عليه ، فلم يجد بداً من حصار دمشق ، فضرب عليها نطاقاً من السهم والنيرب ، ومن المزة وحجيرة والقدم [1] . وضرب خيمته فى عيون فاسريا فى (دوما) وامتدت جيوشه إلى الضمير ولكنه لم يقاتل أهلها ، ولم يستحل أن يريق دم واحد من المسلمين . وجاء الصليبيون لنصرتها فردهم، ولم يكن يطلب مالا ، ولا يطلب حكم البلد ، بل كان كل مطلبه أن ينضم جيش دمشق إلى جيشه ليحارب الصليبيين .

* * *

وكانت سيرة نور الدين قد ملأت كل قلب محبة له ، وكل لسان ثناء عليه ، فقام أهل الشام على ملكهم ونقبوا السور لنور الدين من جهة الباب الشرقى ،

---

(1) وكلها أماكن حول دمشق معروفة إلى اليوم بأسمائها هذه ، والنيرب قد تدعى بالنيربين وهى اليوم (الدواسة) على السفح بين أعالى كيوان والربوة ، والمشهور أنَّ فى (القدم) آثار قدم الرسول ، ولا أصل لذلك ، ولم تطأها قدمه ـ ﷺ ـ ، ولم يصل إلى أبعد من (بصرى) فى حوران .

فدخل من حيث دخل خالد بن الوليد مُن قبل ، واستقبلوه بالهتاف والأهازيج :

نـور الدين يا منصـور   وبسيفك فتحنا السـور

وبقى هذا الهتاف بذاته فى دمشق إلى اليوم يهتفون به فى المظاهرات ولا يفهمون مأتاه .

واستسلم مجير الدين ، فلم يقتله ولم يعاقبه ، وإنما تركه ينفى نفسه من الشام ، ويرحل إلى العراق .

***

وكان جوسلان ، بطل الإفرنج ، وفارس فرسانهم ، حامى حماهم ، قد أغار غدراً على ضواحى حلب وكسر حاميتها ، ورجع بالنصر والكبر والغنائم والأسلاب . وكان نور الدين قد ألف عصائب من أشداء التركمان ، فأرسل عصابة منها إلى جوسلان ، فذهبت وغامرت مغامرات المغاوير (الكوماندوس) حتى انتزعته من فراشه ، وجات به غنيمة باردة ، ألقته تحت رجل نور الدين ، فكان وإياه كما قال ابن كثوم :

فآبوا بالغنائم والسبـايـا   وأبنا بالملـوك مصفدينـا

***

وكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من المعارك المظفرة ، فتح قلعة حارم بعد ما لبثت سبعين سنة ـ وهى حصن الإفرنج ـ تجرع المسلمين الصاب والعلقم . واستعاد الرها (أورفة) ،وطهر الداخل : أكثره من الفرنج ، ولما توجهوا تلقاء مصر ، وعلم أن الوزير فيها (شاور) قد خان أمته ، بعث قائده شيركوه (أى أسد الجبل) فذهب هو وابن أخيه صلاح الدين، ففتحا له مصر وطردوا الإفرنج

من دمياط .

أخـذ البـلاد وهى دول وإمـارات ، كل بلد دولة ، وكل قـرية حكومـة ، وتركهـا وهى دولة واحدة ، تشـمل الشام ومصـر وأعالى الفرات ، ومـا ظلم أحداً ، ولا قتل مسلماً ، ولا أراق الدم الحرام .

وأشهد أنى قرأت تواريخ عظماء الشرق والغرب ، فما رأيت بعد الصحابة مثله ، وشهد هذه الشهادة من قبل المؤرخ ابن الأثير .

حقـر الدنيا ، وزهد فى أبهة الحكم ، وبريق السلطان ، ونذر نفسـه لله ، للغـايتين اللتين سـعى إليهـما : وحدة المسلمين وقهر الإفرنج ، وما حاد قط عن طريقهما .

وكـان قائداً منقطع النظير ، له قلب ملؤه الإيمان ، فلا يعرف الجزع الطريق إليه ، وكان يقول : لو كـان معى ألف فارس لا أبالى بعدو ! والله لا أستظل بظل جدار أبداً .

اعتـرضه مـرة نهرالفرات ، فابتـغى مخـاضـة دله عليـهـا دليل تركـمـانى ، فـخاضـه والجيش كله من ورائه فانهزم الأعداء من الدهشة والرعب ، قبل أن يهزمهم وقع الحسام .

ورأوه يوم حـارم منفرداً عند التل ساجداً يمرغ وجهه بالتراب ، يناجى ربه يسأله النصر ، ثم أخذته الحال [1] ، وارتفع صوته يتضرع ويقول : اللهم انصر دينك ، لا تنصر محمودا (يعنى نفسه) ومن هو محمود الكلب حتى ينتصر ؟

فنصره الله ذلك النصر المؤزر ، وما كان معه إلا قطعة من الجيش ، وكـان جيشه فى مصر .

---

(1) كما يعبّر الصوفية .

وكان يأسف على أنه لم يرزق الشهادة ، ويقول : تعرضت لها غير مرة فلم تتفق لى ، ولو كان فى خير ، ولى عند الله قيمة ، لرزقت الشهادة .

وهذه ـ يا أيها السادة ـ منزلة الإيمان والصلة بالله لم يبلغها كثير من الزهاد والمتعبدين .

***

ترك الأذان بـ (حى على خير العمل) ، وهى بدعة الفاطميين [1] ، وعاد إلى الأذان الشرعى .

وكان يتبع السنة ويقف عند حدود الشرع . منع الخمر فى بلاده ، وأزال المنكرات ، ورفع الضرائب والمغارم . وكان فى عدله آية الآيات ؛ وقف مع خصمه أمام القاضى الشهرزورى . وأنشأ فى دمشق دار العدل ، وأقام البيمارستان النورى (مدرسة التجارة الآن) ، وكان مستشفى كأرقى مستشفيات الحضارة اليوم . وملأ الدنيا بالمدارس ودور الحديث ، ومعاهد الخير. ولبناء المستشفى قصة طريفة : أسَر مرة ملكًا من ملوك الإفرنج ، فسأل أن يفتدى نفسه ، فقبل منه الفداء ، وأخذ منه ثلاثمائة ألف دينار ، خصصها للمستشفى ولدار الحديث النورية .

وكان ليالى السلم ينام قليلاً ثم يصحو ، فيلبس الصوف ، ويأتى المسجد خفية فيصف فيه قدميه ، مصلياً وذاكراً إلى الفجر ، ويمضى ليالى الحرب فى المناجاة والتضرع [2] .

***

(1) أى العبيديين وما هم على الصحيح بفاطميين .

(2) ومن أراد سيرته فليرجع إلى المحاضرة القيمة التى ألقاها فى المجمع العلمى أخى القاضى ناجى الطنطاوى (المقتطف آب 1946) .

يا أيها الناس : إن مررتم بسوق الخياطين فوصلتم المدرسة النورية (وقد كانت منزل هشام بن عبد الملك) ، فقفوا على قبر هذا الرجل العظيم ، الذى كان وليا زاهداً فى ثياب قائد ، وكان عالماً عاملاً فى ثياب ملك ، وكان واحداً من الستة الذين لم يعرف مثلهم تاريخنا .

هذا الرجل الذى وحد البلاد ، وطهرها من الإفرنج ، ووضع الأساس الذى قام عليه بناء صلاح الدين ، فقولوا:رحمك الله يا نور الدين .

ويا أيها الناس : كلما دهمكم خطب جديد ، أو هبت عليكم من نحو فلسطين عاصفة عدوان ، فاذهبوا إلى نور الدين وإلى صلاح الدين ، لا لتسألوهما العون والنصر ، فما فى الوجود ميت يعين حياً ، ولست أدعو إلى شرك بالله ، وما النصر إلا من عند الله ـ ولكن لتذكروا أنها قد حاقت بفلسطين من قبل مصائب أكبر من مصيبة يهود ، ونزلت بها نوازل أشد ، واجتمعت عليها أوربة كلها ، وأقامت فيها دولاً لبثت أكثر من مائة سنة ، وكنا على حال من التفرق والضعف والجهل شر مما نحن عليه اليوم ، وقد انجلت مع ذلك الغمة وانزاح البلاء ، وصارت حكومات الإفرنج التى عاشت فى القدس وفى أطراف الشام قرناً كاملاً ، صارت خبراً ضئيلا ، يتوارى خجلاً فى زاوية من زوايا التاريخ ، لا يدرى به أكثر السامعين ـ وسيأتى يوم قريب يقول فيه مدرس التاريخ لتلاميذه : إن اليهود قد أسسوا مرة حكومة فى فلسطين ، وهَمَّ العرب أمرها ، ونال العرب شرها ، ثم ذكروا أين طريق الخلاص فخلصوا منها على أيسر حال .

الطريق ـ يا سادة ـ أن يظهر فى العرب نور الدين جديد ، ينشر راية القرآن التى لم تنهزم قط ، ويضرب بسيف محمد الذى لا ينبو أبداً .

فانشروا راية القرآن واضربوا بسيف محمد ، تطردوا يهود ، وتعيدوا مجد العرب .

* * *

شَيخٌ مِن دِمَشق

ـ 1 ـ

هذه هى قصة شيخ من دمشق ، شيخ قال عنه السبكى : إنه لم ير مثله الناس ، ولم ير هو مثل نفسه .

شيخ لم يكد يرى تاريخ الإسلام فى كل عصوره عشرين من أمثاله .

شيخ كان مفكراً كأحسن ما يكون المفكرون ، كان فقيها : فقيه النفس لا فقيه الحفظ . وكان له فى الشريعة النظر الواسع المحيط بأسرارها ، الملم بأصولها وحكمها ، والنظر الدقيق الذى ينفذ به إلى بواطن المسائل ، ويدرك خوافيها ، كان يفكر بدماغ من خلايا مملوءة بالحياة والعبقرية ، لا يفكر بعقل من ورق الشروح والحواشى .

شيخ فرغ من شهوات بطنه ، وشهوات غريزته ، وشهوات المجد والغنى والجاه . وهانت عليه الدنيا فلم يطلب لنفسه شيئاً منها ، فجاءه منها كل شيء : المجد والجاه والمنزلة التى خضعت له بها الدنيا .

شيخ كان يهابه الملوك ، ويطيعه الشعب ، ويذل أمامه الجبارون .

شيخ كان له الموقف الذى أنقذ الله به الحضارة ، وحفظ الإسلام وحول مجرى التاريخ .

***

كانت مصر في رجة رعب وجزع ، لقد أقبل عليها السيل الجارف ، الذي اجتاح في طريقه كل شيء من أقاصي المشرق إلى أطراف الشام : المغول والتتر ، الذين كانوا تائهين وراء صحاريهم ، كلما رأوا غفلة من دولة الإسلام، أغاروا على جوانبها ، فلا تزال جيوشها تطاردهم حتى تلجئهم إلى صحاراهم كما تلجأ الذئاب الكاسرة ، إذا دفعتها عن منازل القرية ، فتتركهم وتعود ؛ لأنها لا تجد لهم مجداً فتهدمه ، ولا بلداً فتملكه ، ولا راية فتطويها ، حتى نجم فيهم محارب من أفذاذ المحاربين ، مقاتل خطر بطاش هو جنكيز خان، وكان المسلمون قد صاروا دولاً وانقسموا أقساماً ، فتمكن جنكيز خان منهم ، فأودى بأقرب ملك إليه منهم ، خوارزم شاه ، وفتح الباب لخلفائه ليسيروا نحو المغرب . وتساقطت إمارات الإسلام ، واحدة بعد واحدة ، بظلم أمرائها ، وخيانة ولاتها ، وانقسام شعوبها ، وضعف إيمانها ، وبعدها عن دينها الذي لا يكون إلا به عزها ، حتى كانت المصيبة الكبرى ، فسقطت بغداد، وهوى تاج الخلافة .

وكانت بغداد أم الدنيا ، وكانت بغداد قصبة الأرض ، وكانت بغداد مثابة العلم والفن والذهب والجمال . تلتقي كلها فيها وتنتهي إليها ، كما تنتهي مياه الجداول إلى سيف البحر .

لم تجمع بلد ما جمعت بغداد من ثمرات العقل المفكر ، واليد المبدعة ، وما يصنع المال ، وتعمل القوة ، وتأتي به الحضارة .

فلم تكن إلا كرة واحدة فإذا عمران بغداد خراب ، وأنسها وحشة وجمالها تشويه ، وكتبها التي أودعت حصاد العقول وثمرات القرائح ، تلقى في دجلة حتى يسود حبرها ماء دجلة .

وإذا المجد والخلافة والجاه ✽ كما يطمس السطور البنان [1] .

---

(1) من قصيدة لأمين ناصر الدين في رثاء دولة العثمانيين .

سقطت بغداد ، وانكسر السد ، فانطلق السيل ، وساح فى كل واد ، وانبعثت النار ، وامتدت ألسنتها تضربها الرياح الأربع فتسوقها إلى كل مكان . وخرج يأجوج ومأجوج ، وذهبوا يفسدون فى الأرض .

وانبعثت جيوش هولاكو كالجراد ، يأكل الأخضر واليابس : يأكل المدن والأمجاد [1] والحضارات .

فَمَنْذا [2] يقف السيل بعدما اجتاح المشرق كله والعراق والشام ؟

منذا يطفئ النار وقد أكلت بغداد أم الدنيا ؟

منذا يرد يأجوج ومأجوج ، بعدما انتشروا فى الأرض ؟

أى جيش يقف أمام جند هولاكو بعدما تمزق جيش الخلافة ، وهوت راياته وديست أعلامه ؟

لم يبق من دنيا الإسلام إلا مصر ، فهل تقدر مصر على ما عجزت عنه دنيا الإسلام كلها من أقصى خراسان إلى أدنى الشام ؟

مصر التى زال عنها سلطان الأيوبيين ، حفدة صلاح الدين ، وقام عليها حكام من مماليك الأتراك . عبيد غرباء يشترون بالأموال ، عبيد أجانب يحكمون أحرار العرب ، ويا ويل أحرار العرب إن حكمهم عبيد أجانب ! [3] .

---

(1) قصروا جمع (فعل) على (أفعال) على المعتل مثل (أبيات وأسياف) وقالوا : لم يأت منه صحيحاً إلا كلمات دون العشر كـ (أفراخ وأخواتها) وقد استدرك المتأخرون على المتقدمين نحواً من ثلاثين كلمة من الصحيح ، فدل ذلك على أنه يطرد فى الصحيح والمعتل على السواء . وأن مجد تجمع على أمجاد . اهـ . هذا ما قاله أخى الأستاذ سعيد الأفغانى وهو اليوم المرجع فى هذا الشأن وإليه الرياسة فيه فى ديار الشام .

(2) هكذا يكتبونها (موصولة) .

(3) ولا يكون المسلم أبداً أجنبياً فى بلاد الإسلام .

وكان مَلَكَ مصر ولد جاهل غرير ، ما أعطى الملك لأنه أقوى الناس عزماً ، ولا لأنه أكثرهم فهماً ، ولا لأنه أشدهم علماً . بل لأنه ابن معز الدين أيبك .

وكانت حكومة المماليك شر حكومة ، هم رجالها ملء صناديقهم بالذهب ، وملء بطونهم بالطيبات ، وملء قصورهم بالمماليك والمملوكات . .

فماذا تصنع مصر التى لم تكن تملك شيئاً ؟ . .

إن مصر ـ يا سادة ـ كانت تملك شيخاً دمشقياً نزح إليها ، وسكن فيها ، وصار قاضى البلد ، وخطيب الجامع . شيخ فى قلبه إيمان لو صبَّ فى الحجر الصلد لا نبجست منه الحياة ، ولو وجه إلى الجبل الراسى لأزاح الجبل .

شيخ كان يعلم أن هذا الشعب ، الذى هزَّه محمد ـ ﷺ ـ حتى أفاق وفتح الأرض ، لا تزال فى نفسه آثار البطولة التى فتح بها الأرض ، إن فى عروقه ذكرى المعارك المظفرة التى خاضها ، والدماء الزكية التى أراقها ، والنصر الأبلج الذى انتزعه من كل عدو ، كان يعلم أن هذا الشعب ما دعى مرة إلى التضحية والجهاد إلا لبَّى ، لأن فى نفسه الإيمان الذى يحول الهزيمة ظفراً ، والضعف قوة ، والفقر غنى ، ويصنع من الحجر قنبلة ، ومن العصا سيفًا ماضياً ، وصرخ الشيخ بأهل مصر : يا أهل مصر اثبتوا واستعدوا وحاربوا ، وأنا أضمن لكم على الله النصر .

***

أيقظ الشعب الذى نامت فى صدره البطولات ، فاستيقظ . وجمع الأمراء ، فذكرهم كيف جاؤوا مماليك فجعلهم هذا البلد ملوكاً ، فمن حقه عليهم أن يدافعوا عنه ، عن حياتهم فيه وسعادتهم ، عن الحضارة التى أظلتهم بظلالها ، وجاء هؤلاء التتر ليقتلعوها من جذورها ، عن الإسلام الذى شرفهم

الله به ، وهداهم الله إليه .

فاستقادوا إليه ، وعزلوا الولد الذى كان ملكاً ، وأمّروا عليه البطل القوى ، والمحارب المتمرس بالحروب ، الأمير قطز وسموه الملك الظافر .

وقل الأمراء:ليس عندنا أموال ، فاطلب من الناس أن يتبرعوا لنا ، للجيش. قال الشيخ : لا . حتى تخرجوا ما عندكم ، وما فى قصوركم من الذهب والفضة ، وما عند نسائكم من الحلى ، وأن تخلصوا فى البذل لله وحده ، ليأتيكم منه النصر .

وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان ، فأخرجوا ما عندهم ، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى البذل والجود ، وكثرت الأموال ، فأعدوا العدة ، وجمعوا السلاح ، وأقيمت معسكرات التدريب فى كل مكان . واهتزت البلدة بالهتاف والتكبير ، حتى لكأن كل مصرى قائد مظفر ، وحتى صار كل مصرى يشتهى الوصول إلى المعركة ، كما يشتهى المحب وصال الحبيبة . والشيخ يعمل دائباً ، كلما خبت شعلة الإيمان فى بعض النفوس زادها من إيمانه ناراً ونوراً ، فكانت كل كلمة منه فرقة جديدة فى جيش الجهاد .

وخرج الجيش المصرى على أتم هيئة ، وأكمل استعداد ، تتقدمه فرسان المماليك . ولئن كان المماليك حكام سوء ، لقد كانوا ـ والحق يقال ـ أرباب حرب ، وأبطال قتال .

وبلغ الجيش بيسان فى رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وأراد أن ينحدر من أعالى الهضبة إلى عين جالوت ، فوجد تحته السيل الذى جرف فى طريقه كل شىء من صحارى تركستان وأطراف الصين ، إلى عين جالوت : جيش المغول والتتر ، وكاد الجزع يخالط نفوس أجناد هذا الجيش الصغير ، لما رأوا هاتيك الجموع ، وذكروا كم اجتاحت فى طريقها من جيوش كانت أجل

وأعظم من هذا الجيش ، فما صنعت مع هذه الجموع صنيعاً ، ولكن الشيخ قام يذكرهم ما ضمن لهم من النصر ، استنجازاً لوعد الله ، واعتماداً على قوله : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : 7] .

فغلى الدم فى العروق ، وضربت الحماسة أقحاف الرؤوس ، ونزل جيش مصر نزول الموت ، يحث جنده الخيل ، يتسابقون إلى النصر والشهادة .

وكانت معركة خاف فيها الخوف ، وذعر فيها الذعر ، وانجلت عن . . . عن ظفر المصريين .

يا أيها السامعون لقد انهزم التتر الذين دكوا فى طريقهم كل قوة ، واخترقوا كل جيش . انهزموا أمام الإيمان الذى أذكاه فى النفوس هذا الشيخ الدمشقى .

انهزموا وأنقذ الله مصر ، وأنقذ الله دنيا الإسلام ، وأنقذ الله الحضارة والتمدن والعمران ، وضمت معركة عين جالوت إلى سلسلة المعارك المقدسة ، التى خضناها دفاعاً عن الحق والخير والعدل : بدر والقادسية واليرموك وجبل طارق وحطين .

ظفرت مصر . وستظفر الآن مصر . ستظفر [1] . ما فى ذلك شك أبداً .

أما الشيخ فهو . . . هو . . لقد انتهى الوقت أيها السامعون . وستعرفون قصة هذا الشيخ فى مثل هذه الساعة من يوم الجمعة القادم .

- 2 -

هو عز الدين بن عبد السلام . عالم من علماء بلدكم دمشق ، وقاض من قضاتها ، وخطيب من خطباء جامعها الأموى ، ولكنه ليس كمن تعرفون من

(1) أذيع هذا الحديث فى أوائل حوادث العدوان الثلاثى على مصر .

العلماء والخطباء ، وليس من أمثالنا من القضاة، وليس فينا من يشبهه أو يقاربه، ليمثل عليه به ..إنه من طراز نادر لا تجود الدنيا بمثله إلا مرة واحدة في القرون الطوال .

ولم يكن هذا الشيخ من أسرة كبيرة ، ولا من بيت علم ، ولم يقبل على الدراسة في مطلع شبابه ، ولكنه طلب العلم على كبر ، فقد كان يبيت من فقره في مدرسة الكلاسة ، بين الأموي وقبر صلاح الدين ، وكانت تغلق أبوابها ليلاً ويبقى وحده فيها ، فاضطر في ليلة باردة إلى الاغتسال ، ولم يجد إلا بركة المدرسة ، فغطس فيها ونام ، فعاوده الاضطرار مرة ثانية فغطس ، فأغمي عليه من شدة البرد ، فشكا ذلك إلى شيخ في المدرسة ، فأفهمه أنه لو كان عالما لما أقدم على ضرر نفسه ، ولعرف أن التيمم يغني عن الغسل إن كان الغسل يؤدي إلى المرض .

كذلك ـ يا سادة ـ لا يصلح التقى إلا بالعلم ، ولا يصلح العلم إلا مع التقوى ، فالمتعبد الجاهل ، يضر نفسه وقومه ، والعالم الفاسق يتخذ علمه وسيلة إلى الدنيا ، وسلماً لبلوغ الغنى والجاه .

وأقبل من ذلك اليوم على طلب العلم بهمة ليس لها مثيل ، يسهر ليله كله في العلم ، فلم تمر عشر سنين حتى صار أحد أفذاذ العلماء وأعلام الدنيا ، وكان فقيراً ولكن بين جنبيه نفس ملك ، وكان زاهداً في الدنيا يراها أهون من أن يهتم بها ويحرص عليها ، فلم يستعبده مال ولا جاه ولا امرأة ، فمن هنا جاءت هذه الأخبار العجيبة عن جرأته على الملوك والأمراء ، فاسمعوها ولكن لا تحاولوا أن تجربوا ، حتى تتخلقوا بالخلائق التي دفعته إليها ، وحملته عليها ، حتى تعلموا أنه لم يعملها تظاهراً ، ولا إرضاء للناس ، ولا اكتساباً للجاه ، بل عملها وهو يراها الشيء الطبيعي كالتنفس والطعام .

ولى خطابة الجامع الأموى مع القضاء ، بعدما شرط شروطاً قبلوها منه ، وأخذ عليهم العهود أن يطلقوا يده فى الإصلاح ، فأصلح وأبطل بدعاً كثيرة ، منها صلاة الرغائب ، وصلاة نصف شعبان ، لأن ما يفعله الناس من إحياء ليلة نصف شعبان ، والدعاء فيها بهذا الدعاء المعروف ، لا أصل له فى الدين والعلماء متفقون على أنه من المحدثات .

وكان يحضر خطبته الملوك والأمراء ، ويجلونه ، ويكبرونه ، فلما وقع الخلاف بين الملك الصالح إسماعيل فى الشام ، وابن عمه ملك مصر ، استعان الصالح بالإفرنج الصليبيين وحالفهم على ابن عمه . ومن عجائب المصادفات أن هذا الملك الخائن كان يلقب الملك الصالح ، وأن فاروق كان يلقب الملك الصالح .

وأعطى الإفرنج بلدين من بلدان المسلمين ، فغضب الشيخ لله ، وقام فى الجمعة التالية على منبر الأموى فخطب فى ذم موالاة الأعداء ، وتقبيح الخيانة ، وانتهت الخطبة وقام للدعاء للملك كما هى العادة ، والملك حاضر فى المسجد ، فما كان منه إلا أن أعلن أن الملك قد خان ، وأن الخائن لا ولاية له ، وأعلن إسقاطه من الحكم !

لم يراع صداقته ، ولم يحرص على عطفه ، ولم يلجأ إلى زاوية مظلمة فيتلفت حواليه ، ثم يقول بصوت خافت : اللهم إن هذا منكر لا أرضى به ، ولا أقدر على إزالته ! بل صدع بالحق على المنبر ، فقبض عليه . وضج الناس وتكلم العلماء ، فأرسل الملك إلى الشيخ من يقول له : إن الملك يعفو عنه بشرط أن يقبل يده .

قال الشيخ للرسول : يا مسكين ، والله ما أرضى أن يقبل يدى فضلاً عن أن أقبل يده !

فحبسه ، ثم أرسله إلى الجبهة فسجنه في فسطاط قريب منه ، وكان يقرأ القرآن مرة في محبسه وعند الملك وفود الإفرنج فقال لهم : أتسمعون هذا القارئ ؟ إنه أعظم قساوسة المسلمين وقد حبسته لإنكارة تسليمى الحصون لكم وعزلته عن منصبه !

قالوا ـ واسمعوا ما قالوا ـ قالوا : والله لو كان قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما !! .

ثم أطلق فسار إلى مصر فأكرمه ملكها ، وولاه الخطابة والقضاء ، فكان منقطعاً إلي التدريس والإملاء والتأليف ، وخلف مؤلفات هى غاية الغايات فى جودة البحث ، وتحقيق المقصد ، ووضوح الأسلوب ، وكان وفياً للعلم ، لا يبالى فى سبيل الحق ورضاء الله ما يقوله الناس ، أفتى رجلاً لا يعرفه فى مسألة ، ثم ظهر له أنه أفتى خطأ ، ولم يكن فى تلك الأيام جريدة ولا إذاعة ، فأخرج منادياً ينادى فى شوارع مصر : يا أيها الناس ، من أفتاه أمس عز الدين بن عبد السلام فى المسألة الفلانية ، فليعلم أن الجواب غلط ، وليأت ليسمع الجواب الصحيح ! .

لذلك سمى سلطان العلماء .

***

وكانت له فى مصر وقائع مع الأمراء نسمعها اليوم فنراها من باب الخيال .

كان الحكم للمماليك فنظر الشيخ فرآهم لا يزالون فى نظر الشرع عبيداً ، لم يتحرروا هم ، فضلاً عن أن يحكموا الأحرار ، فأعلن ـ بوصفه القاضى ـ أنهم سيباعون بالمزاد العلنى وكان نائب السلطنة من المماليك الذين حكم الشيخ ببيعهم ! .

وحسبوه يهزل فإذا هو جاد، فشكوه إلى السلطان فنهاه فلم ينته ، فقال له السلطان كلمة فيها غلظة ، فما كان من الشيخ إلا أن . . .

إلا أن . . ماذا ؟ ماذا ترونه صانعاً، وهو لا يملك قوة ولا مالاً ، وقد أثار الحاكمين عليه ، وأراد أن يزيد على رقابهم فى السوق ، ويبيعهم كما تباع الدواب !

ما كان منه إلا أن حمل أمتعته على حمار ، وأركب أهله على حمار آخر . وكانت هذه دنياه كلها ، دنيا تحمل على حمارين . . . وخرج من مصر .

تقولون : ثم ماذا ؟ وماذا يصنع خروجه ؟

لقد صنع العجائب يا سادة ، لقد خرج أهل مصر جميعاً ، بالضجيج والعويل ، يسيرون خلفه ، وارتجف البلد ، وزلزلت مصر ، وأسرعوا إلى السلطان يقولون له : تدارك ملكك لئلا يذهب بذهاب الشيخ !

فلحقه فأرجعه وأجابه إلى طلبه .

وذهب كبير المماليك بالسيف إلى دار الشيخ ليقتله ، ولم يكن على بابه حرس ولا حجاب ، وقرع الباب ، فنزل الشيخ وفتح له ، فلما رآه الأمير ،لم ير أمامه بشراً يخوفه بالسيف، ولكن رأى الشرع الذى لا تعمل فيه السيوف، فسقط السيف من يده .

ونفذت كلمة الشيخ فنودى على أمراء مصر فى سوق العبيد !

***

وخرج الملك الصالح أيوب يوم العيد إلى الصلاة بموكبه ودبدبته وعظمته : العسكر مصطفون بين يديه ، ووجوه المملكة يسيرون وراءه ، والأعلام تلوح على رأسه ، والأمراء يقبلون الأرض أمامه ، وإذا بشيخ يخرج من باب

مدرسته فيناديه باسمه : يا أيوب ! فالتفت السلطان ودهش ، ووقف ، ووقف الناس وشدهوا ، حتى كأن الطير على رؤوسهم ، فقال له الشيخ : ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ قال : هل جرى ذلك ؟ قال : الخمارة الفلانية يباع فيها الخمر ، وفيها المنكرات ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة .

قال الملك : يا سيدى هذه من زمان أبى .

قال : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا ؟

فأمر السلطن بإبطالها من ساعته .

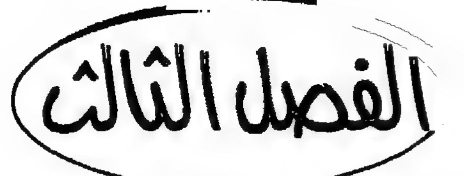
فلما دخل المدرسة سأله تلميذه (الباجى العظيم) : يا سيدى لم فعلت ذلك ؟ قال : يا بنى رأيته فى تلك النعمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . قال : يا سيدي أما خفته ؟ قال : تصورت هيبة الله فصار السلطان قدامى كالقط !

* * *

يا أيها السادة ، هذا شيخ كان يعيش فى دنيا من عقيدته وإيمانه ، ترك دنيا الناس وزهد فيها ، ولم يحرص على متعها ولذائذها ، فانقادت له الدنيا ، وذل له جبابرتها ، حتى وقف هذه المواقف التى نراها أدنى إلى الخيال .

ومن خاف الله يا أيها الناس خافه كل شىء ، ومن أخلص له وضع هيبته ومحبته فى كل قلب ، أما من كان مثلنا يطلب الدنيا ويريد المال ، ويبغى الجاه، ويحرص على ثناء الناس ، فهيهات أن يقدر على شىء .

* * *



- الوزير الشاعر
- شاعر يرثى نفسه
- سيد شعراء الحب العذرى
- سلطانة الأندلس

الـوزيـر الشـاعـر

حديثى عن وزير أندلسى ، إن غدا اليوم مجهول الإسم لا يعرفه إلا العلماء . . فلقد كان اسمه فى الأمس من أشهر الأسماء . . . وكان علماً من الأعلام ، يعرفه الخاص والعام .

إنه أحد العباقرة الذين أخرجتهم الأندلس الخضراء ، الفردوس الذى أضعناه ، بدأ من الحضيض بلا نسب ولا مال فرفعه ذكاؤه وأدبه إلى القمة ، فلما بلغها غلبت عليه أخلاق أهل الحضيض فغدر وخان ، فهبطت به خيانته ونزل به غدره من القمة إلى القبر .

وزير شاعر أديب ، لملك شاعر أديب ، هو محمد بن عمار وزير المعتمد ابن عباد .

وهو أشعر من ابن عباد ، و هر أحد السبعة الكبار من شعراء الأندلس إن لم يكن أشدهم أسراً وأجزلهم شعراً .

نشأ فى شلب ، وهى مدينة كبيرة فى (البرتغال) غربى الأندلس ، يزعم ياقوت أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول الشعر ولا يعانى الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه ، وسألته عن الشعر ، نظم من فوره ما اقترحت عليه فى أى معنى طلبته منه .

فى هذه المدينة الشعرية نشأ هذا الوزير الشاعر ، فكان ينظم الشعر يمدح به كل من يلقاه ، من عظيم وحقير ، وكبير وصغير ، جواهر يرمى بها ذات

الشمال وذات اليمين ، فتقع في الروض المونق وتقع في الوحل القذر ، ثم اتصل بالمعتمد ، وكان المعتمد شاباً ، ينظم الشعر ، ويحب الأدب ، فما زالت حاله معه تقوى ، وصلته به تزداد ، حتى صار شقيق نفسه ، ورفيق أنسه ، وغلب عليه ، حتى انطلقت ألسنة الناس فيه ، فأمره والده المعتضد بإبعاده عنه ، فهام في مدن الأندلس شريداً طريداً يبعث إلى المعتضد بأروع الشعر ، من أمثال قصيدته التي بعث إليه بها من سرقسطه ، ومطلعها :

عليّ وإلا ما بكاء الغمائم وفيّ وإلا ما نواح الحمائم

والقصيدة الأخرى التي جاء فيها بهذا البيت النادر :

السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب إن كانت يمينك منبرا

ولكن المعتضد لم يأذن له بالعودة إلى ولده ، فبقي ابن عمار مغترباً في أقاصي الأندلس حتى مات المعتضد ، وولي المعتمد ، وأعاده إليه ، وقربه منه ، حتى لم يبق فوق منزلته منزلة ، وحتى صار منه كجعفر البرمكي من هارون الرشيد . وكانت نهاية أمره معه ، كنهاية جعفر مع الرشيد .

لا ، لن أسرد عليكم تفاصيل حياته ، ما لكم ولتفاصيل حياته ، وليست الإذاعة (*) مدرسة لتعليم التاريخ ، ولستم تلاميذ في هذه المدرسة .

إني أسرد عليكم من حياته مواقف فيها الإمتاع لمن شاء الاستمتاع ، وفيها العبرة لمن أراد الاعتبار .

كانت حياة ابن عمار علواً وانخفاضاً ، وبؤساً يعقبه نعيم ، ونعيماً يكون بعده البؤس .

لما كان يدور بشعره على الناس ،يمدح من يلقاه ، وجه بقصيدة إلى تاجر

(*) أذيعت من إذاعة دمشق.

غنى فى شلب ، وكانت لابن عمار دابة لا يملك ثمن علفها ، فوجه إليه الرجل بمخلاة شَعير ، ففرح بذلك ابن عمار ورآها من أسنى الجوائز ، ودار الدهر دورة ، وصار ابن عمار وزير المعتمد ، فتوجه يوماً إلى شلب ، ودخلها فى الموكب الضخم ، والجند الكثيف ، والعبيد والحشم ، فكان أول ما صنعه ، أن سأل عن هذا التاجر ، فلما جاءه أخرج المخلاة وكانت معه فملأها له دراهم ، ودفعها إليه ، وقال له : لو ملأتها يومئذ قمحاً بدل الشعير ، لملأتها لك اليوم دنانير بدل الدراهم .

ودار الدهر دورة أخرى ، فخان مولاه ، وأعلن الخروج عليه ، والاستبداد بالملك دونه ، فلما فشل وغلب على أمره ، وهرب فلم يجد مهرباً ، ولجأ إلى أمراء الأندلس ، فلم يلق عندهم ملجأ ، قبض عليه المعتمد وجاء به مقيدا ذليلاً ، وأخرج الناس كلهم:كبيرهم وصغيرهم ليروه على هذه الحال من المذلة والهوان ، وهم الذين كانوا يخرجون كلهم لاستقباله ، وهو فى العز والسلطان ، وكان أكبر المسرة للكبير منهم أن يدنو منه ، فيمس ركابه أو يقبل ركبته ، فصار أصغر من فيهم يرميه بحجر أو يبصق عليه . حتى وقفوه أمام المعتمد ، فذكره بإحسانه إليه ،ونعمه عليه ، ومقابلته ذلك بالغدر والخيانة ، فأطرق ولم يجد له جواباً ، فأمر به إلى السجن ، وبعث إليه من السجن بقصائد هى فى الشعر آيات معجزات ، منها قصيدته التى يقول فى مطلعها :

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

قصائد لو توسل بها ـ كما يقول صاحب المعجب ـ إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجع ، ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع .

وقابل المعتمد الضراعة بالإعراض ، وتذلل ابن عمار له بالتكبر عليه ،

وانتهى أمره بأن قتله بيده فى فورة غضب أعمى بصره ، وكأن نفس ابن عمار كانت تحدثه بهذا المصير ، فلقد كان يوماً مع المعتمد ، فقربه إليه حتى حلف أن يناما معاً على وسادة واحدة ، فرأى فى منامه أن المعتمد يقتله فقام مذعوراً ولف نفسه فى حصير ونام فى الدهليز ، فلما افتقده الملك وقام يفتش عنه رآه على هذه الحال ، فسأله فخبره الخبر ، فطمأنه أن ذلك مستحيل ، ولكن هذا الذى رآه مستحيلاً وقع .

ودار الدهر دورات أخرى وإذا بالملك يقاسى من ابن تاشفين ما قاساه منه وزيره ابن عمار .

خان الوزير فأنزله ملكه من سدة الحكم إلى ظلام السجن وأذاقه مرارة النقم بعد حلاوة النعم ، فجاء ابن تاشفين فصنع بالمعتمد ما صنع المعتمد بابن عمار ، نقله من القصر إلى القفر ، ومن مدن الأندلس إلى قرية فى صحراء أفريقية ، ومن أوسع الغنى إلى أضيق الفقر ، حتى قتله الحزن .

وهذه هى الدنيا : إقبال وإدبار ، وعلو وانخفاض ، وسيد يصير مسوداً . ومسود يصبح سيداً .

وليست حظوظاً ولا مصادفات ، ولكنها خطة مدبرة من لدن حكيم قدير .

***

شاعر يرثى نفسه

لقد وعدتكم أن أضرب فى هذه الأحاديث بكل سهم ، وأسلك كل واد ، وأتحدث عن رجال الفن كما أتحدث عن رجال العلم ، وأن أجيئكم مرة مع شاعر أو موسيقى ، كما أجيئكم مرات مع الأئمة والقواد .

وها أنذا آتى اليوم ومعى شاعر .

شاعر لم يغنِّ مع الحمائم فى الروض الأغن ، ولم يهم مع السواقى فى الوادى الضائع ، ولم يدلج مع النجم فى الأسحار الندية بعطر الفجر ، ولم يتبع الشمس فى العشايا السكرى بخمر الغروب ، ولم يرقب طيف الحبيب فى الليالى التى تكتم أسرار الهوى .

ولئن سابقت شاعرية الشعراء الزمان فسبقت الشباب ، وظهرت بوادرها فى مدارج الصبا ، وملاعب الفتوة ، فإن هذا الشاعر لم تنبثق شاعريته إلا على سرير الموت ، وشفا الردى ، على عتبة الدنيا خارا منها ، وعتبة الآخرة داخلاً إليها . وفى الساعة التى يعيا فيها الشاعر ، ويؤمن فيها الكافر ، ويضعف فيها القوى ، ويفتقر فيها الغنى ، ولم تنبثق إلا بقصيدة واحدة، ولكنها كانت نفحة من عالم الخلود فخلد بها .

***

قصيدة وهبها للموت ، إذ تغنى له فيها ، فوهب له الموت بها الحياة .

لم يتفلسف فيها تفلسف المعرى ، ولا تجبر تجبر المتنبى ، ولا أغرب إغراب

الدريدى ولكنه جاء بأقرب الأفكار ، فى أسهل الألفاظ ، فجاءت من هذه السهولة عظمة القصيدة .

والفنون كلها تموت يا سادة إن أكرهتها على الحياة فى جو التكلف ، التكلف فى التفكير أو التعبير . إن الفنون لا تحيا إلا فى الانطلاق والحرية . كل الفنون : الكتابة والشعر والتصوير والموسيقى ، حتى الإلقاء ، فليفهم ذلك من يظن أن الإلقاء الجيد هو التشدق والتقعر ، وإمالة اللسان ، وقلب الحناجر ، وضخامة الأصوات . . . وما نسمعه كل يوم فى الإذاعات .

***

شاعر لم يعش شاعراً ، ولكنه مات شاعراً .

عاش عمره كله يغنى بسنانه للحرب ، لا يغنى بلسانه للحب ، لا يعمل لوصال الأحبة ، وسلب القلوب ، ولكن يعمل لقطع الطرق ، وسلب القوافل . كان لصاً من أشهر لصوص العصر ، ثم تاب ومشى إلى الجهاد فى جيش ابن عفان ، حتى أدركته الوفاة وهو على أبواب خراسان ، فرثى نفسه بهذه القصيدة ، التى لا أعرف فى موضوعها [1] إلا قصائد معدودات فى آداب الأمم كلها .

وإنها لتختلف الألسنة والألوان ، وتتبدل المذاهب والأديان ، وتتباعد المنازل والبلدان ، ولكن شيئاً واحداً لا يختلف بين نفس ونفس ، ولا يتبدل بتبدل الأعصار والأمطار ، هو العواطف البشرية ، إن أناشيد المجنون لليلى أناشيد كل عاشق أينما كان ، وقصة (بول وفرجينى) قصة كل شاب مغرم فى كل زمان ، وخطب (فيخته) هى خطب كل أمة قد هبّت تبنى المجد ، وتعمل للحياة .

---

(1) أى رثاء الشاعر نفسه .

ومن هنا جاءت عظمة الأدب ، وجاء خلوده ، إنه ليس كالعلوم . إن قرأ طالب الطب فى كتاب أُلّف قبل أربعين سنة سقط فى الامتحان ، أما طالب الأدب فيقرأ شعراً قيل من ألف وخمسمائة سنة ولا يزال جديداً كأنه قيل اليوم. لا ، لا تقولوا:إن العلوم تترقى وتتقدم وتسعى إلى الكمال ؛ لأن الجواب حاضر ، إن الأدب قد بلغ سن الرشد ، وحد الكمال ، من قبل أن يولد العلم، وقد عاش البشر دهوراً بلا علم ، ولكنهم لم يعيشوا يوماً بلا أدب . إن آدم قال لحواء كلمة الحب ، لم يحدثها فى الكيمياء ، ولا حل معها مسائل الجبر فى رياض الجنة (1) . والحب أول كلمة فى سجل الأدب .

الشعر أخلد من الكيمياء ، وأبقى من الرياضيات . كم مرة تبدلت نظريات العلم ، منذ نظم هوميروس قصيدته ، إلى اليوم . وأشعار هوميروس لا يزال لها رونقها ومنزلتها .

لا أعنى الشعر الذى هو الرنات والأوزان ، ولا الألفاظ المنمقة التى لا تحمل معنى ، ولكن أعنى بالشعر : حديث النفس ، ولغة القلب ، وكل ما يهز ويشجى ويبعث الذكريات ، وينشئ الآمال ، ويقيم النهضات ، ويحيى الأمم . الشعر الذى يشعرك أنه يحملك إلى عالم غير هذا العالم . سواء بعد ذلك أكان منظوماً أم كام منثوراً . إن عقد اللؤلؤ لا ينزل قيمته أن ينتثر ؛ لأن ثمن الخيط نصف قرش !

وإليكم الآن مقاطع من هذه القصيدة ، ولو اتسع المجال لشرحتها شرحاً ينسى الناس الأصل ، ولكن أين المجال ، والوقت ربع ساعة ؟

عربى عاش عمره كله فى جزيرته ، ما استمتع بحياته ، ولا ناجى طيف ذكرياته ، ولا انتشى برحيق آماله ؛ لأنه لم يجد يوم راحة ، يخلو فيه إلى نفسه

(1) هذا كلام الأدباء .

فيحس لذة الأحلام، وجمال التذكر ، وسحر الأمل ، لينبثق فى نفسه الشعر المخبوء فيها ، كما يختبئ الماء فى بطن الجبل ، يرقب معولاً يفتح له الطريق.

وها هو ذا الآن ملقىً على صعيد غريب عنه ، فى بلاد لا يعرفها ولا تعرفه، ولا يألفها ولا تألفه ، فهو يتذكر الآن . . الآن فقط . . بلده وأرضه ، ويدرك قيمة تلك النعم الجسام ، ولا يدرك المرء قيمة النعم إلا بعد زوالها ، وتثور فى نفسه الأمانى ، فلا يتمنى إلا أن يبيت ليلة أخرى بجنب الغضى ، وأن يسوق كرة أخرى إبله إلى المرعى ، ويذكر كيف كان يزدرى هذه النعمة التى يراها الآن عظيمة ، ويتمنى - وليس ينفع التمنى - لو أنه لم يسر من تلك الديار ، أو لو طال مشيه فيها قبل أن يخرج منها حتى تطول متعته بها .

واسمعوه الآن يقول هذا بألفاظه ورنته ، وقافيته الباكية التى تذكركم بقصيدة أخرى من وزنها ورويها ، لشاعر يمانى غريب هو عبد يغوث :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة

بجنب الغضى[1] أزجى القلاص النواجيا[2]

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه

وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

لقد كان فى أهل الغضى (لو دنا الغضى)

مَزارٌ ولكن الغضى[3] ليس دانيا

---

(1) الغضى : نبت من نبت البادية ، شديد اخضراره ، حامية ناره ، رأيناه فى رحلتنا فى البادية إلى الحجاز سنة 1935 ، تلك التى كشفنا فيها طريقًا للسيارات وتكلمت عنها فى كتاب (الذكريات) .

(2) أزجى : أسوق سوقاً رفيقاً . والقلاص : الإبل ، والنواجى : السريعة .

(3) هذا التكرار ، والذكر فى موضع الإضمار ، من أساليب البلاغة ، وأعلى الأمثلة عليه سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ومنه قول الشاعر : ليلاى منكن أم ليلى من البشر .

ويلوم نفسه ويعجب منها كيف سوغت له أن يقبل بهذا النفى راضياً مختاراً ، ويعجب من أبويه كيف لم ينهياه ، وما الذى جاء به إلى باب خراسان وقد كان نائباً عنه .

ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى

وأصبحت فى جيش ابن عفان [1] غازيا

لعمرى لئن غالت خراسان هامتى

لقد كنت عن بابىْ خراسان نائيا

فلله درى يوم أترك طائعاً

بنىّ بأعلى الرقمتين [2] وماليا

ودر الظباء الساحنات عشية

يخبّرن أنى هالك من ورائيا

ودر كبيرىّ اللذين كلاهما

علىَّ شفيق ناصح لو نهانيا

واسمعوه كيف يفتش عمن يبكى عليه فلا يجد أحداً ، لا يجد من يبكيه إلا سيفه وفرسه ، وليس ينفع الميت أن يذكره ذاكرٌ إلا ذاكراً بدعاء أو صدقة ، ولا يضره أن ينساه الناس ، وليست حفلات التأبين للميت ولكن للأحياء يصعدون على قبر الميت ليقولوا للناس : انظروا إلينا ، واسمعوا بياننا ، وصفقوا لنا .

---

(1) هو سعيد بن عثمان بن عفان ، وباع الضلالة بالهدى ، أى اهتدى بعد الضلال ، لأن ما تدخل عليه الباء يكون هو ثمن المبيع .

(2) هما موضعان فى بادية البصرة .

ولقد صدق سبنسر إذ قال :

كلنا يبكى فى المأتم وكل يبكى على ميته .

ليس ينفعه بكاء ولا نواح ولكنها غريزة التمسك بالحياة والاستكثار منها .

تذكرت من يبكى عليّ فلم أجد

سوى السيف والرمح الردينى [1] باكيا

وأشـقر خـنذيذ [2] يجـرعنانه

إلى المـاء لـم يتـرك لـه الدهـر ساقيـا

وأرجو أن تتجاوزوا عن كلمة (خنذيذ) التى ترونها غريبة ولم تكن غريبة فى أيامه . وانظروا إلى جمال الصورة وروعتها . هذا الحصان يتلفت يمنة ويسرة ويدور وينعطف يفتش عن صاحبه فلا يلقاه ، فينسى الطعام والشراب ، حتى يبرح به العطش ولا يجد من يسقيه ، فيجرعنانه . (انتبهوا إلى دقة الوصف فى جر العنان ،أى : الرسن) إلى الماء .

لو أنَّ مصوراً صور معنى هذا البيت لكان لوحة من لوحات العبقرية ، وما أكثر ما فى هذه القصيدة من الصور .

***

وهاكم هذه اللوحة التى بلغت من الروعة أبعد الغايات ، والتى تذيب القلوب ، فتسيلها دموعاً .

هذه اللوحة التى أعرضها كما هى ، لا أحب أن أفسدها بشرح أو تعليق :

---

(1) منسوب إلى ردينة ، وهى امرأة كانت تثقف الرماح ، أى تقومها .

(2) الفرس الطويل الصلب .

ولما تراءت عند مرو منيتي
وحل بها جسمي وحانت وفاتيا
أقول لأصحابي : ارفعوني فإنني
يقر لعيني أنْ سهيلٌ[1] بدا ليا
فيا صاحبيْ رحلي دنا الموت فانزلا
برابية ؛ إني مقيم لياليا
أقيما على اليوم أو بعض ليلة
ولا تعجلاني ؛ قد تبيَّن ما بيا
وقوما إذا ما استل روحي وهيئا
لي السدر [2] والأكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي
وردا على عينيّ فضلَ ردائيا
ولا تحسداني - بارك الله فيكما -
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني ببُردي إليكما
فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

يعلم أنه لن يجد من يقوم على قبره، ويشيد بذكره ، فيرثي هو نفسه ،

---

(1) سهيل نجم يطلع من نحو بلده .
(2) شجر كالأشنان يغسل بمائه الميت .

ويكشف عن فعاله بمقاله :

وقــد كنــت عطافاً إذا الخـيــل أدبــرت

سـريعاً إلــى الـهَـيْـجـا إلــى مـن دعــانيـا

وقـد كنت مـحـمـوداً لدى الزاد والقـرى

وعن شتمـىَ ابـن العـم والجــار وانـيـا

وقـد كنت صبّـاراً على القِرْن فى الوغى

ثقيـلا عـلـى الأعــداء عضـبًا لـسانيـا

ويعود إلى إتمام هذه اللوحة الرائعة ، فيتصور مسير أصحابه وبقاءه ، وحيداً فى هذه الفلاة :

غـداة غـد يا لهف نفسى على غـد

أدلجــوا عـنـى وخُـلّـفـتُ ثـاويــا

وأصـــبح مـــالى من طريف وتالد

لغيـرى وكـان المال بالأمس مـاليـا

* * *

ويسأل رفيقيه حاجة له هى آخر حاجاته من دنياه ، أن يحملوا نعيه إلى أهله ، إلى بئر الشبيك ، حيث يزدحم بنات الحى ، يملأن الجرار ، ويستقين ، فيصرخ ، فيدعن ما هن فيه ، ويتلفتن إليه ، وتسمع زوجته ، فيلقى إليها بوصاته ، وما وصاته إلا أن تقف على القبور علها تذكرها بقبره الضائع ، حيث لا زائر ولا ذاكر :

وقوما على بئر الشُّبَيك فأسمعا — بها الوحش والبيض الحسان الروانيا

بأنكما خلفتماني بقفرة — تهيل عليَّ الريحُ فيها السوافيا

ولا تنسيا عهدى خليلى إننى — تَقَطَّع أوصالى وتبلى عظاميا

فلن يعدم الوالون بيتا يُجِنُّنى — ولن يعدم الميراث منى المواليا

* * *

ويا ليت شعرى هل تغيرت الرحى

رحى المثل [1] أو أضحت بفلج كما هيا

إذا مت فاعتادى القبور فسلمى

على الريم [2] أسقيت الغمام الغواديا

ويختتم القصيدة بهذا المقطع :

أقلب طرفى فوق رحلى فلا أرى

به من عيون المؤنسات مراعيا

وبالرمل منا نسوة قد شهدننى

بكين وفدين الطبيب المداويا

فمنهن أمى وابنتاها وخالتى

وباكية أخرى تهيج البواكيا [3]

وما كان عهد الرمل منى وأهله

ذميما ، ولا بالرمل ودعت قاليا

(1) مواضع فى ديار قومه . (2) القبر . (3) زوجته وكانوا يكنون عن الزوجة .

يا سادة . لقد مات مع مالك فى تلك السفرة آلاف وآلاف ، ولا يزال الناس قبله وبعده يموتون ، فينساهم ذووهم ، ويسلوهم أهلوهم ، وهذا الشاعر جعلكم تذكرونه ، وتبكونه بعد ألف وثلاثمائة سنة ، وأنتم لا تعرفونه .

وهذه هى عظمة الشعر ، وهذا هو خلود الشاعر .

***

سَيِّدُ شُعَراءِ الحُبِّ العُذْرِي

هذا فصل فى الحب ، فلا تقولوا : يا عجباً ! شيخ وقاض ويتكلم فى الحب؟! وما الأدب كله ، وما الشعر ، إن لم يكن كلاماً فى الحب ؟ ومن حرم على المشايخ القول فى الحب ، وهم كانوا الأئمة فى كل شىء ، وكان من كبارهم ثلاثة ألفوا فيه كتباً لم يؤلف مثلها ، علموا فيها الناس أفانين الهوى ، ولقنوا (أصول العشق) كبار العاشقين ، وهم ابن القيم ، وابن حزم ، وابن داود ، ثلاثة من جبال العلم ، وأعلام الإسلام .

ومن كبار الفقهاء ، من كان من شعراء الغزل الكبار ، ولقد جمعت مرة فى الرسالة [1] طرائف من غزل الفقهاء ، يؤمن من يقرؤها أن التَّزَمُّتَ والتوقر لم يكن دائماً سمة العلماء ، وأن فى علمائنا ، من كانوا هم أرباب الظرف ، وكانوا هم أصحاب القلوب .

وما لى أذهب فى الاحتجاج بعيد المذاهب ، وهذا الشاعر الذى جئت أحدثكم حديثه ، كان من (أئمة) الدين ، وكان من (قضاة) المظالم ، وكان نقيب الأشراف ، وكان إمام الحج ، وكان مع ذلك شاعراً ، بل كان أعظم شعراء الحب العذرى فى أدب العرب ، بل - سأقولها ولا أبالى - كان أعظم شاعر فى الدنيا ، هتف للجمال ، وغنى للحب ، وصور نوازع النفس ، وصبوات القلب ، ولوعات الهوى ، ولذات الوصال ، ولقد قرأت أكثر أشعار لامارتين وموسه وبيرون وغوته ، فما وجدت فيهم من قال فى هذه المعانى ،

---

(1) العدد « 644 » 25 مارس 1946 والذى بعده وهى فى كتابى (فكر ومباحث) .

أدق ولا أرق ولا أحلى ولا أشرف مما قال شاعرنا .

وما أنكر عليه أهل زمانه ما قد تنكرونه اليوم ، ما أنكروا عليه أن جعل من (الموسم) الأكبر [1] ، موسماً للقلوب الهائمة ، والأبصار الشاردة ، وأنه قرأ قصائد الجمال مكتوبة فى وجنات العذارى ، بكل لغات الأرض ، وقال فيها أربعين قصيدة ، هى (الحجازيات) التى دان بها الأدب العربى ، والتى لو ترجمها إلى الفرنسية أو الإنكليزية ، بليغ فى ذلك اللسان ، لفتنت الفرنسيين والإنكليز ، أضعاف ما فتنهم شعر الخيام . وأين الخيام من الشريف ؟

وأنا أعجب والله كيف استطاع أن يصرح بما لو لمح إليه شيخ من مشايخ هذه الأيام ، لما تركوه يستطيع المشى فى الأسواق ؟

لقد عرفت السبب . . .

ذلك أنهم وثقوا أنه كان من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون ، وأن دينه وعفافه كانا فى مكان لا ترتقى إليه الشبهات ، وأنه لم يكن يعشق امرأة كما يفهم شباب اليوم من العشق : يراها فيرضاها ، ثم يتبعها فيهواها ، ثم يتخذها زوجاً بلا زواج . كلا . ولقد كان الشريف شريفاً حقاً ، وكان زوجاً أخلص زوج ، وكان أباً خير أب ، وكان سيداً مرموقاً ،ولو علم الناس أنه واقع بعض ما يقول لأوقعوا به ، ولكنهم علموا أنه ما كان عاشقاً شاعراً ، وإنما كان شاعراً عاشقاً ، وما اتخذ الشعر حرفة يستجدى بها الأكف ، ولقد كان عند نفسه وعند الناس أكبر من ذلك :

وما لىَ يا لمياء بالشعر طائل   سوى أن أشعارى عليكِ نسيب

---

[1] هذا كلام قلته أنا ، وأنا أنكره اليوم ، ولا أقر الشريف ولا ابن أبى ربيعة من قبله ، ولا أقر أحداً أن يجعل من موسم للعبادة موسما للأدب ، ومعرضاً للجمال ، وغفر الله لى ولهم .

ولكنه كان يعشق العشق ، ويحب الحب ، إن كان هذا التعبير منى صحيحاً ومفهومًا . وما هذه المواطن التى يرددها الشريف ، وما هذه الأسماء التى يسميها ، إلا حجب يخفى وراءها نوازع قلبه الهائم ، ومطارح حبه التائه ، وإن كانت كحجاب النساء فى هذه الأيام ، يخفى المعايب ، ويجمل بالوهم غير ذات الجمال .

لم تكن هذه المواطن أكثر من صحارى مقفزات ، ولكن لمسة من يد الشاعر العبقرى ، تجعل الصحارى جنات وارفات الظل ، فاتنات المسارب ، هادرات السواقى ، وتحيلها عالمًا مسحوراً ، كأنه جنة عبقر التى يتحدث عنها العرب . وأنت تسمع اليوم أسماء بلودان ، وفالوغا ، ونبع الصفا ، والقناطر الخيرية ، وراوندوز ، وكشمير ، وما شئت من مرابع الخيال ، ومراتع الغيد ، ومراتع الأحلام ، فلا تحس لهذه الأسماء برجفة فى قلبك ، ولا بوثبة فى خيالك ، كالذى تحسه وأنت تسمع أسماء تلك الفلوات : البان والعلم ، والخيف ومنى ، وسلع والمصلى ، حث يهتف بها الشريف .

وهذه عظمة الشعر ، يمر بسحره على القفاز فيجعلها تزرى بجنان المصايف ، وروائع الأودية ، ذات العيون والسواقى .

من معيد أيام سلع على ما كان منها ؟ وأين أيام سلع !

***

أيها الرائح المجد تحمل	حاجة للمتيم المشتاق
أقْرِ عنى السلام أهل المصلى	فبلاغ السلام بعض التلاقى
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد	أن قلبى إليه بالأشواق

***

لا لن أتحدث عن (الرجل) ، ماذا أكل وماذا شرب ، ومتى سافر وأين أقام؟ ما لي وما للرجل ، والرجل فان ؟ إنما أتحدث عن (الشاعر) ، فالشعراء خالدون [1] . وسأعلو بكم ما استطعت إلى جوه ، وأدخل بكم إلى عالمه ، فإن للشعراء عوالم ، لا يحيط بها علم الناس ، عالم لا تعرفون عنه إلا هذه الومضات التى تلمحونها عندما تسمعون الأغنية الحالمة فى الليل السكران ، أو تطالعون القصة العبقرية ، تطرق باب المجهول . أو تفتحون فى سجف الذكريات كوة على الماضى المنسى ، أو تستغرقون فى ذكر الله فى هدآت الأسحار . وتلك وحدها أنس النفس المؤمنة ، وراح الروح .

عالم كل ما فيه غريب لا يشبه دنيا الناس . هذا هو عالم الشريف الرضى

***

إن كنتم تسمعون بآذانكم ، فأهل هذا العالم يسمعون بأفواههم ، فإن ناجاها لم يضع فمه على أذنها ، بل فاه على فيها :

عندى رسائل شوق لست أذكرها

لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وإذا أبصرتم أنتم بالعيون ، أبصروا هم بالآذان :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى

فلعلى أرى الديار بسمعى

وإذا كان الناس عندكم هم وحدهم الذين يروون الأحاديث ، بالكلمات والحروف ، فإن كل شىء فى عالم الشاعر يحدث بلا حروف ولا كلمات . . .

(1) خلود الذكر فى الدنيا ، والخلود الحق إنما يكون فى نعيم الجنة ، أو فى عذاب النار .

النَّفس يتحدث فهل تفهمون لغة الأنفاس ؟

خذى حديثك عن نفسى من النَفَسَ

وَجْد المشــوق المعــنى غيــر ملتبس

فماذا قال النفس

قال :

الماء فى ناظرى والنـار فى كـبدى

إن شئت فاغترفى أو شئت فاقتبسى

والعين ، والقلب ، عندكم أعـضاء فى الجسم ، هكذا يقـرر أساتذة كلية الطب لا يعرف المساكين من العين إلا أنها (فوتوغراف) ، ولا من القلب إلا أنه (مضـخة)أمـا نحن ـ نحن الأدباء ـ فإن عندنا للعيون علماً مستقلا ألفت فيه كتب كبار ، أما قرأتم كتابى (سحر الفتون فى سر العيون) الذى أنوى أن أؤلفه يومـاً وسأدرسه لطلاب التخصص فى أمراض العـيون فى كليـة الطب ؟ وإذا كانت قلوب الأطباء ، ما فيها إلا دم أحمر كدم الخروف ، فإن قلوب الشعراء العـشاق ، فـيـهـا الماضى والحـاضـر ، وفيـهـا الزمان و المكان ، وفـيـهـا الذكـر والآمـال ، وفـيـهـا من العـجـائب والأسرار ما لا يسـتطيع الأطباء أن يـصلوا إلى علمه وهى بعد أحياء مستقلة لا أعضاء ، العين لها وحدها حياة ، والقلب له وحده حياة ، وقد تفرح العين والقلب متألم .

وإن شككتم فهاكم الدليل من شعر الشريف :

تلــذ عينــى وقلبى منك فى ألــم　　فالقلب فى مأتم والعين فى عرس

وللعين (دائرة استعـلامات) تتجسس لـهـا على القلب ، فتهتك ستره ، وتذيع سره ، والشاعر حائر بينهما ، متعجب منهما :

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى

من علـــم العين أن القلـب يهـــواك ؟

صحيح والله .. من علم العين ؟!

والعين تبصر من الحجاز مَنْ فى العراق ، وترمى بسهام فتونها ، من ذى سلم فتصيب من فى بغداد ، فتسبى وتصبى ، لا تمنعها شوامخ الجبال ، ولا شواسع البيد .

سهـم أصـــاب وراميـه بـذى سـلـم

من فى العراق ، لقـد أبعــدت مرمــاك !

والعين تحصى عدد شهدائها ، وتسجل أسماء من تصيبهم سهامها ، وتقرؤه على الشا عر من وراء صاحبتها ، فيشهد جناية العين ، ويقرر براءة الحبيبة لأنها لا تدرى ما جنت عيناها .

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا

بما طـوى عنك من أسـماء قتلاك

ولا تعجبوا من نطق العين ، فإن العين ، تحدث الأحاديث الطوال فهى تأمر وتنهى ، وتعد وتؤمل ، ولكنها لا تفى ، ولا تصدق منها المواعيد .

وعد لعينيك عندى ما وفيت به

يا طــول ما كذبـت عينـى عينـاك

والقلب يتلفت ، نعم يتلفت ، فلا تصدقوا أخبار العـواذل ، من الأطباء الذين يرجفون بأنه ليس إلا عضلة ملساء ...

ولقد مررت على ديارهم وطلـولها بيد البلى نهـب

فوقفت حتى لج من لغب نِضْوى ولج بعذلى الركب

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

يتلفت ليرى المنازل وأهلها ، ثم يبعد الركب فلا يرى إلا هياكلها ، ثم يبعد الركب أكثر فلا يرى إلا دخانها ، ثم ترمى بالركب المرامى فلا يرى شيئاً، عندئذ يبصرها القلب بعينه التى لا يحجبها النأى ولا الليل ولا المنام .

تلفتُّ حتى لم يبن من بلادكم دخان ولا من نارهن وقود

وإن التفات القلب من بعد طرفه طوال الليالى نحوكم ليزيد

والهوى يتجسم فى عالم الشريف إنساناً ، ويزور الشعر فينصحه ألا يفارق أحبابه ، فإذا لم يسمع نصح الهوى ، جاء القلب فكلمه وضرب له الأمثال :

ولما تدانى البين قال لى الهوى رويدا ، وقال القلب : أين تريد ؟

أتطمع أن تسلو على البعد والنوى وأنت على قرب المزار عميد ؟

والدموع فى عالم الشاعر ، ليست ماء تسفحه العين على الخدين ، بل هى رسائل إلى الحبيبة ، ترسلها بالبريد المسجل ، والموزع هو الزفير ، أما قلت لكم : إن كل شىء فى هذا العالم لعجيب ؟

ولقد بعثت من الدموع إليكُمُ برسائل ومن الزفير بحادى

وأنتم تعيرون القصعة والماعون ، ولكن الشاعر يعير دموعه للعشاق المعاميد ، الذين أحرقت نيران الجوى قلوبهم ، ولا دمع لديهم ، يطفئون بها النار ، حتى إذا أعارها كلها ، ولم يبق عنده ما يبكى به ، راح يسأل العشاق أن يبكوا (بالوكالة) عنه ..

وابك عنى فطالما كنت من قد سل أعير الدموع للعشاق !

وكانت تهبُّ نسائم الصبا ، فتخالط أنفاسه فيستروح بها رَوْح الأحبة ، فماذا يصنع وقد انقطعت فلم تهب رياح ؟

فماذا يصنع ؟ إنه يرسل أنفاسه إليها مع ريح الصبا ، لتقف لها على طريقها، فتلاقيها :

خذى نَفَسِى يا ريح من جانب الحمى

فلاقى بها ليلاً نسيم ربى نجد

فإن بذاك الحى إلفاً عهدته

وبالرغم منى أن يطول به عهدى

ولكن الريح ، ويح الريح ! ليست معه دائماً ، إنها عليه مع العذال ، تغار إن رأت به نعمة الوصال ، حتى تحاول أن تفرق بينه وبينها ، فهى تشد الفضول من أطراف ثيابها ، والشوارد من خصلات شعرها .

تقولون : ومن أين علمت الريح بساعات الوصال ؟

إن لها ـ يا سادتى ـ جاسوساً من بنى عمها ، هو الطيب الذى يفوح من أعطاف الحبيبة ، كما أن للنهار جاسوساً عليه من قومه ، يَنُمُّ له ، هو البرق الذى يضوِّئ مكانهما ، مجتازاً بهما :

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا

على الكثيب فضول الريط واللمم

يشى بنا الطيب أحياناً وآونة

يضيئنا البرق مجتازاً على إضم

ويطلع الصبح ، وهما غافلان عن الدنيا وما فيها ، وهل يرى المحبون فى الوجود شيئاً ؟ حتى يتكلم العصفور ، نعم يتكلم كل شىء فى عالم الشاعر يتكلم :

وأكتم الصبح عنها وهى غافلة حتى تكلم عصفور على علم

وأرجو منكم يا أساتذتنا مدرسى البلاغة ، ألا تضيعوا هذه (الحقائق) بكلامكم عن الحقيقة والمجاز ، وتلك الأحاجى والألغاز ، دعوها لطلابكم تنفرونهم بها من الفن ، ودعونا فى غمرة اللذة بسحر البيان

إنكم يا أساتذتنا ، إذ تشرحون ببلاغتكم بيتاً ، لا تبقون منه إلا كالذى يبقى من الحسناء بعد أن (يشرّحها) مبضع الجراح .

***

وبعد فهذا مجلس مع الشاعر الذى كان إماماً فى العلم وفى المنصب ، وإماماً فى الحب والغرام ، شرب الكأس وترك للشعراء الثمالة . وورد الصافي وخلى لهم العكر .

***



أنتقل معكم اليوم إلى بلد بعيد ، وزمن بعيد . رحلة طويلة فى الأرض نقطع فيها البوادى والصحارى ، ونعبر فيها أنهاراً ونركب بحاراً ، ورحلة طويلة فى الزمان نطوى فيها سنينًا وأدهاراً ، حتى نصل إلى دهلى قبل ثمانية قرون .

إلى المدينة التى كانت قرية فجعلها ملوك الإسلام من أعظم مدن العالم .

إلى المدينة التى افتتحها السلطان قطب الدين أيبك سنة 584 هـ وكان مملوكاً جاهلاً ، فشراه القاضى فخر الدين الكوفى ، فخرّجه فى العلم والتقوى، ثم شراه السلطان شهاب الدين الغورى ، فنشأه على الشجاعة والقتال ، وكانت له همة ، وكانت له عبقرية ، فجعلته ملكاً بعد أن كان مملوكاً ، وكتبت له شرف فتح عاصمة الأرض بعدما طرق بابها فى الزمان الأول الفاتح الشاب محمد بن القاسم الثقفى ، ثم جاس خلالها السلطان القائد محمود بن سبكتكين الغزنوى [1] .

وكان لقطب الدين مملوك نبيه اسمه للمش كما يضبطه ابن بطوطة ، أو التمش كما يقول غيره ، ولا يهمكم بالطبع أكان اسمه التمش أم آشلميش . . . وإنما ذكرت ذلك خشية أن يكون فى المستمعين من وقع على قصته فهو ينتقدنى إن حرفت اسمه .

ولا تعجبوا من مماليك يصيرون ملوكاً ، فإنها سنَّة ذلك العصر (مع

(1) انظر حديث (بقية الخلفاء الراشدين) .

الأسف) ، لقد مر على البلاد الإسلامية فترة حكمها فيها المماليك ، وقد كان منهم خير كثير ، وكان منهم شر ، وليس هذا مجال الكلام عن شرورهم ولا عن خيراتهم .

أقول : إن التمش هذا كان عبداً مملوكاً لقطب الدين ، فرباه على خلال الخير ، وصفات الرجولة ، فلما مات قطب الدين ، جمع التمش القضاة والمفتين ، والوجوه والأعيان ، وأعلن استقلاله بالملك ، وفتح القاضى فمه ليتكلم ففهم التمش وتبسم ، وسبقه فأخرج من تحت مصلاه كتاباً مختوماً ، ودفعه إليه ليقرأه على الأشهاد ، فإذا هو كتاب عتقه وتحرره من الرق . وتمت البيعة ، وسار فى الرعية مثل سيرة قطب الدين ، وكان محباً للعدل ، مقيماً للحق ، سن فيه سنة خير وبركة ، هى أن لباس عامة أهل الهند البياض ، فجعل لبس الثوب الملون علامة التظلم والشكوى ، فمن ظلمه أحد كائناً من كان ، لبسه وعرض له فى أى مكان ، فأنصفه من ظالمه ، ثم خاف ألا يرى المظلوم ، فجعل على باب قصره (جرساً) كبيراً يقرعه المتظلم فى أى ساعة من ليل أو نهار .

وكان محارباً مظفراً ، وإدارياً حكيما ، و سياسياً موفقاً ، وحاكماً عادلاً ، ولكن أولاده لم يكونوا مثله ولم يسلكوا طريقه بل لقد أفسدهم النعيم وفتنتهم الدنيا ، فانصرفوا إلى لذاذاتهم ، ورغبات نفوسهم ، وبذل فى إصلاحهم جهده ، فلم يفد فى إصلاحهم جهد ، فيئس منهم ، وكانت له بنت،وهب الله لها جسدا يجمع متانة التركيب ، وقوة الأسر ، إلى جمال الخلقة ، وفتنة النظر ، وأعطاها قلباً ذكيا ، وفكراً نافذاً ، وذكاء يكشف بواطن الأمور ، ويحل معضلات المشكلات ، وشجاعة تقحم الموت ، ولا تبالى الأخطار ، بنتاً اسمها: رضية ، فصرف همه إليها ، وجعل معوّله عليها ، ووكل بها المعلمين والمربين،

ثم درّبها على فنون القتال ، وخدع السياسة ، ومرّسها بالحرب ، وكان إذا غاب ولاها الأمر مكانه ، فسدت ما كان يسده أبوها وربما زادت بفضلها عليه .

ولما مات ولى السلطنة ابنه الأكبر ، ركن الدين فيروز شاه ، فأساء وظلم ، وهدم ما كان بنى أبوه من الحب والهيبة ، وبلغ من عدوانه أن قتل أخاه معز الدين ، وامتلأت قلوب الناس بغضاً له و خوفاً منه ، وتمنوا زواله ، ولم يجرؤوا عليه فلم يكن من رضية إلا أن بدأت هى الثورة . . . تراءت للناس من سطح دارها ، وقد لبست الملون شعار المظلومين على عهد أبيها ، فاجتمع عليها الناس ، دعتهم إلى نصرتها فأجابوا ، وقادت الثائرين فنازلت بهم أخاها وقبضت عليه وحكمت عليه بـ (الإعدام) [1] قصاصاً له بقتل أخيه .

وتولت هى السلطة وكان ذلك فى يوم 18 ربيع الأول سنة 604 هـ .

وكان ذلك حدثاً فى الإسلام ، وكان شيئاً جديداً وغريباً لم يعرفه التاريخ الإسلامى ، وهذا الحدث هو موضوع حديثى اليوم أيها السادة .

ليس الحديث عن التمش وما ذكرته إلا تمهيداً ، ولكن الحديث عن السلطانة رضية التى ملكت الهند الإسلامية أربع سنوات .

وسيحظى هذا الحديث بتعليقات كثيرة ، ويثير جدالاً ، بين من يرى للمرأة الاشتغال بالسياسة ، وبين من يدعو إلى اكتفائها بما خلقت له ، بأن تكون ربة البيت ، (والبيت هو الوطن مصغراً) وأم الأولاد (والأولاد هم الشعب مختصراً) .

وسيجد كل دليلاً منه على ما يذهبون إليه ، ويقول الأولون : هذه امرأة

(1) الإعدام بمعنى الموت لم تعرفه العرب وهو مُوَلَّد ظهر على ألسنة المصنفين والمؤلفين من القرن الثامن . والإعدام فى اللغة:الفقر ، الذى عدم المال والذى أعدمه المال هو الله ، لذلك قيل له : (المعدم) بفتح الدال .

وليت السلطنة ، وحكمت وحاربت وجمعت من المزايا ما لم يجتمع إلا لقليل من أبطال الرجال . ويقول الآخرون : ولكن انظروا مبلغ نجاحها ومدى صلاحها لما عرضت له ، وأقدمت عليه ، أما أضاع عليها كونها امرأة كل ما جمعت من مزايا ؟

أما أنا فلا أقول اليوم شيئاً . أنا أسرد تاريخاً والتاريخ هو الذى يقول .

* * *

بويعت بالملك ، فودعت أنوثتها واتخذت زى الرجال ، ولبست لباسهم ، وبرزت للناس ، متخذة هيئة الجد والصرامة ، وحسبت أنها تستطيع بهذا التبديل ، أن تبدل خلقة الله فيها ، وأن تجعل من نفسها رجلاً ، وجمعت أطراف الأمور كلها فى قبضتها ، وأعادت سيرة أبيها فى عدله ، وفى شجاعته ، وكانت تحل المشكلات بنفسها ، وتسوس الرعية ، وتخوض المعارك . وشهد لها المؤرخون أن عهدها كان أحسن عهد عرفته الهند .

ولكن الناس مع ذلك لم يكونوا راضين ، وكانوا يأبون أن تحكمهم امرأة ، وانطلقت ألسنة المحدثين والناقمين والطامعين ، وتكررت على المنابر الأحاديث من أمثال (ذل قوم ولوا أمورهم امرأة) ، وبدأت هذه الحملات همساً ، ثم ظهرت وتبينت ، ثم استحالت إلى مؤامرة محكمة ، تولى تدبيرها أخوها الأصغر ، والوزير نظام الملك ، ورؤوس القادة والفرسان ، وأصبحت يوماً فإذا هى سجينة فى قصر مطوق بالأعداء ، فلم تستكن وبعثت تستثير أنصارها ، فهب لنصرتها حاكم أود ، وجاء بالجيش يدافع عنها ، ولكن الثائرين كانوا أقوى منه ، فغلبوا جيشه ، وأحكموا قيده ، وألقوه مع الأسرى ، فمات من قهره ، وبقيت السلطانة بلا نصير .

هنالك عادت مرغمة إلى طبيعتها ، إلى أنوثتها التى زعمت أنها قد ودعتها إلى الأبد ، واستعملت السلاح الذى هو أقوى من السيف ، سلاح المرأة الذى تقهر به الرجل دائماً [1] ، وحاربت به الأمراء فشكت بسنانه قلوبهم ، وألقت به العداوة بينهم ، ثم استعانت ببعضهم على بعض ، حتى إذا لم يبق أمامها إلا الأقل منهم ، ضربتهم ضربة من لا يرحم ، فلم تُبْقِ منهم ولم تذر .

واستقامت لها الأمور كرة أخرى .

ولكن هل استمر نجاحها ؟ .

لقد جمعت من العقل والحزم ، والشجاعة وحسن السياسة ، ما لم يجمع مثله إلا الأفذاذ من الرجال ، ولكنها أُتيت من كونها امرأة . إنها سلطانة ولكنها بشر كذلك ، فإن تزوجت تبعت بحكم الطبيعة زوجها واستقادت له ، وكان هو القوام عليها ، فصار هو السلطان دونها ، وإن أعرضت عن الزواج كانت فى حرب مع طبيعتها وغرائزها ، وإن اتخذت من اللهو مثل ما يتخذ الرجال ، وكان لها بهم مثل علاقات الحاكمين بالنساء كانت المصيبة الكبرى[2] .

إن المجتمع يغفر للرجل زلته ، ويقبل توبته ، ولا يغفر للمرأة أبداً . فيكون الغنم - إن كان غنم - لهما معاً والغرم عليها وحدها ، لذلك كان على المرأة إن فكر الرجل مرة قبل أن يقدم على (ذلك الأمر) ، أن تفكر هى عشر مرات ، ومن هنا كان الهجوم على هذه السلطانة .

كان لها عبد حبشى اسمه ياقوت ، تأنس به ، وتثق بإخلاصه ، فرفعته من مرتبته الصغيرة إلى رتبة أمير الأمراء ، فأطلقت بذلك ألسنة الناس بالكلام

(1) وهو جمالها وأنوثتها .

(2) وهذه حجة من لا يرى للمرأة السياسة والحكم .

عليها ، فزعموا أن بينها وبينه أكثر من هذا ، وأنها إذا أرادت الركوب تركته يحملها ، حتى يضعها على ظهر الفرس ، وأثاروا أمراء الأقاليم عليها ، فكان أول من أعلن الثورة حاكم بتهندا ، فسير إليها الجيش ، فأسرعت تقود جيشها إلى المعركة ، وهي واثقة من النصر ، ولكن الجيش الذى أوغرت صدره تلك الشائعات ، لم يعد يرى فيها سلطانة ، بل امرأة قبيحة السيرة ، مهتوكة الستر ، فلم يكد يبصر راية الحاكم الثائر ، حتى انضم إليها وتخلى عن ملكته .

وأسر الحاكم الملكة ، وجمع الأمراء فأعلنوا خلعها ، ونصب أخيها الأصغر ناصر الدين بهرام شاه ، وعادت امرأة كما خلقها الله ، فتزوجت بحاكم بتهندا ، أو هى أرغمت على زواجه ، وسارت معه إلى إقليمه ، هنا لك سلت سلاح أنوثتها مرة أخرى ، وملكت به أمر زوجها ، فأسلمت قياده فوثبت به تلقاء العاصمة دهلى ، لتستعيد ملكها فكان وجودها على رأس الجيش سبب عصيانه من جديد ، وتخليه عنها ، ولم ترض أن توقع بنفسها فهربت .

ضلت أياماً وهى بلا زاد ولا مأوى حتى نال منها التعب والجوع ، فلجأت إلى حراث منفرد فى البرية ، يحرث أرضه ، فسألته القرى فلم تجد عنده إلا كسرة خبز ، فأكلتها ونامت من التعب مكانها ، وهى بلباس القواد .

وكانت نومتها الأخيرة .

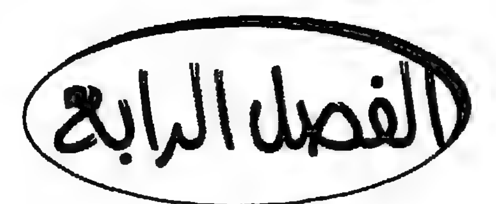
رأى الفلاح طرفاً من شعارها (ثيابها الداخلية) فعلم بأنها امرأة فاحتال عليها . . . ثم قتلها ، ودفنها فى الحقل ، وأخذ ثيابها يبيعها فى البلد ، فشك الناس فيه ، وقادوه إلى الحاكم ، فاعترف بفعلته فقتل ، وأخرجت الجثة فدفنت فى قبر مهيب ، وكان ذلك فى 25 ربيع أول 637 .

قال ابن بطوطة : وقبرها يزار ويتبرك به !

وكان ذلك نهاية هذه القصة . قصة لو أخرجت كما هى فلماً سينمائياً لكانت فى حقيقتها أروع وأمتع من كثير من الأفلام ، قصة بها بطولة ، وفيها عبرة، وفيها درس بليغ للمرأة .

هى تجربة لاشتغال المرأة بالسياسة ، فكيف رأيتم مبلغ ناح التجربة ؟

* * *



- الشيخ طاهر الجزائري
- الشيخ بدر الدين الحسني
- الشيخ على الدقر
- الشيخ محمد ياسين

الشيخ طاهر الجزائرى

هذا رجل لا يكفى للحديث عنه مقالة ولا رسالة ، لأن له فى كل مظهر من مظاهر الحياة فى الشام اليوم أثراً ، وفى كل ناحية من نواحى الإصلاح عملاً ، ولأنه باعث نهضة ، وكان معلم جيل .

هل هلال النهضة العربية فى بلاد الشام ، ومن الشام ـ ساحله وداخله ـ انبعثت أنوارها حتى ملأت دنيا العرب فكانت نهضة عربية إسلامية ، حفزت العرب إلى الزهو بمجد آبائهم ، والعمل على إعادة ذلك المجد . تسلحوا لها بالعلم ، وكان الشيخ من أوائل من رغب فيه ، ودفع إليه . وعادوا إلى اللغة الفصحى والبيان العربى وكان فى مقدمة من أعاد الناس إلى الفصحى وجلا لهم وجه البيان ، وبنوها على الهمم الشم والعزائم الرواسخ ، وكان من السابقين إلى تثبيت هذه العزائم ، وإعلاء تلك الهمم ، وهو الذى تخرج به الصفوة المختارة من رجال الرعيل الأول ، فى العلم وفى الأدب وفى السياسة .

ولم آسف على فوات لقائى برجل من رجال هذا العصر ، كما أسفت على أنى لم ألق الشيخ طاهراً الجزائرى ، وأن كل حظى من قربه أنى شيعت ـ رحمه الله ـ جنازته . ولكنى قرأت الكثير عنه ، ورويت الكثير من أخباره عن أقرب الناس إليه ، أستاذى محمد كرد على وخالى محب الدين الخطيب ـ رحمهما الله ـ ولقد عرفت رجالاً ، وسمعت برجال كانوا أعلم علماً ، وكانوا آدب أدباً ، وكانوا أكتب ، وكانوا أخطب ، وكانوا أعظم جاهاً ، وأضخم

اسماً ، وأبعد ذكراً من الشيخ طاهر ، ولكن للشيخ طاهر مزية . لم يكن مثلها ـ فيما أعلم ـ لواحد منهم ، اللهم إلا جمال الدين الأفغاني ، الذى كان صوته أول صوت أهاب بالقافلة النائمة أن تستيقظ وتعاود المسير ـ وسرا فى نشأته وفى خلقه ، هو أنه كان يترك أثراً من الخير أينما حل ، فكان مجلسه حيثما جلس مدرسة ، ولقاؤه أينما لقيته درس : يعلمك مسألة ، أو يرشدك إلى كتاب ، أو يلقنك خلقاً من أخلاق الخير ، وكان يعلم بفعله لا بقوله ، دعا إلى النظر فى الكتب ، فلم يكد يدع كتاباً لم ينظر فيه ، ودعا إلى التأليف فكان له من التواليف ما عده من مكثرى المصنفين ، ودعا إلى حفظ الوقت ، فلم يكن يضيع من وقته لحظة فى عمل غير نافع ، ودعا إلى ترك هذه المجاملات والرجوع إلى أخلاق المسلمين الأولين : من الصراحة والصدق ، وقصد الحقائق وترك الأباطيل ، فكانت حياته كلها كذلك .

وكاد ييأس المصلحون ، ولكن الشيخ لم ييأس ، ولم ير مستحيلاً إيقاظ هؤلاء العرب ، الذين ناموا دهوراً طوالاً تحت أغطية الجهل والعامية والخمول ولم يسلك طريق الطفرة ، فالطفرة لا تأتى بخير ، ولا الثورة ، فالثورة تبيد ولا تشيد ، بل عمد إلى إزالة أسباب الداء ، وإلى الترغيب فى العلم ، والحث عليه ليحارب الجهل ، ورد الناس إلى اللغة ، وتعريفهم فضلها ، ليدفع العامية ، ونشر أخبار السلف ، وتاريخ الفتوح ، لينفى الخمول .

وكان يعطى كلاً ما يناسبه ، كالطبيب الذى يحمل دواءه الشافى ، ويدور على المرضى ، فلا يعطى إلا بمقدار ، ولا يداوى إلا عن بينة من المرض ، يجمع حوله طائفة من أعلام الشباب ، هم صفوة خلطائه وعيون مريديه ، فيصرح لهم الرأى ، ويبين لهم الطريق ، وطائفة من الشيوخ يعرض لهم تعريضاً ، ويمهد لهم تمهيداً ، وطائفة من الفتيان ينشئهم على برنامجه ،

ويسيرهم من حيث لا يشعرون في طريقه ، وطائفة من العامة يقنع منهم بتقويم الأخلاق ، وإصلاح المجتمع ، وكان يجالس الموظفين الكبار والباشوات الأتراك ، يأمل أن ينال منهم خيراً وقد نال منهم في الحقيقة خيراً كثيراً .

كانت الكتب المخطوطة متفرقة في المساجد والزوايا ، يخشى عليها الضياع ، ويخاف التلف ، فعمل على جمعها في مدرسة الملك الظاهر (التاريخية) في دمشق ، فقام عليه الجاهلون من أصحاب النظر القصير أعداء كل إصلاح ، وقالوا : (شرط الواقف) ، فاستعان عليهم بصديقه الوالي حمدي باشا ، ولولا صداقته إياه لضاعت هذه الكتب ، ولم تنشأ دار الكتب الظاهرية التي نعدها اليوم من مفاخر الشام .

وكان التعليم في دمشق : الكتاتيب للصغار ، وحلقات المساجد للكبار ، فكان من أكبر العاملين على افتتاح المدارس العصرية ، ووضع بذور (المعارف) في سورية ، والغريب أنه قد افتتح مدارس للبنات من تلك الأيام، وأن الناس قد أقبلوا عليها ، ولدى عمتي التي تعيش معنا إلى اليوم [1] ، شهادة عليها خاتم الشيخ طاهر تاريخها سنة 1301 هـ . ولولا صلته برجال الحكم من الأتراك ما كانت المدارس .

وكان في طرف مقبرة الباب الصغير تل ، لا يمسى مساء كل يوم ، حتى يستحيل إلى ساحة حرب ، يقتتل فيه أهل الميدان وأهل الشاغور ، بالحجارة والعصي ، عصبية جاهلة كان لها في بلاد العرب كلها أمثال : فمثل (الزكرتكيات) في الشام (الفتوات) في مصر ، و(القبضايات) في لبنان و(أبو جاسم لر) في العراق .

وعلم الشيخ ـ وكان من أعلم الناس بخطط دمشق ـ أن تحت هذا التل

(1) توفيت ـ رحمها الله ـ بعد كتابة هذا الفصل .

مدافن نفر من آل البيت ، فسعى حتى أزال التل ، وأبرز القبور ، وآخى بذلك بين الحيين ، وإن كان قد فتح بذلك باباً جديداً للبدع المنكرة من حيث لا يريد .

وكان أشد خلق الله تشجيعاً للناشئين ، وتنشيطاً للعاملين ، يحاول أن يوصل الناس جميعاً إلى المثل الأعلى ، لا يرفعهم جميعاً إليه ، فإنه لا يمكن أن ترفع الناس كلهم إليه ، ولكنه يقربه إليهم ، ويسهل بلوغه عليهم ، حتى ترتفع بهم هممهم إلى محاولة بلوغه . وكان يقول لأصحابه :

ـ إن جاءكم من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له : إن هذا مستحيل ، بل علموه . فلعل اشتغاله هذه الثلاثة الأيام بالنحو ، تحببه إليه فيقبل عليه .

وكان كلما رأى مخايل النجابة في أحد سيّره في طريق العلم ، ووصله بشعبة من شعبه ، وكان أكثر اهتمامه بإدخال العلم إلى بيوت (الأكابر) وهو الذي دفع صديقنا الأستاذ سامي العظم (وكيل وزارة العدل السورية بالأمس ونزيل مصر اليوم) [1] إلى طريق الباب .

وكان له ـ وهو شيخ ـ ذهن رجل درس في أوربة ، معرفة بقيمة هذه العلوم الجديدة ، وبالصحافة وأثرها ، وبالعمل المنظم . فرغ من أمر طعامه ولباسه ، فكان مضرب الأمثال في ذلك ، وكانت ثيابه عجباً من العجب ، لأنه لم يكن يفكر فيها ، ولا يريد منها أكثر من أن تستر وأن تدفئ ، وكان يتخذ من جيوب الجبة مكتبة ، ففي جيب [2] كتاب مخطوط ، وفي جيب رسالة ، وفي جيب أوراق ودفاتر ، وفي الجيب الرابع خبز وقطع من الجبن ومن الحلاوة . . .

---

(1) توفي بعد كتابة هذا الفصل ـ رحمه الله .

(2) الجيب فتحة عنق القميص ، لكن استعملت الكلمة بالمعنى الذي يعرفه الناس .

حدثنى الشيخ قاسم القاسمى ـ رحمه الله ـ أن أصحابه رأوا جبته قد أبلتها الأيام وصيرتها شيئاً نكراً ، فاحتالوا عليه حتى اشترى جبة جديدة ، وأخفوا عنه القديمة فاضطر إلى لبسها ، ولم يكن أصعب عليه من لبس الجديد ، وذهبوا به إلى مجلس فى (دمر) فى قصر الأمير عمر الجزائرى ، وكان المجلس حول بركة عظيمة لها نافورة عالية مشهورة . وكان فيه جلة علماء ذلك المشرب ، الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمى وأمثالهما ، وإذا بالشيخ ينزع الجبة ، ويقوم بها إلى البركة فينزل بها فيها : غمساً غمساً ، ثم ينشرها على شجرة ، حتى تجف وتنكمش وتقرمد فيلبسها ، وسأله سائل منهم ، فيقول :

ـ كانت جديدة شغلتنى بالخوف عليها عن العلم ، فالآن استرحت من التفكير فيها .

كان يسهر الليل كله ، يدور على بيوت أصحابه ومريديه ، أو يقبع يدرس ويؤلف ، وكان أكثر مقامه فى مدرسة عبد الله باشا فى طريق بين البحرتين فى دمشق القديمة ، فإن كان مشغولا وطرقه طارق ، أطل فقال له : « مشغول ، عد فى وقت آخر » ، مهما كانت منزلته .

حدثنى أحد وجهاء العامة ، قال :

ـ ذهبت إليه مرة ، فردنى ، وأبى أن يدخلنى ، فتألمت وأزمعت هجره ، ثم قلت : أعامله بمثل ما عاملنى به ، فجاءنى مرة ، ففتحت له ، وقلت : «مشغول ، عد فى آخر وقت آخر» ، فذهب مسروراً يقول : « بارك الله ، هكذا ، هكذا ، (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) ، صدق الله » .

فإن دخل عليه الغليظ من حيث لا يشعر ، دفع إليه كتاباً ، وقال : « خذ ،

اقــرأ هـذا » ، وتــركــه وعــاد إلى مــا كــان فــيــه . ومــن قــوله فى ذلك :
«اشغلوهم ـ يعنى الغلاظ ـ قبل أن يشغلوكم » .

وكان يطيل المشى وحده ، ومعه كراس ينظر فيه ، مشى يوماً فى (وادى الشاذروان) فى دمشق ، وهو أجمل أودية الدنيا بإجماع أئمة الذوق ، فلحقه أحد الثقلاء ، وكان من عادة الشيخ الإسراع فى المشى . فجعل يسايره يسرع معه ، يحدثه حديثًا له أول وليس له آخر ، عن جده الذى مات ومن ورثه ، وكيف قسموا الإرث ، وخلاف من خالف فى ذلك ، وما يقول كل من الفريقين المختلفين ، حتى وصل معه إلى قريب (الهامة) ، والشيخ لا يسمع منه ولا يلتفت إليه ، حتى انتهى فقال :

ـ سيدى . هل أصبنا أم أخطأنا ؟

فما رد عليه ، فأمسك بيده حتى إذا انتبه ، قال :

ـ هل أصبنا أم أخطأنا ؟

ـ قال : نعم بلى ـ وكانت هذه لازمته ـ نعم بلى ، الإنسان يخطىء ويصيب ، الإنسان يخطئ ويصيب .

وترك الرجل مصعوقاً من الدهشة ، ومضى . . .

***

أما إباؤه ، وعزته فى نفسه ، فلم يكن بعدهما زيادة لمستزيد .

نزح إلى مصر ، لما ضاقت الشام وحكامها بدعوته وأخذ يبيع من كتبه ، ومن ذخائر المخطوطات التى أفنى حياته فى اقتنائها ، وكان يأبى الثمن الغالى من مكتبة المتحف البريطانى ، وأمثالها من المؤسسات الأجنبية ، أو من أفراد الناس الذين يشترون الكتب للتجارة ، ويبيع بنصفه لدار الكتب المصرية ،

ليبقى الكتاب فى أيدى العرب ، ولا يخرج منها إلى أيدى الإفرنج .

فلما كادت تنفد كتبه ، سأل أحمد تيمور باشا الشيخ على يوسف أن يكلم الخديو (وذلك سنة 1913) فى منحه مرتباً دائماً أسوة بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء ، ونجحت الوساطة ، ومنح الراتب ، فلما خبر به غضب أشد الغضب ، وقال للشيخ على :

ـ كأنى بك قلت للخديوى : إن الشيخ طاهر أثنى عليك . نعم إنى أثنيت عليه لتأييده مشروع زكى باشا فى خدمة الكتب العربية ، ولكن ما الذى يضمن لك ، ألا يأتى الخديوى بضد هذا العمل الطيب يوماً فأذمه ؟ فلماذا تسود وجهك بسببى ؟ ومن أذن لك أن تدخل نفسك فى خصوصيات أمرى ، اذهب فأبطل ما سعيت بإتمامه . . .

ورجع يعيش عيش الكفاف والتقتير بأثمان ما بقى من كتبه .

فكان الشيخ على يوسف يقول بعد ذلك :

ـ كنت أظن أن هذه الطبقة قد انقرضت ، فلما رأيت الشيخ طاهراً علمت أنه لا يزال على وجه الأرض بقية منها .

***

وبعد فإنى ما رأيت الشيخ ، ولكنى رأيت آثاره الخيرة فى كل مكان ، والثناء عليه وذكر مناقبه على كل لسان .

كان من المؤلفين المكثرين ، إن عد المؤلفون المكثرون ، وكان من أئمة المربين إن ذكر المربون ، وكان من رؤوس المصلحين ، ومن العلماء العاملين ، وكان من الأركان الكبار فى هذه النهضة التى نأوى اليوم إليها ، ونتفيأ ظلالها ، وننعم بخيراتها .

رحمه الله ، وطيب ذكراه .

الشيخ بدر الدين الحسنى

لقد فتحت عينى على الدنيا ، وأنا أسمع الناس فى دمشق ، العالم منهم والجاهل ، يصفونه بأنه شيخ الشام ، وأنه المرجع فى كل أمر : فى الخاص والعام ، إن قال وقف العلماء عند قوله ، وإن أمر لم يخالف أحد عن أمره ، يجمعون على تقديمه وتعظيمه ، يرون طاعته من طاعة الله ، لأنه يبين للناس حكم الله ، ويعلمهم شريعة الله ، ولئن كان الشيخ طاهر الجزائرى رجل الإصلاح ، فهذا رجل العلم .

رجل عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم ، ما جرى فيها بغير العلم لسانه إلا أن تكون كلمة لابد منها ، يوجز فيها العبارة ، ويستعين على إفهامها بالإشارة ، ثم يعود إلى درسه وكتابه ، ما ترك الدرس قط ولا يوم وفاته ، وما تركه إلا ساعة احتضاره ، الرجل الذى لبث ثمانين سنة ، ما مس جنبه الأرض وما اضطجع إلا فى مرض الموت ، ما مرض قبل ذلك قط ، وما نام كما ينام الناس ، بل كان يجلس فى الليل ليقرأ ، فإذا غلبه النعاس اتكأ برأسه على وسائد أعدت له فأغفى ساعتين أو ثلاثاً من الليل متقطعات ومن النهار ساعة ، الرجل الذى كان يراقب الله والناس عنه غافلون ، ويقرأ العلم ويسبح والناس نائمون . تخلف عن قافلة العلماء العاملين الأولين إبراهيم والحسن وسعيد والسفيانين ليجىء وحده فى آخر الزمان ، وما تنكب عن السنن ولا حاد عن الطريق ، كما تتخلف الزهرة عن النجوم لتكون نجمة الصبح هادية المدلجين ومرشدة الضالين ، وكما تتخلف الزهرة الأخيرة فى الروض لتكون هدية الملوك وتحفة الأبهاء .

كان عجباً فى علمه وإحاطته واستقامة ذاكرته التى لم تلوها الأيام ، وتوقد ذهنه الذى لم تطفئه السنون ، عجباًوالله لا ينقضى به الإعجاب ، كان فهرساً حياً لكل مخطوط ومطبوع من الكتب ، فى كل فن فلا تكاد تسأله المسألة حتى يقول لك:هات الكتاب الفلانى ، وافتح ، فتفتح كيفما جاء معك فيقول : قبل أو بعد ، حتى إذا دنوت أخذ الكتاب فقلب صفحتين أو ثلاثاً فإذا جواب مسألتك كأنما وضعه بيده . كان هذا شأنه أبداً لم تكن هذ نادرة من نوادره وكان ذلك منه فى صعاب المسائل وغرائبها . يقع عليها فى غرائب الكتب قبل أن تقع أنت على الكلمة فى القاموس ، وكان والعلماء فى دمشق متوافرون ، وأهل الاختصاص كثيرون ، يعد الإمام المرجع فى كل فن : فى اللغة وغريبها، وفى الصرف ، وفى النحو ، وفى فقه المذاهب الأربعة المدونة ، والمذاهب التى لم تدون : مذاهب الصحابة والتابعين والأئمة من أمثال الأوزاعى والليث والظاهرى والطبرى ، وفى البلاغة ، وفى الحديث:رواية ودراية ، وفى معرفة الرجال والأسانيد ، وفى الكلام والفلسفة والأخبار ، يقرأ دائماً لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائماً أو فى صلاة أو درس ، أو فى طريقه من المسجد إلى البيت ، ما فارق الكتب قط ، ولا استعان على النظر بنظارة ، وقد مات وهو حديد البصر صحيحه ، ما أحب فى الدنيا غير الكتب ، وأوانى الخزف الصينى ، فكان يشترى الكتاب يسمع به ولو كان مطبوعاً فى أقصى الهند ، ويشترى المخطوط ولو بوزنه ذهباً ، ولا يدع كتاباً حتى يقرأه ، أو يتصفحه تصفح المتثبت كأن عينيه زجاجة فتوغراف ودماغه لوحته ، فلا يرى مسألة إلا ثبتت صورتها فيه إلى الأبد . وكان يقرأ ويقرئ أبداً ما شاء وشاء الطالب ، أقرأ الرياضيات قوماً لما طلبوها منه والفلك والفلسفة كما أقرأ الحديث وكان درسه فى الأموى أعجوبة من رآها ووعاها فقد رأى إحدى عجائب الزمان ، وكان

كمجالس الإملاء الأولى التى كانت الدعائم الكبرى فى صرح تاريخنا العلمى، وإذا كان السيوطى قد قال:إنه آخر من أملى فى اللغة والحديث فقد قال ذلك لأنه لم يدرك الشيخ بدر الدين ، وكم ترك الأول للآخر .

وأعرف من كتب من هذا الدرس عشر مجلدات ضخام وفيه يبدو علم الشيخ وهذه الذاكرة التى لا تمن بمثلها الدنيا مرة كل مائة سنة ، فكان يأخذ حديثاً كيفما جاء ، فيذكر طرقه كلها ، ويعرف بالرواة جميعهم ، ثم يشرحه لغة ونحواً وبلاغة شرح إمام من الأئمة الأولين ، فكل كلمة بشاهدها وكل شاهد بتفسيره ، ثم يذكر تعليقات المحدثين بأسانيدها ومصادرها ، ثم يذكر ما أخذ منه الفقهاء وما اختلفوا فيه ، وأدلة كل منهم ثم يوازن بينها ويرجح راجحها من انتهاء الصلاة إلى أذان العصر ، ما يقف ولا يتلعثم ولا يعيد كلمة ولا يقطع جملة كأنما يقرأ من كتاب مفتوح .

وكان يبدل موضوع الدرس بمناسبات عجيبة إذا رأى ما يدعو إلى تبديله ، وقف مرة على حلقة العلامة الأجل أصولى العصر الشيخ محمد بخيت فأوسع الناس له ودعوه إلى الدخول فدخل كالكاره وقعد متعظماً ، كأنه يترفع عن أن يجلس من أحد مجلس التلميذ ، وكان بعلمه وفضله أهلاً لهذا الترفع فحول الشيخ الدرس حتى جاء على مسألة أصولية وكان الدرس فى أوله وأفاض فى علم الأصول ساعتين وربعاً والشيخ بخيت يلم أطرافه ويضم ثوبه حتى جلس على ركبته وطفق ينظر مشدوهاً فلما انتهى قام إليه كأنه يشير إلى تقبيل يده والشيخ يتملص إذ كان يكره أن تقبل يده ولا يحب ذلك من العامة فكيف من شيخ الإسلام وقال له الشيخ بخيت « ربنا يخليك ما فيش فى الدنيا النهار ده واحد تانى زيك » .

كان علمه عجيباً وكانت سيرته أعجب من علمه ، عاش أكثر من ثمانين

سنة ، وما عاش فى الحقيقة إلا يوماً واحداً أعيد ثلاثين ألف مرة فكان فى ثباته واستقامته مثلاً مفرداً ، كان ينهض من منامه بعد نصف الليل ، وما كان ينام فى الحقيقة وإنما كان يجلس يقرأ الليل كله كتلميذ ليلة الامتحان ، فإذا غلبه النعاس أمال رأسه على الوسادة فأغفل ثم أفاق والمصباح إلى جانبه وأمامه مائدة عليها أطباق صغار فيها الفرانى [1] والمعجنات والفواكه ينال منها ، فإذا نهض توضأ من البركة فى داره الكبيرة التى بقيت إلى الآن فارغة ، وكان فى شبابه يكسر بيده الجليد ويتوضأ فى الشتاء ، فلما شاخ كان يعد له الإبريق على المدفأة ليجده إذا احتاج إليه ساخناً .

ثم يقوم فيصلى ما شاء الله أن يصلى ، فإذا كان السحر خرج فوجد بعض مريديه وتلاميذه ينتظرونه أمام الباب تحت الشاذروان (الرواق) لا يثنيهم مطر ولا برد حتى يخرج فيمشوا معه إلى الأموى فيصلى فيه مع الجماعة ويمضى إلى دار الحديث إلى غرفة له فيها صغيرة مبسوطة بالبسط ، ما فيها إلا جلد و(طراحة) ومخدات من قش ، ولطالما دخل هذه الغرفة من ناس : من رجال الدين ورجال الأديان ، وطالما دخلها علماء أعلام وأمراء وحكام كانت ترتج الأرض من تحتهم وترتجف القلوب من خشيتهم ، فإذا دخلوها نزعوا أحذيتهم وجلسوا على ركبهم ، وتخشعوا وصمتوا ، جمال باشا ، (وما أدراكم ما جمال باشا) وولاة من قبله ومفوضون سامون من بعده ، فكان جلال هذه الغرفة يجعل الجبار طفلاً ، والعالم العلامة تلميذاً ، والكبير عند نفسه وعند الناس صغيراً أمام هيبة العلم والتقى والدين .

فيبقى فيها فى إقراء وذكر وصلاة حتى يقترب الغروب فيمشى إلى داره ليفطر ؛ لأنه كان يصوم الدهر وفاء بنذر نذره ما رآه أحد إلا بين داره ومدرسته

---

(1) الفرانى جمع فرنية وهى (الكاتو) .

والجامع الأموى إلا إذا أخذوه فى نزهة وذلك شىء كالنادر .

وهو ابن نفسه ، شيخه كتابه ، ما عرف عنه أن قرأ إلا على الشيخ أبى الخير الخطيب أخذ عنه مبادئ العلوم ثم اشتغل وحده وأقبل على المطالعة ، ما ترك النظر فى الكتب ساعة من نهار عمره كله ، وما ترك الإقراء قط . ولقد كان موعد درس من دروسه قبل وفاته بساعتين ، فلما رأى الطلبة ما به هموا بالرجوع فأشار لهم أن يقرؤوا وهو يستمع .

ولقد كان يعيش فى سعة من دنياه ولكن الدنيا كانت فى يده لا فى قلبه ، وكان اعتماده على الله لا على المال فلا يحرص عليه حتى يناله من غير حله ولا يجزع إن ذهب بغير علمه ، ولا يتسع المجال إلا لشاهد واحد هو أنه اشترى مرة مجموعة من الزبادى الصينية النادرة بنحو مائة ليرة ذهبية ، وقد قلت لكم:إنه لم يكن له رغبة إلا فى شيئين يشتريهما ولو بأغلى الأثمان : الكتب والصينى ووضعها فى دهليز مغلق بجانب الغرفة يكون فيه دائماً أكياس من السكر والرز يعطى منها فقراء الطلبة فقال للشيخ صادق أبى قورة ـ رحمة الله على الإثنين ـ: يابا ادخل . . . أى أن يأخذ شيئاً من السكر والرز وكان قليل الكلام إن كفت الإشارة ترك العبارة وإن أجزأت الكلمة قطع الجملة فدخل يأخذ وأمال الكيس فرماه على الصينى الذى شرى بمائة ليرة ذهبية فطحنه طحنًا وتراكض الطلبة فكفهم الشيخ وقال:لا يابا (وكانت تلك كلمته) .

وراح يطيب خاطر الشيخ صادق لئلا يخجل . ومد يده بشىء من المال فدفعه إليه .

أما دينه وعبادته وصلته بالله فهاكم عليها شاهداً آخر . . شاهداً واحداً أيضاً حدثنى السيد كامل باش إمام ـ رحمه الله ـ قال : لما مدت سكة الحديد

الحجـازية ـ أعـادها الله ـ وسار أول قطار كـان فيـه الـشيخ ، فـوقف الـقطار فى البرية فى غير محطة لشىء طرأ على المحرك فنزل الركاب يصلون المغرب .

وإنهم لفى الصلاة ، وإذا بالقطار يسير فتركوا صلاتهم ولحقوه يتعلقون به وبقى الشيخ لم ينتبهوا له حتى بعد القطار فتفقدوه فلما لم يجدوه أرجعوا القطار فإذا هو لا يزال فى مصلاه فى الصحراء الواسعة حيث لا ماء ولا عمران ولا إنس ولا جان لم يشعر بسير القطار .

وكان من أعجب أمره أن لم يغتب أحداً قط ولم تجر فى مجلسه غيبة وهذه مسأله قد يستسهلها من لم يجربها فجربوا أن تدعوا الغيبة وسماعها يوماً واحداً فقط ثم قولوا : يرحم الله الشيخ ، الذى كان فى عمله وفى سيرته بقية السلف ونادرة العصر والذى سيمر وقت طويل قبل أن ترى مثله ديار الشام . . لا ، بل بلاد الإسلام

***

الشيخ على الدقر

الرجل الذى هز دمشق ، من أربعين سنة هزة لم تعرف مثلها من مائتى سنة ، وصرخ فى أرجائها صرخة الإيمان ، فتجاوبت أصداؤها فى أقطار الشام ، واستجاب لها الناس ، يعودون إلى دين الله أفواجاً ، يبتدرون المساجد ويستبقون إلى حلقاتها ، وأعانه عليها زميله وصديقه الشيخ هاشم الخطيب ، وملأ ذكرهما البلد و شغل أهلها ، ودخل أثرهما كل دار ، وكان الاختلاف فيهما فى كل مجلس ، وصار حديث الناس ، فمن لم يكن معهما متحمساً لهما كان عليهما متحمساً فى عدائهما .

. . . وإذا كان من القراء من لم يسمع باسم الشيخ على الدقر قبل الآن فإن اسمه عندنا على كل لسان ـ وهو فى الشام علم الأعلام ـ وإذا كان من المصلحين من طارت (شهرتهم) فى الآفاق . فإن الشيخ على ممن عرفوا فى بلادهم ، وجهلوا فيما وراءها . وهوتلميذ الشيخ بدر الدين . ما طالت قراءته عليه ، ولا بلغ بين تلاميذه مبلغ الشيخ محمود العطار ، فضلاً عن أن يبلغ فى العلم منزلة الشيخ البدر أو يدانيه .

ولكنه أعطى من التوفيق فى العمل ، والعمق فى الأثر ، ما لم يعط مثله الشيخ بدر الدين ، ولا غيره من مشايخ الشام فى تلك الأيام .

لقد أمضى شطراً من عمره ، لا يدرى به أحد ، وشطراً لا يجهله فيه فى دمشق أحد ، ولقد سمعنا به أول مرة ، سنة 1344 ، ونحن طلاب فى المدارس الثانوية . وكان من أوائل (المواد) فى منهج دعوته ترك المدارس الحكومية ،

والإقبال على طلب العلم الدينى . فكنا نذهب إليه لنسمع هذه الدعوة العجيبة ، ولا نستطيع أن نجهر بإنكارها ، خوفاً من مريدى الشيخ المؤمنين بها ، الذين يبطشون بخصومها ، ثم نال منا كلام الشيخ ، وأثرت فينا مواعظه فجعلنا نذهب لنستمع إليها ، نخرج من المدرسة ، فنكتب دروسنا على عجل ، ونسأل أين درس الشيخ اليوم ؟ فإذا عرفنا مكانه ، أسرعنا إليه .

نقعد فى الحلقة قبل موعد الدرس بساعة نخشى من كثرة الازدحام ألا نجد إن تأخرنا مكاناً ؛ لأن (الشيخ على) كان يدرس فى مسجد صغير ، عند باب الجابية فى دمشق ، فكان يمتلئ كله ، ويقف الناس على أبوابه وأمام نوافذه ، ولم يكن فى الدرس علم غزير ، ولكن كان فيه شىء لا يجده سامعه عند ذوى العلم الغزير ، فيه الموعظة التى تخرج من القلب لتقع فى القلب فتحرك فيه خامد الشعور ، وتثير فيه كامن الإيمان ، فيه ما يملأ بالدموع الأماقى ، ويبكى من الخشوع العيون ، فيه ما يقيم ويقعد ، ويلين أفئدة كانت أشد من الصخر ، ويستخلص من أيدى الشيطان نفوساً كان قد تملكها وتحكم فيها الشيطان ، فيه ما يشعر حاضره أنه انتقل من هذه الدنيا ، إلى مجالس الجنان .

فيه ما لا أستطيع أن أعرف القارئين به ؛ لأنه شىء يرى ولا يوصف ، ويذاق ولا يعرف وكان الشيخ يسأل : من أين يأتى بهذا الكلام الذى يلقيه على الناس ، ومن أى كتاب ينقله ؟ فما كان يجيب ولو أجاب لقال : بأنه ينقله من الصلاة فى ظلمات الليالى ، والمناجاة فى هدآت الأسحار ، ومن حلاوة الإيمان التى يذوقها فى ساعات الخلوة بالله ، والتوجه إليه ، والقيام بين يديه ، من هناك يملأ هذه (البطارية) التى يعيش أهل الدرس ساعة على ضوئها .

ولم يكن فى سيرة الشيخ على قبل تلك السنة حادث يستحق التسجيل ، فلقد كان أبوه من سراة التجار ، وكان له أخوة أكبر منه يشاركون أباهم أعماله ،

ويعاونونه فى تجارته ، على حين كان يتبع هو العلماء ويحضر الدروس ويقرأ على الطريقة الأزهرية التى لم نكن نعرف طريقة لطلب العلم غيرها ، وهى أن يأخذ الشيخ نسخة من الكتاب ، ويأخذ كل تلميذ نسخة ، فيقرأ لهم ويشرح ، أو يقرؤون عليه ويفسر ، لا عمل له إلا بيان قصد المصنف ـ رحمه الله ـ وتوضيح عبارته ، أما تلخيص الموضوع ، والكلام فيه ، والإلمام بجوانبه ، وأمثال هذا مما يهتم به طالب العلم اليوم ، فلم يكن من همهم ، فإذا ختموا الكتاب شرعوا بغيره ، فلا يدرس طالب العلم علوماً ولكن يقرأ كتباً .

كانت هذه طريقة العلماء جميعاً ، وهى التى سلكها الشيخ على ، ولم يظهر عليه نبوغ فى علم من العلوم ، يسترعى الانتباه ، ولكنه ظهرت عليه بوادر الصلاة ، وحضور القلب ، وإنه إن وعظ لم يأت بألفاظ حلوة ، تقرع الأذن ثم لا تجاوزها ، بل بمعان تصل إلى القلوب ، قبل أن تصل الألفاظ إلى الآذان .

وانتهى من طلب العلم ، واكتفى بما حصل منه ، وقعد يدرس فى المسجد الصغير ، عند باب الجابية فى دمشق (المعروف بجامع السادات) ويحضر درسه نفر ، كانوا لقلتهم تتسع لهم سدة المسجد ، فكان الشيخ يقرأ فيها لا ينزل منها .

وكان أبوه يحتاج إليه ، لمعاونته فى أعماله الكثيرة ، وتجارته الواسعة ، وكان مقياس صلاح الرجال عنده : القدرة على الأعمال ، وعلى اكتساب المال، فلما رأى ما انتهى إليه ، تألم وشكاه إلى صديق له ، بقّال أمام المسجد، وقال له : ما أدرى والله من أين يعيش ، وكيف تكون حاله بعدى؟!

واستمر الشيخ علىّ فى درسه ، وكانت أيام الانتداب فى الشام، وقد بدأ الفساد يدخل إلى البلاد ، والشيخ لا يدرى بشىء ، لأنه لا يعرف من دنياه إلا

داره ومسجده وكتابه وصلاته . وجاءه من قص عليه خبر ما جد فى البلد من التكشف ، وكان كل الذى جد أن امرأة واحدة ، معاونة مديرة دار المعلمات سارت فى الطريق مكشوفة الوجه .

وخبر المدارس التى تعلم علوماً ما سمع بها الشيخ وما عرفها ، من علوم الكفار ، وأن مدرسيها من الذين تعلموا فى بلاد الإفرنج أو على أيدى الإفرنج.

فعظم عليه الأمر ، وفكر ليالى طوالاً . . ماذا يعمل ؟

وظهر أثر هذا التفكير الطويل فى دروسه ، فلم يعد يقتصر على شرح عبارة الكتاب بل صار يتكلم من عنده ، يرقق القلوب ويذكر بالآخرة،ويدعو إلى الإصلاح ، فكثر المستمعون حتى ضاقت عنهم السدة ، فنزل إلى أرض المسجد ، ثم ضاق عنهم المسجد ، فصار يدرس فى (جامع السنانية) الكبير .

وكان لصفاء قلبه يقول : نحن نحن ، ما تبدل فينا شىء ، فلماذا هذا الإقبال ؟

وتسابق الناس إليه ، وازدحموا عليه كما ازدحموا على زميله فى الدعوة الشيخ هاشم رشيد الخطيب ، وأشهد لقد سمعته مراراً ، فوجدت أن عنده ما يدفع إلى هذا الازدحام ، ولم يكن فى دروسه ـ كما قلت ـ علم غزير ولكن كان فيها من روعة التذكير ، وشدة التأثير ، ما ليس له نظير .

كان يخشع هو فيخشع السامعون ، ويبكى فيبكون ، وربما قال كلاماً (عاديًا) تسمعه كل يوم ، فتحس إذا سمعته منه كأنك لم تسمعه من قبل .

وعظم الإقبال عليه فما تبدل فيه شىء ، وما اغتر ولا تعاظم ، وكان من أجمل سلائقه أنه لا يمد يده إلى أحد ، وأنه كان يعطى ولا يأخذ ، لم تستهوه الدنيا ولم يفتنه المال ، ولم تغرره المناصب ، وبقى على ما كان عليه .

وكان غنياً من جهتين : غنيًا بماله الذى ورثه عن أبيه ، وغنياً بقلبه ، وهذا

هو الغني . ورب رجل يملك من الأموال ما لا تأكله النيران ، وقلبه قلب فقير ، وفقير لا يملك قوت يومه ، وبين جنبيه نفس ملك .

وكان أقرب الناس إليه : التجار وأبناء القرى ، لا سيما قرى حوران ، وحوران قطر عظيم فى جنوبى الشام ، على حدود البلقاء (الأردن) كانت فيه قديماً مملكة الغساسنة . ولكنه كان يعيش يومئذ فى (جاهلية) مزدوجة ، ففيه الجهل الذى هو ضد العلم ، والجهل الذى هو ضد الحلم ، وكان كثير من أهله يعيشون عيشة من لم يدر أن رسولا بعث ، وقرآنا نزل .

فعمد الشيخ إلى كل بلدة ، أو قرية ، يأخذ من أولادها من يعلمه ويفقهه فى الدين فيلازم الشيخ سنوات ، يعود بعدها إلى بلده معلماً ومرشداً ، فأحيا الله به تلك الديار ، وردها إلى شرعة الإسلام .

ولم تمر على دعوته شهور حتى تجاوبت أصداؤها فى أقطار الشام كلها ، وأحس بها القاصى والدانى ، واعترف بقوتها العدو والصديق ، ولكنها عنيت بالمظهر أكثر من عنايتها بالجوهر ، وقامت على إصلاح (الخارج) قبل إصلاح (الداخل) ، فتسابق الرجال إلى لوث العمائم على الطرابيش ، حتى لم يبق فى البلد (شاش) ، وأسرع النساء إلى اتخاذ الإزار الأبيض ، بدل الملاءات السود ، حتى فقد من السوق القماش ، واستراح الحلاقون من العمل فى وجوه الرجال ، فعطلت الشفرات وعملت الأمشاط .

ثم مل العامة من هذا كله ، وفترت حماستهم ، وذهبت حدة هذه الدعوة من نفوسهم ، وزال بريقها فى عيونهم ، فانصرفوا عنها ، وكان أثرها فيهم كحريق القش اليابس ، يلتهب فى دقيقة ، لينطفئ بعد ساعة ، ولكن النار التى أوقدها الشيخ لم تنطفئ ، ولئن خبت عند العامة ، فلم يبق لها لهيب ظاهر ، فلقد بقيت فى الخاصة خفية ولكنها دائمة ، كنار الفحم الحجرى ، بطىء اشتعالها ، بطىء زوالها .

ذلك أن الشيخ لما رأى إقبال أولاد القرى عليه ، من حوران ومن البلقاء ورآهم غرباء فى دمشق ، لا نادى لهم فيها ، خاف عليهم من الفساد ، وأشفق عليهم من التعب ، وكان فى دمشق غرف كثيرة فى المساجد موقوفة على طلبة العلم ، قد تسلط عليها ناس ليسوا من أهل العلم ، ولا من طلابه ، يتخذونها مجالس للتسلية ، أو بيوتاً للسكن ، أو مخازن لعروض التجارة . فاستخلص منها ما استطاع استخلاصه فأسكن فيه هؤلاء الطلاب . ثم رأى أن هذا كله لا يكفي ، وأن طلبة العلم فى حاجة إلى مسكن قائم ومورد دائم ، فألف من هؤلاء التجار الذين يحفون به جمعية ، سماها (الجمعية الغراء لتعليم أولاد الفقراء) وهو اسم غريب ، ولكن العبرة بالمسمى لا بالاسم ، وعملت هذه الجمعية عملاً عظيماً ، ففتحت مدارس للصغار ، ومعهداً علمياً للكبار .

* * *

وكان فى دمشق مدرسة كبيرة بناها نائب الشام على عهد المماليك ، الأمير تنكز [1] وكانت فى الأصل فى ظاهر دمشق، فصارت اليوم لب البلد .

وكانت الدولة العثمانية ، قد جعلت منها مدرسة حربية ، ثم ورثها الفرنسيون لما اغتصبوا الحكم فى الشام ، فاستعان الشيخ على بالشيخ بدر الدين على جعل المعهد فيها .

وكان الشيخ بدر الدين ـ كما قلت لكم ـ شيخ دمشق ، أمره فيها الأمر ، لا يخرج عليه حاكم أو محكوم ، وكان لا يمشى إلا إلى مسجده ومدرسته ، فلما استعان به الشيخ على ، قال : امش يابا .

وكانت كلمته لكل من يخاطبه من كبير أو صغير : (يابا) ، فمشى معه

(1) المؤرخون يرادفون بين اسم جنكيز وتنكز ، فلعل هذا من ذاك .

الشيخ على وتلاميذه من ورائه . . حتى دخل الشيخ المدرسة فأسرع إليه مديرها وكان ضابطاً فرنسياً كبيراً ، يستقبله ، ويكرمه ، ويسأله عما يأمر به ، فقال له (والترجمان يترجم) :

- يابا ، هذه مدرسة دينية ، وفيها مسجد وأنتم ما لكم فيها حق ، فأعطوها للشيخ على يجعلها معهداً علمياً .

فقال له الضابط :

- كما تأمر ، لكنا نحتاج إلى مهلة حتى نفتش عن محل ننتقل إليه ، وننقل إليه متاعنا .

قال الشيخ :

- طيب يابا .

ولم يمر شهر حتى استلمت الجمعية الغراء المدرسة وكانت واسعة الرقعة و تصل بين شارع النصر وميدان المرجة ، ولكنها مخربة ، قديمة البناء ، فشرعت الجمعية بتجديد بنائها ، وجمعت لذلك الأموال الكثيرة قدم جلها أعضاء الجمعية ، واشتعلت فى ذلك سنينًا ، حتى أعيد بناء المدرسة كلها ورجعت كالعروس بعد أن صارت كالعجوز .

وأنا أحب - والكلام عن الشيخ على وشيخه البدر - أن أعرض للقراء صفحة مطوية من تاريخ الشيخ بدر الدين ، هى رحلته فى سنة 1924 م مع الشيخ على الدقر والشيخ هاشم الخطيب ، من دمشق إلى دوما إلى النبك إلى حمص إلى حماة إلى حلب ، هذه الرحلة التى طافوا فيها بلاد الشام (سورية) كلها ، وكانوا كلما وصلوا بلدة أو قرية ، خرج أهلها على بكرة أبيهم - كما كان يقول أجدادنا - لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب ، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد ، فتكلموا فيه ووعظوا وحمسوا ، وأثاروا العزة الإسلامية فى النفوس ،

وذكروا بالمجد الغابر ، وحثوا على الجهاد لإعلاء كلمة الله ، فكانت هذه الرحلة هى العامل الأول والمباشر لقيام الثورة السورية ، التى امتدت سنتين ، وأذهلت ببطولتها أهل الأرض .

والثورة كما نعرف نحن وقد رأيناها رأى العين ، ويعرف كل شامى أدرك تلك الأيام ، قد قامت فى الغوطة ، قبل أن تقوم فى الجبل (جبل الدروز) ، وقد بدأت بخروج طلبة العلم ، بدافع الجهاد ، ومن أوائل من خرج إليها شيخ من تلاميذ الشيخ هاشم ، لا يزال حياً ، فاسألوه فعنده الخبر اليقين هو الشيخ محمد إسماعيل الخطيب ، ومن هؤلاء الذين خرجوا وعملوا العجائب ، البطل الشهيد حسن الخراط (وقد كتبت عنه فصولاً طوالاً فى مجلة الناقد التى كانت تصدر فى دمشق سنة 1930 م) وكان حارساً ليلياً ، أمياً ، قاد عصابات المجاهدين ، ووقف بهم فى وجه فرنسا ، يوم كانت فرنسا أقوى دولة برية فى أعقاب الحرب الأولى ، وغلبها واحتل دمشق ثلاثة أيام .

وكانت معارك (جسرتورا) تهتز بأخبارها أسلاك البرق ، وأمواج (اللاسلكى) وتتناقلها أكبر جرائد العالم ، فهل تعرفون ما جسر تورا ؟

جسر قديم ، على نهر عرضه خمسة أمتار ، كانت تقف وراءه المئات من الثوار تحتمى بحيطان البساتين ، وبشجر الزيتون والمشمش ، وترد بالبنادق العثمانية العتيقة حملة فيها عشرة آلاف ، ومعها المصفحات ، ويقودها جنرال!

وليس الكلام عن الثورة . ولكن قلت ما قلت ، لأبين أثر الشيخ بدر الدين وتلميذيه على وهاشم فى قيامها .

* * *

وبعد فإن (حركة) الشيخ على لم تقف ، ولا تزال بعد موته قريبًا مما كانت فى أواخر حياته فمعهده لا يزال قائماً . ومن طلابه الذين ينهجون نهجه ،

ويتبعون أثره اثنان من علماء الشام : الشيخ حسن حبنكة ، وله معهد ضخم يبث فيه العلم وينشر روح الإسلام ، والشيخ عبد الكريم الرفاعي وعنده مئات ومئات من الطلاب ، وهو قائد من أفضل قواد الجبهات الإسلامية إخلاصاً ، وعلماً ، وعملاً، وعفة يد ، ونزاهة نفس ، وحسن خلق .

وكان سر نجاح الشيخ علي : صلاحه ، وعبادته ، وورعه ، وأنه موقن بما يدعو إليه ، يقيم الحق الذي يراه على نفسه وأهله ، قبل أن يقيمه على الغريب ، وكان من منهجه أنه إذا جاء رمضان ، وقف دروس العلم وانصرف إلى العبادة وتلاوة القرآن وذكر الله بالقلب وباللسان ، معتكفًا هو وتلاميذه في المسجد ، تاركين الدنيا وراء بابه ، قلوبهم مع الله ، وألسنتهم رطبة بذكر الله ، يعيشون في جنة من جنان الخلد ، ولكنها في الدنيا ، فيكون لهم من رمضان مدد روحي وذخر يدخرونه زاداً للسنة كلها .

وكان الشيخ علي (كالشيخ بدر الدين) جميل الصورة ، ناصع البياض ، أزرق العينين ، حلو التقاسيم ، له لحية بيضاء كبيرة تزيده جمالاً ، وكان كلاهما يتخذ العمامة التجارية من القماش الهندي المطرز ، لا العمامة البيضاء عمامة العلماء .

قلت : إن والد الشيخ شكاه مرة إلى صديق له بقال عند باب الجابية . . وقال له : ما أدري كيف يعيش هذا الولد وكيف يصير إذا كبر ؟! .

وعمر هذا البقال حتى بلغ الشيخ ذروة مجده ، وازدحمت عليه الألوف ، وأقبلت عليه القلوب ، وكان يوماً في دكانه ، فرأى الشيخ خارجاً من المسجد ، ووراءه الحشود من أرباب العمائم ، فذكر ما قاله الأب ، واستغرق في الذكرى ، حتى غاب عن حاضره ، وعرته حال روحية غريبة فنزل من الدكان واتجه إلى مقبرة (الباب الصغير) وصرخ بأعلى صوته :

- يا أبا صادق ، يا أبا صادق ، ارفع رأسك فانظر ابنك عَلِي كيف صار ! .

الشيخ محمود ياسين

في هذا الحيّ المعتزل الساكن الذي كان آخر البلد ، ما بعده إلا المقبرة ، فنبعت من ورائه اليوم شوارع فساح وساحات ، وقصور عامرات ، وكان آخر دمشق القديمة ، فصار أول دمشق الجديدة ، ولكنه بقي على شرقيته وشاميته ، لم يصل إليه الجديد ، ولم يألف أهله التقليد ، والذي كان أبداً مسكن الصالحين ، لم يخل من عالم زاهد ، وفقيه معلم من يوم كان القرية التي خرج منها الأوزاعي إلى أن شيد فيها الجامع المأنوس الذي أسس من يوم أسس على التقوى ، وأقيم على الهدى ، وبني على أنقاض الخان الذي كان ماخوراً ، فجمع الله به بين فضيلتين : باطل يرفع ، وحق يوضع ، وذهبت الغانيات الفاتنات ، وجاء العابدون المتبتلون ، فمن ذلك سمي (جامع التوبة) .

في حارة ضيقة إذا مد الرجل يديه بلغتا جداريها ، في دار فيها صغيرة ، صحنها بركة حولها مجاز ، وبناؤها غرفتان فوق درج كان يقيم الشيخ الزاهد حقاً الشيخ (محمود ياسين الحمامي) رحمه الله رحمة واسعة .

وفي تلك الساحة باب ، إن أنت جزته دخلت إلى بستان فسيح ، وروض أنيق ، فيه ما اشتهيت من ثمر ، وما رجوت من زهر ، جمعت فيه فواكه الشتاء والصيف ، وأزهار السهل والجبل ، وجنى اليوم والأمس من كل غض جديد وقديم مرت عليه قرون وما فقد جدته ولا أضاع غضارته ، وفيه اللذة وفيه الربح وفيه المتعة وفيه النفع ، وفيه نهر إن شئت عللت منه وإن شئت نهلت ، وإن شئت ملأت ، وإن شئت سبحت ، وفيه قصر مسحور تشرف منه

على الدنيا كلها : غابرها وحاضرها ، تستمع منه كل حديث ولو قضى محدثوه من عصور ، وتجالس فيه كل عالم وأديب ولو مات من دهور ، ثم إن أردت أقبلوا عليك ، وإن أشرت سكتوا عنك ، لا يغضبون ولا يعتبون ، وإن استعدت أعادوا عليك .

والمكان بعد ـ يا سادة ـ ذرعه خمس فى خمس ، ولكنه حوى هذا كله وأكثر منه . هذه هى مكتبة الشيخ ، وهذى هى الغرفة التى قلما كنت أجد مكاناً هو أحلى فى عينى وأمتع لقلبى منها ، وقلما أجد ذكريات بقعة أعز على وأطهر وأغلى من ذكرياتها ، فكنت كلما جئتها شعرت بأنس الروح ولذة الاطمئنان .

وإذا كانت دمشق قد بكت فى صاحب هذه المكتبة يوم توفى ، رجل الصلاح والإصلاح ، فقد بكيت فيه مع العلم العمل ، ومع الزهد الرضا ، وكانت حياته فى نظرى درساً لمن أراد أن يتعلم كيف يكون المرء سعيداً وكيف يجمع الدنيا والآخرة ، واللذة والشرف ، وكيف يثق أن السعادة ليست بالمال الذى يتقاتل الناس عليه ، ولا الجاه الذى يسعون إليه ، ولا بالقصور الشم والمنازل العوالى ، فقد زرت القصور وجالست الملوك وصاحبت الأغنياء ، ولازمت الرؤساء ، فلم أر السعادة على أتمها وأكملها إلا فى أمثال هذه الدار التى لا تتجاوز غرفة مفروشة بالسجاد النظيف على الخشب ، على جوانبها مقاعد ، والجدران كلها كتب ، يخلع الداخل إليها نعله ثم يجلس على الأرض ، فحيثما جلست دفء ونظافة تشعرك نظافة الروح ودفء الحب ، يستقبلك فيها هذا الشيخ بوجه تقرأ فى أساريره الطيب والإخلاص ، وترى فى عينيه الحب والطهر ، يسلم عليك ، يرحب بك لا ترحيب المتكلف وسلام المنافق ، وترى منه الود الصادق ، والرأى المحكم والنكتة والتواضع ، وتراه حائراً فيما يكرمك به .

يلزمك محبته ، ويشعرك إجلاله ، لا يتصنع لذلك ولا يريده ، ولا يتطلبه بلفظ ولا فكر ، ولكن منظره ومخبره يوحيان إليك بذلك كله .

كان سعيداً لأنه كان مؤمنا بالله ، يعلم بأن كل ما جاءه فمنه ، وكل ما ذهب منه فبحكمه . كان راضياً أبداً إن أعطى أو منع ؛ لأنه كان راضياً عن الله ، ويوقن بأن الرزق مقسوم وأن الله هو المحيى لا المال ، فكان المال أهون شيء عليه ، فإن جاءه أكل منه وأطعم ، وإن بعد عنه صبر وعف .

وكان ينعم بمتعة الطرفة على أحسن ما نعم بها بشر ، فكان يعيش فى قفر الحياة فى واحة مخضرة ظليلة ، وروضة ممرعة أنيقة .

وكان واسطة عقد جماعة من كرام الناس أحبهم وأحبوه ، ودعاهم إلى الخير فاتبعوه ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فأطاعوه ؛ فاتحدوا قلباً وقالباً ، فهم يقرؤون معاً ، ويصلون معاً ، ويذهبون ويجيئون ، ويجدون ويهزلون ، كل دار لأحدهم دار لهم كلهم ، وكل ماله مالهم ، يجيء الشيخ محتاج منهم فيعطيه كيس ماله ليأخذ منه ما يريد ، ولكنه يضيق فلا يأخذ منهم، خلة فيه رحمه الله .

تآخت أسرهم ، وتوادت نساؤهم ، حتى أن أربعة منهم ، أحدهم الشيخ ، رأوا حاجة الناس إلى الاصطياف ، ورأوا فساد المصايف فاختاروا بقعة فى (الهامة) من فوقها الجبل الأشجر ، ومن تحتها ومن حولها الخمائل المتتالية ، والنهر يجرى أسفل منها زاخراً فياضاً ، فبنوا فيها داراً ، مشتركة فيهم مهايأة ، قسموا بينهم أيام الصيف وأيام الشتاء ، وليالى القمر وليالى الظلام ، فكانت شيوعية إسلامية .

وكان رجل دين حقاً ، لست أعنى أنه من هؤلاء الواعظين المحترفين الذين

يعظون من ألسنتهم لا من قلوبهم ، قد لبسوا ثياب الصلاح على المنبر ، كما يلبس الممثل ثياب الملك على المسرح ، فإذا تم الوعظ وانقضى التمثيل، نضيت تلك الثياب ، فعاد الملك صعلوكاً والواعظ طماعاً خبيثاً ، ولا الذين يتخذون التُقى دعوى يكسبون بها الدنيا ، والنسك شبكة يصطادون بها المال ، يزهدون الناس ولا يزهدون ، ويعظون ولا يتعظون ، ولا الأتقياء فى المجان فقط يصلون مائة ركعة ، ويسبحون ألف تسبيحة ، ويسكنون المساجد ، يعانقون المصاحف ، ثم لا تجود أكفهم بقرش إلا إن جاد بالمال الحديد الأصم ، ولا تلين قلوبهم لعطاء إلا إن لان جلمد الصخر ، ولا من الذين طلقوا الدنيا ثلاثاً ، وحرموا على أنفسهم طيباتها ، وعافوا لذيذ المأكل وناعم الملبس ، بل أعنى التقي حقاً الذى يتبع الشرع ويقف عند أمره ونهيه ، ويجد حلاوة الإيمان ولذة العبادة ، وما رآه أحد يصلى إلا اشتهى الصلاة ، كما يشتهى المرء أكلة طيبة رأى حسناء تأكلها من كثرة خشوعه وظهور إخلاصة وطيب صلاته .

لا يجلس متجهم الوجه يعظ أبداً ، ويتلو الأحاديث ولا يتظاهر بخشونة الثوب وتطويل السبحة وتعريض الجبة كما يصنع هؤلاء الذين يدعون الولاية دعوى بلا دليل ، فإذا جاءت الدنيا وعرضت المطامع نسوا دعواهم ، بل كان زاهداً حقاً ، وهو يأكل ويشرب ، ويستمتع ويؤم البساتين ، ولا يأكل محرماً ، وكانت زهادته فى المال عرضت له الفرص ليكون موظفاً كبيراً فأبى ، وآثر تعليم الصبيان فى مدرسة صغيرة ، فلما جاء الفرنسيون جعلوا للمدارس الخاصة معونة على أن يفتشوها فأبى ، وكان وحده المعارض فأُغلقتْ مدرسته ، ولم يكن يملك شيئاً فعرض عليه القضاء فأبى إلا أن يكون كاتباً فى المحكمة الشرعية ، ثم عين مدرساً ، وكل المدرسين يأخذون المال بلا عمل، فحمل كتابه وذهب فدرس، وكان ينفق بعد هذا إنفاق من لا يخشى الفقر ولا يرجو إلا الله

ولا يعتمد إلا عليه،يجيئه الأصحاب فيأخذون من ماله ومن علمه ، يقرؤون عليه . . ويأكلون عنده .

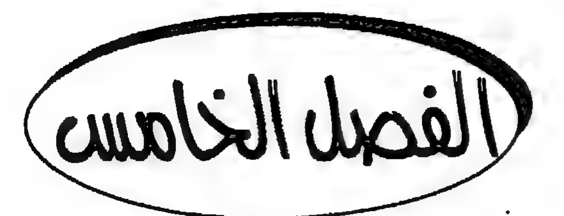
يا سادة :

لو شئت أن أحدثكم عن الشيخ محمود ـ رحمه الله ـ صديقاً وجدت له فى رأسى ذكريات من أقدس وأنفس ما عرف الناس من ذكريات الصداقات ، ولو شئت أن أحدثكم عنه معلماً لوجدت مآثره فى التعليم . ولو شئت أن أحدثكم عنه مصلحاً لوجدت جهده فى الإصلاح ، ولكن الوقت ضيق ، وأنا أريد أن أحدثكم عنه على أنه الرجل التقى السعيد .

إنى لأعرض سير من أعرف فلا أكاد أعرف رجلا كان فى ظنى أسعد منه ، وإذا كان المعلمون يأخذون الأجر من الطلاب ، فإن الشيخ يعطى الطلاب أجرة ولم يرزأ أحداً شيئاً ، يعطى ولا يأخذ ويتفضل ولا يقبل أن يتفضل عليه .

هذى ـ يا سادة ـ لحظات مع رجل عاش سعيداً ومات حميداً ، فما رأيت فى الناس من أحبه الناس حياً وبكوه ميتاً مثلما أحبوه وبكوه ، ولقد كانت جنازته مأتمًا عاماً ما تدرى فيه من المعزِّى ، ومن المعزَّى وهو الذى ستظل مآثره وتظل سيرته درساً لمن أراد أن يعرف كيف يجمع الإنسان سعادة الدارين ولذة الحياتين ـ رحمه الله ـ .

***



- الشيخ عزيز الخانى
- الشيخ جمال الخطيب
- الشيخ كمال القصاب ـ الشيخ بهجة البيطار



- الشيخ الكافى

الشيخ عزيز الخانى

قعدت أتذكر ما أعرفه عن الفقيد - رحمة الله - على روحه ، وأعرض أصباحى معه وأماسىّ ، وما رأيت منه وما سمعت عنه ، فإذا أنا أمام الآلاف من صور الخير والجمال تمر بى مواكب إثر مواكب ، وكل حافل بالنبل ، فياض بالفضل ، وإذا أنا أغيب فى نشوة هذه الذِّكَر الحلوة كأنى غائب عن نفسي على أجنحة حلم شهى فاتن ، وإذا أنا أرى فيها (فلْمًا) يكر مسرعاً تتداخل صوره وتتعانق مشاهده ، لولا أنه فلْمٌ واقع حققته هذه النفس النبيلة العظيمة ، لم يبدعه الخيال المجنح ، ولا اخترعته العبقرية المبدعة ، ولم أدر ماذا آخذ منه وماذا أدع ، ولو تركتمونى أتحدث ما أشاء لحدثتكم عنه أياماً وليالى حديثاً يهز قرارات القلوب ويحرك أعماق النفوس ، وما كذبت فيه ولا بالغت ، ولكن ربع ساعة هل أستطيع أن أجمع ذكريات ثمانى سنين كنت فيها فى صحبة الفقيد ، أجلس بقربه ، جنبى إلى جنبه ، ثمانى سنين رأيته فيها فى رضاه وفى غضبه ، وصحبته فيها فى حضره وفى سفره ، كيف أدخل هذه السنين الطوال فى هذه الدقائق القصار ؟ إن ذلك لا يكون إلا بمعجزة وقد مضى عصر المعجزات .

يا سادة : إن القلم يقف إن لم يمده قلب واع وذهن مفكر ، وإنه ليقف إن طغت على القلب العواطف وازدحمت على الذهن الفكَر ، فاعذرونى إذا أنا أجملت ولم أفصل ، وأشرت ولم أوضح ، ومررت بهذه الحياة مر الطيارة بالمدينة الحافلة بكل عظيم وجميل .

إنى أذكر - يا سادة - يوم سعيت إلى لقائه من عشر سنين أول ما وليت القضاء أحييه تحية القاضى الصغير للقاضى الكبير ، أمشى على تردد ، أخشى ألا أصل إلى قلبه وبيننا مسافة عشرين سنة فى العمر وبيننا مسافات فى الدرجة وفى الزى ، وكنت أصدق ما يقول المراجعون من أن دون المشايخ حجاباً من الجد والصرامة وما لا أسميه ، فلم أكد ألج الباب حتى أحسست بنفحة من لطفه وظرفه كما يحس الضال فى الصحراء المحرقة حين يدخل الواحة وتهب عليه نسائمها ، وتلقانى بالتحية والتجلة ورفعنى حتى صغرت فى عين نفسى بمقدار ما كبر فى عينى ، وحدثنى عن كتبى ومقالاتى وأبى وجدى ، ولم تمض ربع ساعة حتى شعرت أنى من حبى له حيال والد أو عم كريم .

وكلما أوغلت فى صحبته رأيت الدلائل الجدد على نبله ، ورأيت أن ما بدأنى به أول يوم يعاد كل يوم حتى أنى إذا قمت لحاجة أبى إلا أن يقف لى ويودعنى وإن رجعت بعد لحظة أبى إلا أن يقف لى ويستقبلنى ، ووجدت أن ما صنعه بى يصنعه بالناس جميعاً ، مع الموظفين والمراجعين والزائرين ، ينادى كلاًّ بأحب الأسماء إليه ويزيل وحشته ويطرح كلفته ويتحمل غلظته ويغتفر غلطته .

تمده ذاكرة قوية يعرف بها الناس ، فيسأل كلاًّ عن أهله وعياله وعن خاصة أمره سؤال المحتفى به ، فيشعر بذلك كل واحد أنه صديقه الأوحد وصفيه الأدنى ، وكانت هذه الخلة من أطيب الخلال،وبمثلها امتلك مجدد العصر صديقنا الشيخ حسن البنا قلوب الناس ، ما رأيت مثلها إلا له ولقليل من الناس منهم الشيخ محمد محمود الصواف .

وكان يعطى من قلبه مثلما يعطى من لسانه ، فكان أوفى الناس لصديق وأبرهم به وأقضاهم لحاجته ، وما أعرف رجلاً سأله أمراً يقدر عليه إلا أجابه

إليه ، وكان يذيع الحب أينما سار كحامل المسك حيثما مشى فاح منه العطر ، وكان يتسع قلبه للصديق والعدو ، والتقى والشقى والمسلم والكافر ، وكان يحسن حتى لمن يسيء إليه ، وينفع من يضره ، وأشهد أنى ما سمعت منه على طول ما صحبته كلمة سوء بإنسان جرى بها لسانه ، ولا عرفت أن قلبه انطوى على كره إنسان .

وكان يعطي من جيبه مثلما يعطى من قلبه ، ولطالما رأيته يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، يمد يده بالعطية وعلى لسانه كلمة الاعتذار ، وعلى شفتيه بسمة التحية خشية أن يجرح بها شعور السائل أو يدخل بها الهوان على نفسه ، وما كان يرضى قط أن يركب سيارة لا يدفع أجرتها أو يدعوه أحد ولا يجدد له دعوة أو يهدى إليه شيئاً ولا يضاعف له الهدية ، كل ذلك على ضيق فى ذات يده وقناعته براتبه وعلى ما باع من إرث أبيه وجده ، وما عرفته مع ذلك كله أخذ قرشاً من كشف وكان ذلك حقه هو ، ولكنه كان يترفع عنه ، أما نظافة يده وبعده عن الحرام فأمر يعرفه كل من كانت له صلة به .

ولم يكن لطفه من ضعف وكان من أعز خلق الله نفساً ، وكان يأبى الدنية ويرى أن له الصدر ، لا لذاته بل لأنه يحمل لواء الدين بين أبناء الدنيا ، وما عرفت ولا عرف الناس أنه رضى مرة بغير الصدر ولو كان فى مجلس الرئيس، لا ركب على غير اليمين ، ولا خرج إلا أولا ، وقد آتاه الله من الهيبة والجلال ما مكن الله له ذلك حتى عند من لم يعرفه ، ولو كان يتسع المجال لسردت عليكم من قصصه فى مصر حتى عند ضباط الإنجليز . ولما زرت معه القلعة سنة 1947 وكانت لا تزال فى أيديهم لسمعتم عجباً .

والغريب أنه كان يبلغ ذلك بلطفه ورقته ، ولقد بدا منه فى أخريات أيامه جانب ما كنت أعرفه هو جانب الشدة والصرامة.وله فى مسألة دين الدولة مواقف مثل مواقف الجبال الرواسخ .

ليتني أستطيع أن أمضي في الحديث ولكن أزف الوقت وإن في الحفلة[1] لخطباء أنصع مني بيانًا وأفصح لساناً فعفواً يا سادة إن لم أصف كل ما أعرفه عن الفقيد ، والعفو يا سيدي يا سماحة القاضي العزيز والسلام عليك . . سلام القلب . . سلام الحب . . سلام الإخاء . . سلام الوفاء. سلام عليك لئن أورث الأغنياء مالاً وترك العلماء كتباً فلقد خلفت لوعة في كل قلب وحسرة في كل فؤاد وحسبك سيرتك باباً إلى الخلود إن أنت لم تترك مصنفات وتآليف ، وما أكثر من خلد من الأعلام بسيرته وحدها من لدن سفيان والفضيل ابن عياض إلى الشيخ بدر الدين .

السلام عليك سيمر دهر طويل قبل أن نرى بعدك رجلاً مثلك له قلب مثل قلبك ونبل مثل نبلك ، ومن له هيبتك وهيئتك وعزتك وعفتك ، وما أسفت إلا اليوم على أني لم أكن شاعراً .

ولكن لا ، لا والله ما ينفعك اليوم شعر ولا نثر ، ولا تفيدك الخطب ولا المقالات ما ينفعك إلا دعوة صالحة من رجل صالح ، اللهم وما أنا بالعبد الصالح وإني لمقر بذنوبي معترف بعيوبي ، ولكن رحمتك وسعت كل شيء ، اللهم اغفر له وارحمه ، وزد في حسناته ، وتجاوز عن سيئاته ، وألحقه بالذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين و الشهداء والصالحين ، اللهم وزميله الشهيد الذي قتل ظلماً وعدواناً ، ولم يذكر في حفل ، ولم تقم عليه خطب : عادل العلواني .

أيها السادة : أحضروا قلوبكم واجمعوا خواطركم وتوجهوا إلى الله قائلين : آمين .

---

(1) ألقيت هذه الكلمة ، في حفلة التأبين في القاعة الكبرى في جامعة دمشق .

الشيخ كمال الخطيب

رجل كان فذاً بين الرجال ، لا ترى مثله العصور الطوال . وإذا كان الرجل العادى المهذب كالنسخة المطبوعة من الكتاب ، كان الشيخ كمال نسخة مخطوطة مفردة ، وقد يكون فى المخطوطة خرم أو نقص ، أو يكون على صفحاتها أثر من دهن أو بلل ، ولكنها مع ذلك أثمن من المطبوعة وإن كان ورقها نظيفاً وطبعها متقناً ، لأن هذه واحدة فى الدنيا ، ولأن من تلك آلاف الآلاف .

كان الشيخ كمال بقية عصر مضى ، ولكنه أبى أن يمضى معه ، فعاش فى القرن الحاضر كما كان فى القرن الماضى ، فكان تحفة فى (متحف) ولكنها تمشى ، وصفحة من (تاريخ) ولكنها تتكلم . وكان بطلاً فى جسم عجوز وغنياً فى ثياب سائل ، وكان فكرة استحالت رجلاً ، ومثلا أعلى سوى إنساناً . ولكل منا مثل أعلى يتمثله إذا انفرد بنفسه . أما مثل الشيخ الأعلى فهو أعماله التى يعملها .

ولكل منا أفكار يفكر فيها إذا خلا بعقله ، أما أفكار الشيخ فهى كلماته التي يقولها . وكل منا يعرف حقائق الناس ومثالبهم وعيوبهم ولكنه يكتمها عنهم ، أما الشيخ فكان يقول لكل إنسان ما يعرفه عنه لا يستثنى من ذلك أحداً من الناس أبداً . وليس الذى بالشيخ ما يسمونه الصراحة أو الوقاحة ، بل هو شيء لا أعرف له اسماً لأنى لم أجده عند شخص آخر : يقول لكل رأيه فيه بأوضح عبارة وأقصرها وأشدها ، ثم يمشى لا يريد بها جلب منفعة ولا دَرْء

مضرة . ثم يحبه مع ذلك الناس كلهم ويحترمونه ويخافونه : رجال الشعب ورجال الحكومة ، والعلماء والجهلاء والأغنياء والفقراء لا يسلم من لسانه أحد ولكن لا يكرهه أحد . ولم يكن يبالى حبهم ولا كرههم ، ولا يحفل بإكبارهم ولا احتقارهم ؛ لأنه يعيش من نفسه فى عالم ، غاية مطلبه من الدنيا قماش يستر عورته ، ولم أقل : جبة ولا رداء ؛ لأننى لم أكن أدرى ما كان يلبس على التحقيق : أجُبَّةً غيرها طول البلى حتى صارت من قصرها وثنيها كالرداء ، أم رداء أبلته الأيام فصار كالجبة ؟ وشىء يملأ جوفه ، سواء عنده أكان هذا الشىء خبزاً يابساً أم كان أرزاً ولحماً ، ومكان يضع عليه جنبه : سريراً أو فراشاً أو قطعة ممهدة من الأرض الفضاء ، فإن وجد ذلك لم يطلب شيئاً بعده ، لا يرجو جاها ولا مالاً ، ولا يخاف سجناً لا رهقاً .

أخوه الأصغر (زكى بك) زعيم كبير من زعماء الشام . ولى الوزارة مراراً ورياستها (بالوكالة) مرة ، وهو محام معروف ، وأخوه الآخر كان طبيباً كبيراً ، وأهله ذوو ميسرة وغنى ، ولكنه لا يرزأ أحداً شيئاً ، ولا يجرؤ واحد منهم على دعوته إلى طعام أو منام .

ولقد حدثنى الأستاذ زكى بك أنه ما افتقر هذا الفقر إلا لأنه كان كبير إخوته. مات أبوه وخلف له هذين الصغيرين ، فباع ما له كله ، وأنفق عليهما حتى استكملا الدرس فى إستانبول ـ وكانت باريس تلك الأيام ـ ثم أبى أن يأخذ منهما قرشاً واحداً ، وإذا عرضا عليه هدية أو دعواه دعوة ، غضب أشد الغضب ، فتركا ما يريدان لما يريد ، فعاش أغنى الناس ، لا لأنه كان أكثرهم مالا ، بل لأنه كان أقلهم حاجة ، ولا فرق بين أن تكون لك كنوز قارون وأموال فاروق فتنال بها كل ما تطلب ، أو أن تكون مطالبك هينة يسيرة فلا تحتاج إلى مال كثير لتنالها ، ومن هنا قال مَنْ قال : إن السعادة هى القناعة .

قنع من الحياة بأيسر ما تحفظ به على صاحبها الحياة : رغيف يسد جوعته، وقماش يستر عورته، وكان إذا طلب الناس المصايف واتخذوا لها الدور وأعدوا لها العدة حمل عباءته وعيبته ومشى مشياً إلى (بسيمة) درة الوادى وجوهرة العقد فى جيد (بردى) ، فوضع العباءة والسفرة فى المغارة فوق (العين الخضراء) ، ثم نزل فدار بالقهوات ، وجالس الجماعات ، فوعظ ونصح وأمر ونهى ، لا يرزأ أحداً طعاماً ولا شراباً ولا مالاً ، ولا يدخل جوفه من عند أحد شيئاً ، ثم عاد إلى المغارة فأكل فيها ما استطاع أن يعده لنفسه رغيفاً ولحماً ، أو خبزاً وزيتوناً ، أو شاياً وكسرات يابسة من خبز الأمس. وحمد الله ونام ، لا يخشى السرق على مال ولا الخسارة فى تجارة ، ولا تحقق الشر من عدو ، ولا خيبة الأمل فى صديق .

وهذا هو عمله في دمشق : ينزل من قبل أذان الفجر إلى جامع بنى أمية فيصلى ويقرأ أجزاء من القرآن ، ثم يبقى فى الجامع ، يمر على الحلقات ، فإن وجد ما يعجبه شجع المدرس بكلمة ، وإن أنكر شيئاً رد عليه ، وإن أحس غموضاً وضح ، أو إيجازاً شرح ، أو مللاً من السامعين نفّس عنهم بنكتة ، ويعرف له المدرسون ذلك ، فلا يأبونه منه ، وإن أبى بعضهم سلقه بلسان حديد؛ فحط من كبريائه وألان من إبائه ، حتى كان شيخنا الشيخ صالح التونسى (مدرس الحرم النبوى الآن سنة 1372)[1] يسميه (مفتش الجامع) .

ويحضر المحاضرات العامة فيسلك فى الجامعة والمجمع مسلكه فى الجامع . حضرته مرة فى المجمع العلمى العربى من نحو ثلاثين سنة وقد جاء محاضر لبنانى فتكلم فى الحضارة الجديدة وأنه ينبغى فى رأيه أن نأخذ كل ما فيها وذم لباسنا ومدح لباس القوم ، ولما انتهى وأقبل الناس ـ أعنى المتزلفين المنافقين ـ

(1) سنة كتبت هذه المقالة ونشرت فى الرسالة .

يهنئونه ، صاح الشيخ فى آخر القاعة بصوته الذى كان يغلب عشرة مكبرات للصوت ولهجته المُعرقة فى العامية : (ولَك : الحمار حمار ولو لبس بدلة وينطرون ، والإنسان إنسان ولو حط جلال ...)[1] .

فانصرف الناس بكلمة الشيخ وتركوا المحاضرة فى مكانها .

ويدور فى الأسواق ، يراقب الناس ويدرس أحوالهم ، وهو يعرف أكثر أهل دمشق وآباءهم وأجدادهم ، وتمر به المرأة المحجبة فيعرفها من أى أسرة هى ، أمضى سبعين سنة وهو فى هذه المراقبة . فإن رأى حقيراً رفعته الأيام بلا سبب فتكبر ، رماه بكلمة كالقنبلة فعرفه قدره وجرأ الناس عليه ، وإن رأى دجالاً انخدع به الناس فحسبوه عالماً حط منه فصرفهم عنه . وإن أبصر جاسوساً أو ممالئاً للفرنسيين صرخ : (الله يلعن الجواسيس والمنافقين) ، وإن نظر إلى أم ولدها وسخ قال لها : (ولك ، هاى الماء روحى غسلى وجهه ، النظافة من الإيمان) ، وإن رأى بائعاً يغش مشترياً ، أو مشترياً يضايق البائع ، أو شاباً يتحرش بالنساء أو امرأة تتصدى للشباب ، أو رأى معتدياً على آخر فى جسده أو ماله أقام القيامة عليه فكأن البلد كلها مدرسة والناس تلاميذها وهو المعلم فيها .

وهو قاموس حى ، فيه تاريخ دمشق وأنباء أحداثها وأخبار رجالها ونسائها ، حوادث رآها ووعاها ، وناس عاشرهم وخبرهم ، وله آراء فى السياسة صائبات وأنظار ثاقبات ، وله كلام مغطى تعوده أيام الاستبداد الأولى أيام السلطان عبد الحميد ، حين كان الجواسيس يخالطون الناس فى أسواقهم ومجامعهم ومدارسهم وطرقهم ، وحين كان للجدران آذان ، وكان يؤخذ الناس فى أوساط الليل من بيوتهم ، بلا محاكمة ولا تحقيق إلى حيث لا يدرى

(1) الجلال : البرذعة فى لغة عامة أهل الشام .

أحد . وكان الناس يستمعون له ولا يجرؤون على معارضته [1] .

وكان يتوسط فى الخصومات ويعرض لحل المشكلات ، ويقضى بين الناس بلا محكمة ولا مرسوم جمهورى فيسمع من الخصمين ويوازن بين حجج الفريقين ثم يقضى . والويل من جحيم لسانه لمن لا ينفذ حكمه ، فكم ألف بين زوجين وأصلح بين شريكين وكان يأخذ من الأغنياء سطوة واقتداراً ، أو حباً وإكباراً ، فيعطى الفقراء المستورين ، فيسعف الله به وجوها لولاه أذهب ماءها حر السؤال .

وكان قديماً خطيب الجامع الأموى ، ولم أدرك أنا ذلك ، فضايق الحكومة بكشف عيوبها ، وضايق العلماء الرسميين بذكر سجايا العلماء العاملين ؛ فتألب عليه علماء السوء ؛ فأغروا حكام السوء حتى عزلوه فاتخذ من كل مكان منبراً يخطب عليه ، ولبث على ذلك حتى توفاه الله من نحو سنة .

***

هذا هو الشيخ كمال ، نسخة مخطوطة نادرة من مخطوطات الرجال ، رجل فرغ من مطالب نفسه ، وعاش للناس فكان مثله الأعلى هو عمله ، وأفكاره هى قوله ، وكانت دمشق مدرسة وكان فيها الأستاذ .

***

(1) هذا ما قالوه عن السلطان عبد الحميد ، وقد تبين أنه حديث مفترى ، ولكنه صار بعده واقعاً يُرى .

الشيخ كامل القصَّاب والشيخ بهجت البيطار

سـألنى من أيام أحـد الإخـوان ، قـال : هل كنت تلمـيـذ الشـيـخ كـامل القصاب؟ قلت : لم أدخل مدرسته ، ولكنى بمنزلة تلميذ صغير من تلامذته ، قال : وماذا تعرف عنه ؟ قلت : أعرف الكثير . ولكن خبرنى أولا ، ما الذى دفعك إلى السؤال عنه ؟ ومن أين سمعت به ، وعرفت أنى تلميذه ؟ قال : لقد كتب ذلك الأستاذ محمد حسين زيدان ، أفلم تقرأ ما كتب ؟ قلت : لا ، وإن كنت أحب أن أقرأ للأسـتـاذ زيدان منذ رأيت مـقـالته فى رثاء شـيـخنا الرافـعى سنة1356 . وأقـصى النجـاح لكاتب فى أيامنا أن يقـرأ الناس مـا يكتـب ، لأن المطابع ترميهم كل يوم بما يعجزون أن يقرؤوا عشر معشارة ، فلابد أن ينتقى المرء ما يقرأ . وأنا حين أرى المقالة فى الصحيفة أو المجلة ، أنظر أول ما أنظر إلى اسم كاتبها ، فإن كان من الأسماء التى أعرفها ، وأقرأ فى العادة آثار صاحبها ، قرأتها ، وإن لم أرض عنها وإن خالفته الرأى فيما قال فيها ، وإذا أبصرت اسماً جديداً ، أعرضت عن المقالة . ويتكرر ورود هذا الاسم على ويتكرر إعراضى عنه ، حتى يتفق أن يجىء يوماً بموضوع يهمنى ، أو يفتتح المقالة بكلمة تسترعى انتباهى ، فأقرأ له ، فإن أعجبنى وضعته فى ذهنى في قائمة أسماء من أقرأ لهم ،

وأحسب أن أكثر القراء فى هذا مثلى .

***

أما الشيخ كـامل القصـاب فإن فى سيرته فـصلاً كـاملاً من تاريخ الشـام

الحديث : تاريخها العلمي ، وتاريخها السياسي . فهو من أركان التعليم فيها . أنشأ المدرسة الكاملية ، وكانت تسمى حينا المدرسة العثمانية ، كما تسمى المدرسة التجارية بمدرسة الاتحاد والترقي ، على اسم الجمعية التى كانت تحكم البلاد . وبلغت الكاملية مرتبة عالية بين المدارس ، علم فيها أعلامًا من أهل الشام ، كالدكتور عبد الرحمن شهبندر ، والأستاذ خير الدين الزركلى ، والدكتور أسعد الحكيم . وتخرج منها جماعة من الأعلام منهم : شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار ، ومنهم أستاذ كل من قال في دمشق : أنا طبيب الدكتور أحمد حمدى الخياط ، الذى درس فى كلية الطب في الشام من سنة 1920 . وكان أحد الذين عربوا المصطلحات الطبية ، وقاموا بذلك العمل العظيم ، وأخرج مع زميله الدكتور مرشد خاطر « المعجم » ، الذى ينتقده ويعلق عليه من سنين في مجلة مجمع اللغة العربية فى دمشق الأستاذ العالم الدكتور حسنى سبح ، وهو زميل الدكتور الخياط . وسأتحدث عنه بالتفصيل إن شاء الله . ولكن أقول الآن : إنى كنت مرة مع بعض الإخوان فى إدارة « المقتطف » فى مصر ، وقد صدر العدد الجديد من « المقتطف » وفيه خبر شيء استحدث فى عالم الطب ، نسيت الآن ما هو . وكانوا يفخرون بالسبق إلى نشره فقلت لهم : إن عندنا أستاذاً فى المعهد الطبى (وكان ذلك اسم كلية الطب فى دمشق) اطلع عليه ووصفه فى الكتاب الذى يدرسه لطلابه من آخر السنة الماضية ، فعجبوا .

وكان هذا الأستاذ هو الدكتور حسنى سبح شيخ أطباء الشام ، بل من كبار أطباء العرب . وهو الآن رئيس مجمع اللغة العربية فى دمشق .

* * *

أقدم ذكرياتى عن الشيخ كامل أنه كان قبل موقعة ميسلون ، يخطب فى دمشق ، فى الطرق والساحات ومجتمعات الناس ، يثيرهم ويحمسهم ، فلما

كانت الهزيمة المتوقعة ، التي كنا نستحقها لأننا خالفنا عن أمر ربنا الذى قال لنا : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : 60] ، وقال : ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ [آل عمران : 139] فسرحنا الجيش ، بعد أن أقبلت الحكومة إنذار غورو ، التى قالوا : إن حسن بك الحكيم الذى كان مدير البرق والبريد لم يرسلها . وسيأتى الكلام عن الوطنى المجاهد النزيه حسن الحكيم .

لما كان ذلك وقضى الله علينا بأن يحتل الفرنسيون بلادنا ، أصدروا قائمة بأسماء جماعة حكموا عليهم بالقتل ، كان أول اسم فى هذه القائمة اسمُ الشيخ كامل القصاب ، فجاء المملكة ، فجعله الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ مديراً للمعارف . ثم استقال وذهب إلى حيفاً .

قابلته عند خالى محب الدين سنة 1928 على ما أذكر ، ولكن حبلى لم يتصل بحبله إلا سنة 1937 . لما عاد إلى الشام ، وعدت فى إجازة الصيف من بغداد ، ولزمته وصرت من المترددين عليه ، العاكفين على حضور مجالسه ، والمشاركين فى أحاديث هذه المجالس .ولما أعاد افتتاح مدرسته ، وجعلها مدرسة شرعية ، فكانت نواة الكلية الشرعية ، كلفنى تدرس التاريخ والأدب ، وكان من الطلاب جماعة صاروا اليوم من كبار الأساتذة ، وصار منهم من هو أعلم منى ، من هؤلاء الدكتور عبد الحميد الهاشمى . ثم كان منهم لما صارت كلية رسمية ، الأستاذ محمد القاسمى ، والدكتور أديب صالح ، والأستاذ أحمد الأحمد ، والأستاذان الجنادى والخطيب ،وكان منهم حيناً الدكتور وهبى الزحيلى ، وعبد الرحمن رأفت الباشا . وكان بين الطلاب طالب بلحية طويلة ، علمت بعد أنه ليس من أهل السنة والجماعة ، رأيته مرة يغش فى الامتحان ، فقلت له : إن عاقبتك العقوبة التى تستحقها منعتنى لحيتك ، وإن سكت عنك وكرمتك حجزتنى سرقتك ، فماذا أصنع لك ؟ .

ومما وقع لى يوم الامتحان أنى كنت أراقب الطلاب، وما كانوا يحتاجون إلى مراقبة دقيقة، إذ كان عددهم قليلاً، وكان وقت الامتحان طويلاً، ووجدت أمامى « الكامل » للمبرد، فجعلت أقرأ فيه، وطال الوقت، وقرأت منه نحواً من ثلاثين صفحة .

فلما خرجت وانتهى الامتحان دعانى الشيخ كامل لحضور امتحان الأدب، وكان فى كتاب « الكامل »، وكان الطلاب قد قرؤوا منه ما لا يزيد عما قرأته آنفاً، وكانت اللجنة مؤلفة من أستاذنا سليم الجندى، والأستاذ الشيخ عبدالحميد القنواتى، وأظن أن الثالث الأستاذ عز الدين التنوخى - رحمهم الله جميعاً - فكان الطالب يقرأ، فيمر بالأبيات فأسأله أو يسأله غيرى عن تفسير كلمة فيها، أو شرح جملة، فإذا وقف، قلت له : أذكر أن هذا التفسير مر قبل صفحة أو صفحتين، أو سيمر الشرح بعد صفحة أو صفحتين، فلما طال ذلك منى، قالوا : عجباً، أتحفظ « الكامل » ؟ فلو قلت : نعم، أو سكت، لشهد لى هؤلاء الأساتذة الثلاثة الكبار بأنى أحفظ « الكامل » .

فهل يمكن أن يكون بعض ما يروى عن حفظ الأولين، بعضه لا كله، من هذا القبيل ؟ .

***

الناس الذين يدخلون حياتنا منهم من يمر كما يمر النهر على الصخر، لا يترك أثراً ولا ينبت زهراً ولا ثمراً، ومنهم من يمر مرور الماء على الأرض البكر تكون قبله قنوات قاحلات وتصير بعده جنات ممرعات، ومن يمر مرور السيل الدفاع، يدمر العمران، ويقتل الحيوان، ويؤذى الإنسان .

وكل من تلقاه أو تحدثه يأخذ منك ويعطيك، يترك فى نفسك أثراً منه،

حسناً كان أم سيئاً ، مؤقتاً أم باقياً .

ما قعدت بين يدى معلم فى المدرسة ، ولا جلست أستمع إلى محدث فى ناد ، أو واعظ فى مسجد بل ما صحبت صاحباً ، ولا اتخذت رفيقاً ، إلا كان له فى نفسى أثر ، يكون عميقاً تارة فيبقى فيها طويلاً ، أو يكون ضحلاً فيمحى منها سريعاً .

وممن أثر فىّ ناس تحدثت عنهم ، منهم الشيخ عيد السفرجلانى ، والشيخ صالح التونسى ، والشيخ عبد القادر المبارك ، والأستاذ سليم الجندى ، وناس أرجو أن يوفق الله إلى الحديث عنهم كالأستاذ محمد كرد على ، والأستاذ عز الدين التنوخى ، والشيخ محمد الكافى التونسى ، ورجل أتحدث عنه الآن هو الشيخ بهجة البيطار .

كان التلميذ الأكبر (علماً) للجمال القاسمى ، كما قرأ عَلَى السيد / محمد الخضر حسين لما كان فى دمشق ، ثم عاد إلى مصر وصار شيخ الأهر ، والشيخ بدر الدين الذى كان يلقب بالمحدث الأكبر ، وأستاذه الذى انتفع به ، وسار على طريقته واستنار بـ « مناره » هو السيد / رشيد رضا .

فى سنة 1921 ، لما كنت تلميذاً للشيخ حامد التقى ، وهو أسن تلاميذ الشيخ جمال الدين القاسمى ـ رحمه الله ورحمهم ـ فى مدرسة أنموذج المهاجرين فى دمشق ، كان يحدثنا عن زميل له فى القراءة على الشيخ جمال الدين هو الشيخ بهجة البيطار ، الذى كان يومئذ معلماً فى مدرسة أنموذج الميدان الابتدائية . وذهبت بعد ذلك بسنوات إلى الميدان فصليت الجمعة فى جامع الدقاق فسمعت خطبته ، فإذا أنا أجد ما لا أجد مثله فى المساجد التى كنت أصلى فيها . لم يكن يقرأ الخطبة من ديوان قديم . كما كان يصنع يومئذ أكثر الخطباء ، ولا من ورقة مكتوبة يضع عينه فيها ، ولا يرفع رأسه عنها ، بل كان

يخطب ارتجالا ولم يكن يلقى كلامه ذلك الإلقاء الملحن الممطوط الذى يسبب النعاس ويستدعى الملل ، بدلا من أن يثير النشاط ويبعث الأمل ، بل كان يلقى إلقاء طبيعياً عادياً ، كما تلقى المحاضرات .

وصرت كلما استطعت ركبت الترام فذهبت إليه فصليت عنده، ورجعت، ثم افتقدته فسألت عنه ، فقالوا : إنه سافر إلى الحجاز ، فحضر مؤتمر العالم الإسلامى الذى عقده الملك عبد العزيز سنة 1345 هـ فى مكة المكرمة ، وأن الملك استبقاه عنده ، فجعله مديراً للمعهد العلمى السعودى فى مكة ، أو مشرفاً ، فلست أدرى الآن على التحقيق ، وولاه القضاء ، فاشتغل به مدة ثم استعفاه منه ، قائلا مقالة الشيخ محمد عبده : خلقت معلماً لم أخلق قاضياً .

فولاه وظائف تعليمية وجعله مدرساً فى الحرم ، وعضواً فى مجلس المعارف . ثم استأذنه للعودة إلى دمشق ، فعاد سنة 1350 إليها وإلى الخطبة فى جامع الدقاق .

عرفته فى تلك الأيام فوجدتنى معجباً به ، ولكنى مخالف له . لقد وجدت أن الذي أسمعه منه يصدم كل ما نشأت عليه ، فقد كنت فى العقائد على ما قرره الأشاعرة والماتريدية ، وهو شيء يعتمد فى تثبيت التوحيد من قريب أو بعيد على الفلسفة اليونانية ، وهى فلسفة بدائية . وكنت موقناً بما ألقوه علينا وهو أن طريقة السلف فى توحيد الصفات أسلم ، وطريقة الخلف أحكم ، فجاء الشيخ بهجة يقول لى : بأن ما عليه السلف هو الأسلم وهو الأحكم . وكنت قد نشأت على النفرة من ابن تيمية ، والهرب منه ، بل وبغضه ، فجاء يعظّمه لى ، ويحببه إلىّ ، وكنت حنفياً متعصبًا للمذهب الحنفى ، وهو يريد أن أجاوز حدود التعصب المذهبى ، وأن أعتمد على الدليل ، لا على ما قيل .

وتأثرت به ، وذهبت مع الأيام مذهبه مقتنعاً به ، ولكن لم يكن هذا التحول هيناً ولا سهلاً ، وما كنت قط سهل القياد ، ولا سريع الانقياد ، بل ناضلت دون ما كنت أعتقده ، وأمضيت عشرات من الجلسات والسهرات في المجادلات والمناظرات ، أنا باندفاعي وحماستي وعنفي ، والشيخ بهجة بسعة صدره ، وطول أناته ، وغزير علمه ، وقوة حجته ولقد عرضت في الجزء الأول من كتابي عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، إلى ما مر على من أدوار : كيف نشأت مقلداً مؤولا كارهاً لابن تيمية ، ثم أثر فيّ الشيخ بهجة فغدوت سلفي العقيدة ، متمسكًا بالدليل ، ثم صحبت الشيخ زاهداً الكوثري حيناً فرجعت إلى ما كنت عليه ، ثم أقمت عند خالي محب الدين في مصر واقتربت من السيد رشيد رضا ، فعاد أثر الشيخ بهجة في نفسي قوياً ، ثم ثبت عليه .

***

بقيت أكثر من ثلث قرن أصلي الجمعة عنده أنا والأستاذ التنوخي ، والأفغاني حينًا ، والشيخ ياسين الرواف أحيانًا ، وكان عنده كل جمعة جماعة ، منهم بعض الأفاضل الذين يعز لقاؤهم في غير هذا المكان ، كالأمير شكيب أرسلان لما قدم الشام (في السنة التي أتكلم الآن عنها) وكنت أعرفه من بعيد عظيماً في جهاده وفي كتابته وفي علمه ، فعرفته من قريب عظيماً في تواضعه وفي سيرته .

أكلنا فقال الأمير : إن من عادتي أن آخذ سنة من النوم بعد الأكل ، فقام الشيخ مسرعاً فقال الأمير : إلى أين ؟ قال : أعد لك السرير ، قال : مالي وللسرير ؟ وأخذ وسادة من الوسائد التي كنا نستند إليها ، فوضعها على الأرض في وسط الغرفة ، وألقى برأسه عليها ، وقال : السلام عليكم ، وأغمض عينيه ، فقال الأستاذ عز الدين التنوخي : أي نعم (وكانت تلك كلمته

التى يرددها) هذا هو الصحيح ، وأخذ وسادة فألقاها إلى جنبها وفعل مثل ما فعل ، وقلدهما الحاضرون ، وصارت الوسائد دائرة صغيرة ، عليها الرؤوس، والأجساد ممتدة خطوطا من حولها .

وكنت كلما حضرت خطبته وانصرف إلى داره فانصرف معه جماعة من الناس ، فوجدوا المائدة معدة ، ففى كل جمعة وليمة ، فيأكلون ويبقون يتحدثون ويستمعون إلى الشيخ فيستفيدون حتى يؤذن العصر فيصلوا ويذهبوا .

وكنت آخذ إليه كل من عنده شبهة فى الدين ، أو كلام فى الإسلام سمعه من غير المسلمين ، فيزيل الشيخ الشبهة ، ويدفع الاعتراض ، ويوفق فى أكثر الأحوال ، وقد يقول فى بعضها كلاماً طويلاً لا يشفى الغليل .

وكان يغلب عليه حينا التفكير فى أمر يشتغل به ذهنه ، فإذا دعى إلى الكلام خاض فيه ، وإن لم يكن هو مجال المقال ، وإن لم يناسب الحال .

وهو مطلع على جوانب من علوم شتى ، وملم بالفرنسية فهمًا وكتابة ، درسها فى المدرسة العزرية [1] فى دمشق . أفليس عجيباً أن يكون الشيخ بهجة من تلاميذ المدرسة العزرية النصرانية دخلها حيناً من الدهر ؟ .

وهو الذى عرفنى بالشيخ ياسين الرواف ، أول ممثل للمملكة العربية السعودية فى دمشق ، ثم بأخيه الشيخ عيد ، الذى حل محله ، ثم رشيد باشا الذى صار سفير المملكة بعدهما ، وهو من أذكى الناس ، ضعف بصره فى آخر أيامه أو كف ، فكنت أدخل عليه مع الشيخ فأخفف الوطء ، ولا أنطق ولا أسلم ، وأقعد ساكناً ، فيوجه الكلام إلىّ حيثما كنت من المجلس كأنه يرانى ، ثم بالسفير عبد العزيز بن زيد ، وكلاهما كان من جماعة ابن الرشيد ، ولكن الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ، ورحم كل من ذكرت ـ على عادته فى تألف من كانوا أعداءه ، وامتلاك قلوبهم بالإحسان إليهم ، جعلهما من أوفى الناس له

---

(1) ولعلها منسوبة فى الأصل إلى العذراء (أم سيدنا عيسى) فحرف الناس اللفظ والله أعلم ، فما عندى عن ذلك علم .

وأقربهم إليه .

كان الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يقرب الشيخ ، ويعرف له قدره ، وكان له عليه عطف خاص لم يكن لغيره .

***

المرء يتجمل للناس ، ويعرض نفسه عليهم فى أحسن أحواله ، وإن تكلم أمامهم احترس فى كلامه وانتبه إلى أقواله ، ولكن يبرز لذويه ولمن لا يحتشم منه على حقيقته : صورة بلا « رتوش » ، ووجهاً بلا « مكياج » ، لأن الحجب قد رفعت بينه وبينهم ، فصار يحس معهم كأنه وحده . وكذلك يكون الولد مع أبيه ، وكذلك كنت مع شيخنا الشيخ بهجة ونفر من أساتذتى ، فضلا عن أصدقائى . عرفونى كما أنا ، فما كان يفيدنى أن ألقاهم بقناع يستر نقائصى ويخفى عيوبى . منهم الشيخ عبد القادر العانى ، والأستاذ الرئيس محمد كرد على ، والأستاذ الزيات صاحب « الرسالة » ، والأستاذ عز الدين التنوخى ، والدكتور عبد الوهاب عزام وجماعة لست الآن فى مجال إحصائهم ، وسيمر إن شاء الله ذكرهم .

كان أول اتصالى بالشيخ بهجة سبب أزمة لى فى حياتى . فلقد كان أكثر مشايخى ، بل أكثر مشايخ الشام ، ممن يميلون إلى الصوفية ، وينفرون من الوهابية ، وهم لا يعرفونها ولا يدرون أنه ليس فى الدنيا مذهب اسمه المذهب الوهابى ، ولكن ذلك أمر افتراه عليهم خصومها [1] ، ينفرون منها كما ينفر الإنسان من عدو خطر مجهول . وكان عندنا ـ كما قلت من قبل ـ جماعة من المشايخ يوصفون أو يوصمون بأنهم من الوهابيين ، على رأسهم الشيخ محمد

---

(1) لا أقول هذا لأنى أعيش فى المملكة ، بل قلته مفصلاً فى مقالة لى فى (الرسالة) من نحو خمسين سنة .

بهجة البيطار وزميله فى القراءة على الشيخ جمال القاسمى الأستاذ حامد التقى . ومن أعجب العجب أو والد الشيخ بهجة صوفى من غلاة الصوفية ، القائلين بوحدة الوجود على مذهب ابن عربى وابن سبعين والحلاج . كما أن الشيخ خالد النقشبندى ، المفسر السلفى كان جده المدفون فى سفح قاسيون هو الذى حمل الطريقة النقشبندية إلى دمشق . ومن تبع أمثال هذه الظاهرة فى تاريخ علمائنا وأدبائنا وجد منها الكثير ، ولعل من أغربها أن صاحب «الأغانى» أبا الفرج الأصفهانى ، أموى النسب شيعى المذهب ، ومن أبنائى الأستاذ محمد سعيد المولوى ،وهو سلفى العقيدة وعمه شيخ المولوية وأبوه من مقدميها .

من هنا كان اتصالى بالشيخ بهجة سبب سخط هؤلاء المشايخ على ، حتى أن أحدهم لقينى مرة ، فسألنى عن حالى ، فقلت فى نفسى : لماذا لا ألقى بالحقيقة الثقيلة عارية فى وجهه ، وما شاء فليفعل ؟ فقلت له : أقرأ كتاباً لابن تيمية على الشيخ بهجة فى دار الشيخ ياسين الرواف ، أى أننى جمعت له الوهابية من أطرافها ، فأخذنى إلى مدرسته ، وكان مدير مدرسة أهلية فلقينا الشيخ أمين سويد وهو من كبار علماء الشام ، وقد جاء به الشيخ محمد على زينل يدرس فى مدارس الفلاح هنا ، ثم أخذه يدرس فى مدرسة الفلاح فى بومباى . وكان الشيخ أمين شيخ أبى فقال له : يا سيدى هذا ابن الشيخ مصطفى ، صار وهابياً ينكر التوسل . فقال الشيخ ـ رحمة الله عليه ـ : يا بنى ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . دعه فلا شيء لك عليه .

وكان الشيخ بهجة فى بداية أمره معلماً فى المدرسة الابتدائية ، فى الميدان. كما كان بين المعلمين مجموعة من المشايخ الفضلاء . استولت عصبة فى تلك الأيام من الماسونيين أعداء الدين ، على وزارة المعارف ، فنكبوا بهم ونقلوهم

إلى مدارس صغيرة ، منها ما هو بعيد عن الشام ، فنقل شيخنا ، الشيخ حامد التقى ، إلى قرية دمر ، فبادلته على الوظيفة ، وكنت معلماً فى الشام ، وكان التبادل مقبولا عند الوزارة ، فأعدته إلى الشام . وكان من هؤلاء المشايخ الشيخ سعيد البرهانى ، وكانوا يؤذونه لمشيخته ، والشيخ صالح الخطيب . وكنت يومئذ رئيس لجنة الطلاب ، حولى آلاف منهم يطيعون أمرى ، ويمشون ورائى ، ويتحركون بإشارة من يدى . فأخذت نفراً من أقويائهم ، وذهبت إلى مدير المدرسة التى كان فيها الشيخ سعيد البرهانى ، والمدرسة التى كان فيها الشيخ صالح الخطيب ، فدخلت عليه وقبلت يد الشيخ أمامه ، وأفهمته أن الشيخ لا يستحق إلا التجلة والإكرام ، وأن من يمسه ويعتدى عليه أهل للعقوبة فما عادوا بعد ذلك إلى إيذاء واحد منهم .

ثم دعى الشيخ بهجة إلى إنشاء دار التوحيد فى الطائف ، وأخذ معه ولديه ، وهما نابغان أحدهما : الدكتور يسار ، من خبراء المال ، والثانى : الأستاذ عاصم من أعلم مدرسى النحو اليوم ، وأحسنهم طريقة فى التدريس . ولقد اشتغل سنينًا فى المملكة هنا .

أخذوا الشيخ بهجة إلى روسيا و إلى أمريكا . أما أهل أمريكا فيدعون الضيف يرى ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويتخذون من الأسباب ما يبطل كل دعوة إلى الخير ، وكل إرشاد إلى إصلاح ، بالوسائل التى تشتمل عليها حضارتهم ، وما تحمل من اللذات المحرمة ، واللهو الصارف عن الخير .

وأما الروس فلا يدعون الضيف يرى إلا ما يريدون هم أن يراه ، ولا يمشى إلا إلى حيث يحبون هم أن يمشى ، ولا يلقى من الناس إلا من يسمحون له هم بلقياه ، ثم لا يخلون بينه وبينهم . بل يبثون حوله العيون ، وينشرون الجواسيس ، يسجلون عليه كل حركة وسكنة ، وكل همسة وكلمة .

ولقد خدع أكثر من ذهب إلى روسيا من العلماء والمشايخ ، حتى شيخنا الشيخ بهجة . وكانت لى دروس ليلية فى مسجد الجامعة فى دمشق ، وكنت أتكلم ليلة عن الشيوعية ، فدخل شيخنا الشيخ بهجة . ففرحت ، وقلت له : تفضل يا سيدى أهلاً وسهلاً ، حدثهم عما رأيت فى روسيا .

فكان مما قال : إنه لم ير عورة بادية ، ولا ذراعاً عارياً ، ما رأى إلا الحجاب السابغ ، فتألمت ، ووجدت أنه ـ غفر الله له ـ سيهدم علىّ ما بنيت ، وينقض ما أبرمت . فسألته لأنبه الشباب السامعين ، وكم هى درجة الحرارة هناك يا سيدى؟ فقال : عشرون تحت الصفر . فأفهمتهم أن هذا الحجاب للخوف من البرد لا للحرص على الفضيلة .

وفى كثير من مشايخنا الكبار مثل هذا البعد عن المكر ، حتى أن الواحد منهم يُمكر به فلا يشعر مع أن عمر كان يقول : « لست بالخب ، ولكن الخب لا يخدعنى » ، من ذلك أنه لما كان الحاج أمين الحسينى يناضل الإنكليز فى فلسطين سألوا مفتى مصر يومئذ عن وظيفة المفتى فأجابهم . قالوا له : وهل من عمله الاشتغال بالسياسة ؟ فأجاب قائلا : لا . فأخذوا من جواب مفتى مصر حجة على مفتى فلسطين .

***

كنا عند الشيخ بهجة كأننا فى بيوتنا ، إن جعلنا طلبنا الطعام ، وإن نعسنا ذهبنا إلى الغرفة الأخرى لننام ، وإن أنسنا قعدنا ، وإن استعجلنا استأذنا فانصرفنا . وهو فى الحالات كلها مشرق الوجه ، باسم الثغر ، لين القول ، يتحرك لسانه ما بين ترحيب بنا ، أو كلام نافع لنا ، فقوله درس ، وسلوكه قدوة ، ومجالسته متعة ما بعدها متعة ـ رحمه الله ـ ولقد رأيت آلافاً من الرجال ، وعاشرت مئات منهم ، فما رأيت مثله إلا قليلاً ، فى فهمه للإسلام ،

وتمكنه من العربية ، واستحضاره للشواهد ، وقدرته على نظم الشعر .

كان حلاّلاً للمشكلات ، يستمتع بالنكته ويقولها . لازمته أكثر من أربعين سنة ، سافرتُ معه ، شاركته فى لجان التحكيم ، وفى لجان رسمية ، فكان فى الحالات كلها الرجل الكامل الفاضل .

***

وبعد ، فقد فتحت على نفسى وعلى القراء باب خير واسعاً ، فى الكلام على من عرفت من الرجال ، ولكن هل أستطيع دخوله ؟ إن دون الوصول إليه حفراً وعقبات وعوائق شديدات ، فهل أبلغه وأدخله ؟ .

إنه طريق طويل طويل ، كلنا يجتازه ، نحط الرحال ، وننصب السرادق ، يمر بنا السائرون يقيمون ما يقيمون ، ثم يرحلون فلا نلقاهم أبداً . لكل منهم موعد ، يدعوه فيه داعيه ، فلا يملك إلا أن يجيب ، ثم يأتى موعدنا نحن ، فيأتى من يحملنا ، شئناً أم أبينا ، إلى حيث يريد من أرسله ، لا إلى حيث أردنا ، فلا نعرف وقد فارقنا خيمتنا ، إلى أين مصيرنا ، ثم يجىء بعدنا من يسكن فيها مكاننا ، يستأجرها كما استأجرناها ، ثم يخلفها كما خلفناها :

رب ركب قد أناخوا عندنا ... يشربون الراح بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالا بعد حال

***

الشيخ الكتاني

هذا رجل لا تعرفونه ، ولكن تعرفون طرفاً من آرائه في إنكار حركة الأرض، ورده على من قال بها ، واستدلاله على ما ذهب إليه بما لا دليل فيه ، على ما يدعيه . شيخ من تونس هبط دمشق مع هبوط السلام بعد الحرب العامة الأولى ، وكان الذين صاحبوه وعاشروه أبي وأعمامي . لقد خلطوه بأنفسهم حتى غدا كأنه واحد منهم . ولم يكن عجيباً أن يتصادق تونسي وسوري فإن هذه الحدود لم تكن قد ظهرت ، ولقد كان عندنا مدرسون من تونس ومن الجزائر ومن طرابلس الغرب التي صارت تسمى الآن ليبيا ، واسمها قديماً لوبية ، وعندنا مدرسون من الترك ، ومدرس من اليمن اسمه الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي .

***

ولقد كتبت من قديم أن الرجل المهذب الذي يألف ويؤلف ، والذي يتكلم فيضع الكلمة موضعها ، فلا تجرح السمع ، ولا تحرج السامع ، والذي لا يفعل إلا ما يليق بمثله أن يفعله ، والذي لا ينكر الناس من سلوكه شيئاً ، ولا يحسون له على قلوبهم ثقلاً ... هذا الرجل كالنسخة المطبوعة الطبعة الأنيقة من الكتاب ، ورقها صقيل ، وجلدها جميل ، ولكن مثلها في السوق مئات أو ألاف .

وإن من الرجال ما هو كالنسخة المخطوطة ، ربما كانت ناقصة ، أو مخرومة ، أو مس الزيت أطرافها ، فأفسدها ، ولكنها أثمن وأغلى ؛ لأنها واحدة لا ثانية لها .

وأنا لا علم لي بالمخطوطات ، ولكني عرفت من دهاقينها ، ومن أهل الخبرة فيها قوماً بقي منهم صديقنا الأستاذ أحمد عبيد ، مد الله في عمره . وأعرف من الطبقة التي نشأت بعدهم ، فسارت على نهجهم الصديقين : الدكتور صلاح الدين المنجد ، والأستاذ زهير الشاويش .

الشيخ الكافي الذي أتكلم عنه مفرد في بابته [1] ، فهو فقيه مالكي متمكن من المذهب ، وهو مقلد شديد التقليد ، وما هذا الذي يميزه ، فما أكثر الفقهاء المقلدين في ذلك الزمان ، ولكن ميزته أنه يعيش كما يريد . لم تكن له وظيفة ، أي راتب ، فهو يداري رؤساءه لئلا يضار في وظيفته . ولم يكن من أهل السياسة ليرضى العامة ، ويتألف الجماهير ، استبقاء لزعامته ، ولا كان من أهل السوق فهو يساير الناس لئلا ينفض عنه زبائنه ، ويبتعد عنه عملاؤه ، وما عرفته احتاج إلى أحد فهو يرعى خاطره لئلا يتغير عليه . كان يعيش من مورد له في تونس ، يأتيه منه مال يكفيه ، ويعيش منه ، وأحسبه مورداً زراعياً ؛ لأنه كان في بعض السنين يبيع زيت الزيتون التونسي ، لمن يحب أن يتناوله .

خبرني قبل موته بعشرة أيام أنه دخل المائة الثانية من عمره ، وقلت ذلك حين أبّنته في مقبرة الدحداح عند الدفن ـ رحمه الله .

أصله من بلدة أو قرية في تونس ، اسمها كاف ، لا أعرف أين هي ، لأني لم أذهب إلى تونس . وقد دعيت إليها مرتين تفضل في أحدهما السفير فدعاني بنفسه ، فاعتذرت بعلو سني ، وثقل حركتي ، وشكرت الداعي .

عاش هذا العمر كله ولم يتزوج . تخلص من قيود الزواج ، كما تنصل من روابط الوظيفة والمجاملات الاجتماعية .

---

(1) يقال : فلان من بابة فلان أي من أشباهه وأمثاله .

سكن الدار التى كانت دارنا ، وبقى فيها ثلاثين سنة ، وهى دار صغيرة فى حارة الديمجية . ولدت أنا فيها ، ونشأت فيها ، ولما مات أبى سنة 1343 هـ عينت مكانه إماماً فى مسجدها الصغير ، ويدعى جامع رستم . وقالوا : لابد للإمام من عمامة ، كأن العمامة من شروط الإمامة ، فأدرتها على رأسى ، فقالوا : لابد من لحية ، قلت : العمامة اشتريت قماشها ، وأحكمت لفها ، فمن أين آتى باللحية وأنا لم أكمل السابعة عشرة ؟ .

سكن الشيخ الكافى فى هذه الدار لما خرجنا منها ، وأسكن معه أسرة من المدينة ، أظنها أسرة الخيارى . وهذا الخيارى رجل طيب صالح ، كان يتولى رعاية الشيخ ، كما يعد أهله طعامه الذى يحمله هو إليه فى غرفته .

* * *

وكان الشيخ يحب الولائم ، لا أن يكون دوماً المدعو فيها ، كما يحب كثير من المشايخ ، بل يدعو ويدعى ، وكان حضور دعواته مما أرغب فيه ، لأننى أستفيد منها فى بطنى وفى ذهنى . أستمع إلى من كان فيها من العلماء ، ومن الأفاضل ، فأتعلم ، ونأكل الكسكسى الأصلى [1] ، ونشرب بعده الشاى الأخضر ، وكان الشيخ الكافى أقرب إلى نفسى من شيخنا الشيخ صالح التونسى ، الذى مر ذكره ، والذى استفدت منه كثيراً ، ولا أنكر فضله على ، وهو رفيق الكافى وصديقه ، وكان الكافى يلين أحياناً حتى نألفه نحن الصغار . وكان يأخذنا إلى « السيران » ، و« السيران » فى الشام نزهة فى البساتين أو فى الوادى ، ويدعو من أجلنا الكبار ، ويبتكر اللعب المسلية ، ويجعل الجميع يشتركون فيها يقيم حجراً يجعله هدفاً ، فمن أصابه نال كذا ، أو يجعلنا

---

(1) ولا أكاد أعرف فى أصناف الطعام أطيب منه ، وهو الأكلة المفضلة لإخواننا المغاربة جميعاً على اختلاف مناطقهم .

نتسابق ، وكل مرة يخترع لعبة جديدة لا يعرفها الناس .

يدع فى السيران جده وحدته ، ويكون منبسطاً كأحسن ما يكون الانبساط ، لينا أكثر ما يكون اللين ، يسوق النوادر ، ويروى الطرائف ويضحك ، ويضحك من معه ، ويتسلق الشجر ، حتى أنه ليصعد شجرة الحور حتى يبلغ رأسها ، وهى تميل به فيميل معها .

وكانت له أجوبة عجيبة . نام فى بيت عمى فسأله فى الصباح عن مبيته فقال : إن الفراش صالح لنوم الشتاء .

فلم نفهم حتى بين لنا ، فإذا هو فراش صغير ، فإذا نام المرء فى الشتاء ضم جسده من البرد فاتسع له ، فإذا نام فى الصيف ضاق عنه ، وكنا مرة نمشى معه فى جنازة ، فسأله رجل عن المتوفى ـ بكسر الفاء ـ فقال : المتوفى : الله ، فحسبه يكفر ، وهم بجمع الناس عليه . فشرحنا له أن الله هو الذى يتوفى الأنفس حين موتها ، وهذا الميت يقال له : المتوفى ـ بفتح الفاء ـ .

كان الشيخ صالح ـ رحمه الله ورحم الكافى ـ يحلو له فى الولائم أن يسألنى على ملأ من المشايخ الحاضرين ، وكنت تلميذه فى المدرسة الجقمقية ، فقال لى مرة : أعرب .

أقاطن قوم سلمى أم نووا ظعنا إن يظعنوا فعجيب عيش من قطنا

وكنت فى الصف الخامس الابتدائى ، فنسيت أن « قوم » تعرب على أنها فاعل لقاطن ، سد مسد الخبر . ونسيت أن هذه الفاء فى الجواب واجبة الذكر ؛ لأن الجواب جملة اسمية . وسكتُ فَهَمَّ بأن يتناولنى ، فانبرى له الشيخ الكافى ، وقال : تنغص على الولد طعامه ؟ أهذا وقت السؤال ؟ وتناقشا فاغتنمت انصرافهما إلى المناقشة ، وانصرفت هارباً ، خرجت وعقلى فى الكسكسى الذى حرمنى منه « قوم سلمى » الذين ما حلا لهم الظعن إلا وأنا

آكل ، وأنا ما لى وما لسلمى وقوم سلمى قطنوا أم ظعنوا ؟ .

***

كان شديد التمسك بما يراه ، ما عنده فى كل مسأله إلا قول واحد ، من قال به فهو مقبول ، ومن خالفه فهو مردود ، وكان يمنع القيام لاستقبال القادم ، ولقد كان يوما مع والدى وجماعة من العلماء والفضلاء ، فدخل مراقب الأوقاف العام ، وكان إليه أيام الانتداب الفرنسى الإشراف على أوقاف سوريا ولبنان ، فكان أكبر من وزير ، فقاموا إليه يستقبلونه ، وبقى هو قاعداً .

وقدم دمشق مرة قاضى بغداد : الشيخ الشواف وهو صديقى ، فأخذته إلى علماء الشام ، وكان معى الشيخ عبد الغنى الدقر ، فجعلنا ننتقل من حى إلى حى ، نزور فى كل حى علماءه فيحسنون استقباله وإيناسه حتى وصلنا إلى العقيبة ، فزرنا شيخنا الشيخ أبا الخير الميدانى ، والشيخ محمود ياسين ، ثم أخذته إلى الشيخ الكافى .

فقلت له أعرفه به : فضيلة قاضى بغداد . قال : لا ، السلام أولا ثم التعريف . فلما انقضى السلام ، وبدأ الكلام ، وكان حديث من أحاديث العلم ، أشار الشيخ الكافى خلال كلامه إلى حديث رواه ابن عمر ، فقال القاضى الشواف : نعم . فسأله الكافى : تعرفه ؟ فسكت فأعاد عليه السؤال ، قال : لا . قال : فلماذا قلت نعم ، توهم أنك تعرفه ؟ وكنا نمضى فى كل زيارة ربع ساعة ، فبقينا عنده ساعة وربع الساعة فى حديث علمى نافع . فلما خرجنا خفت أن يكون القاضى قد استاء فأحببت أن أخفف عنه ، فقال : ما سرنى لقاء أحد ممن زرته ما سرنى لقاء هذا الشيخ .

كان يؤلف الكتب ويطبعها على نفقته ويوزعها ، ألف أولاً « الأجوبة الكافية على الأسئلة الشامية » . على طريقة العلماء المتأخرين ، كلما نزل

أحدهم بلداً ، ألف مثل هذا الكتاب ، ثم ألف « المسائل الكافية » . وكان ينكر دوران الأرض ويكفر من يقول به ، حتى كفر الشيخ محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، وما صدر هنا من بضع سنين من كتابات حول هذا الموضوع ، كثير منه مأخوذ مما كتب الشيخ الكافى ، منقول عنه حرفياً تقريباً .

وكان ينكر على أرباب الطرق الصوفية ، حتى أنه كان فى تونس فى يوم يجتمع فيه الصوفية بمناسبة لهم ، ينشدون الأناشيد فى مدح الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بألحان أهل الغناء الممطوطة ، التى تحرف الكلم عن مواضعه ، وتقطعه وتصله ، وقد يخرج الكلام بهذا اللحن عن معناه ، فلما مروا به خرج عليهم بتلاميذه ، ومعهم عصى الخيزران ، ففرق جمعهم ، وأفسد نظام سيرهم ، فأخذته الشرطة إلى والى البلد ، فلما دخل عليه قال له ، بمثل النغمة التى كانوا ينشدون بها : السلام على ، على ، عليكم ، عليكم ، كم ، كم ، ما أح ، ما أح ، ما أحلى عيونك ، وما أبهى جبينك يا سيد الملاح ، لاح.

فغضب الوالى فقال : ما هذا هل أنت مجنون ؟ أهكذا يخاطب الولاة ؟ قال : هل الوالى أعظم من رسول الله ؟ قال الوالى : معاذ الله ، وأين أنا من رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ قال : إذا غضبت لأنى سلمت عليك بهذا النغم ، وتغزلت فيك هذا الغزل ، فكيف تدعهم يوجهون هذا إلى مقام سيد البشر وخاتم الأنبياء ـ ﷺ ـ ؟ قال الوالى : الحق معك .

وهذه الأناشيد التى يسمونها « النبوية » ، وكنا نتعلمها ونحن صغار ، وننشدها فى المدرسة ، وفى الموالد ، وفى الحفلات ، فيها هذا كله ، وفيها ما هو أكبر من هذا كله ، وهو أنها تشتمل على بعض الشرك الذى لا شك فيه ، وعلى دعاء الرسول بما لا يدعى بمثله إلا الله .

ولما صار الأستاذ أحمد عسة أيام الشيشكلى ، على ما أذكر ، المدير العام للإذاعة فى سوريا ، وكان يوماً تلميذى ، كلمته فى هذه الأناشيد وسألته منعها ، فمنعت ، وقام علىَّ المشايخ حتى إخوانى وأساتذتى ، محتجين بأن الرسول ـ ﷺ ـ سمع وصف النساء من كعب بن زهير .

وهذا خبر مستفيض رواه الأدباء فإن صح عند المحدثين فلا حجة فيه ، لأنى لا أتكلم فى حكم سماع الغزل ، بل فى مدح الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما يشبه الغزل ، جلّ قدره عن ذلك وارتفع .

وكنت أعجب من الشيخ الكافى ، كيف يكون تارة سلفياً يحارب البدع والمحدثات ، ويجابه العلماء والعوام ، ومجابهة العوام أصعب من مجابهة الحكام ، ثم يعظم كتاب « الإبريز » فى مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ ، وينقل منه كأنه يعتمد عليه ، وفى هذا الكتاب ما هو كفر صريح ، ما له تأويل ، ولا تعليل ، ولا يعتمد على دليل ، ثم تبين لى أنه مقلد حتى فى هذا الإنكار ، فهو يتبع فيه ابن الحاج فى « المدخل » يمشى وراءه ويتبع خطاه ، فما أنكره ابن الحاج أنكره .

وكان الشيخ يستمع الغناء من غير آلات ، وكان من المشايخ فى الشام قوم كلما سمعوا دوراً قديماً للحامولى أو عثمان وأمثالهما ، أو أغنية لصالح عبد الحى وأضرابه ، أو نغمة لسيد درويش ، أخذوا لحنها فوضعوه على كلام غالبه سخيف ، ينظمه جماعة اختصوا به ، منهم الشيخ عبد الرحمن القصار ، وهو شاعر والشيخ أبو السعود مراد ، وهو نظام لا شاعر يمدحون به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مدحاً لا يليق بمقامه ، وكان فى الشام رجل موسيقى ما له نظير فى حفظ الألحان القديمة ، اسمه على الكردى أبو عزت ، كان منقطعاً إلى الغناء فى المجامع والحفلات ، وكان له « تخت » ، فلما قامت نهضة المشايخ

على يد الشيخ على الدقر والشيخ هاشم الخطيب ، اتخذ العمامة وترك الموسيقى. وقد عاش حتى جاوز الثمانين ، وحنجرته لا تزال طرية ، وصوته لا يزال عذباً . ومثله فى ذلك توفيق المنجد الذى تسمعونه من إذاعة الشام فى رمضان . وكان الشيخ شريف الخطيب ، ابن خالتى ، مدير المدرسة الأمينية ، يجمع بعض الأصدقاء والمشايخ فى داره ويأتى أبو عزت ، والشيخ صبحى الإمام ، الذى كان رئيس ديوان النيابة العامة فى وزارة العدل ، فاستقال لما قامت نهضة المشايخ ، وانقطع لطلب العلم ، واتخذ العمامة . وكانت له لحية مثل لحية أبى عجاج الخطيب الذى مرّ ذكره ، وكانتا أكبر لحيتين فى الشام ، أما صوته فمثل صوت وديع الصافى ، بل إن صوته كان أقوى قوة ، وأوسع مدى وأحلى رنة فى الأذن .

وكانوا يغنون مرة دوراً قديماً لا أعرف مطلعه فيه :

من بعادك داب فؤادى   إمتى أنا أفرح بالوصال

وجعلوا على عادتهم يرددون الكلام ، قل لى امتى ـ امتى امتى ـ امتى نفرح امتى ـ يا سيدى امتى ـ يا روحى امتى ـ امتى نفرح امتى . ثم يقول : آه ويمدها ويرجعها ، ويعاونه الحاضرون ، حتى تستمر هذه الآه ثلاث دقائق ، وتميل على الأنغام والمقامات ، ثم تعود إلى المقام الذى بدأت منه .

فلما أطالوا ملّ الشيخ ، وقال : روح اسأله امتى ؟ ما تقعد هنا تقول امتى امتى .

وضحك أهل المجلس وعدّوها نكتة طريفة .

وكان الشيخ يتعصب لما يرى أنه الحق ولو كانت المسألة خلافية ، لا يجوز لمن أخذ برأى فيها أن ينكر على أهل الرأى الآخر ، إن كان المختلفون جميعاً من

أهل السنة والجماعة ، ولم يكن الخلاف على أمر يتصل بالعقيدة ، أو أمر ورد فيه النص القطعى ، كان الكافى صورة للشيخ المتعبد، الذاكر الشاكر ، قائم الليل . كان صدّاعاً بالحق ،ولكنه يعيش بعقل القرون الماضية، وهو بين أهل القرن الحاضر . الحق عنده ما تعلّمه وحفظه . لا يقبل غيره ، ولا يرتضى سواه .

فقيه مالكى متعصب لمذهبه ، يرفض ما لا يعرف ، لذلك أنكر حركة الأرض ،وكفر من قال بأنها تدور .

هزّ دمشق هزتين : الأولى حين أنكر القيام فى الموالد ، وأنكر أشياء ينسبونها إلى الدين . وما لها أصل فى الدين ، فقام عليه المشايخ فى الشام ، لاسيما المتصوفة منهم ، فلم يبال بهم وثبت على رأيه . والثانية : وكانت هزة أقوى وأشد ، حين حكم بالكفر على كل من يقرأ بهذه المصاحف التى كتبت على طريقة الإملاء العصرى ، ويرى أنه لا يجوز فى المصاحف إلا الكتابة الأولى ، كما قال الإمام مالك ، ولكنه جاوز رأى القائلين بالتمسك بالرسم العثمانى ، إلى ما لم يخطر لهم على بال ، وما لم يقل به أحد ، وهو أن مصحف عثمان ليس فيه نقط ولا شكل ، فعلينا أن نلتزم به فى مصاحفنا ، بلا نقط ولا شكل ، وألف رسالة فى ذلك ، كان فيها على عادته صريحاً عنيفاً ، أنكر هذه الزيادات التى زيدت على مصحف عثمان ، وهى النقط على الباء والتاء والثاء ، والجيم والخاء إلخ . . . والشكل أى الفتحة والكسرة والضمة إلخ . . . وشدد النكير على من يقرأ فى هذه المصاحف ، أى على المسلمين جميعاً .

فانفض عنه إخوانه وأصدقائه . وجاء الشيخ محمد الأهدلى ، من زملائى فى القضاء الذين كانوا أقدم منى فيه وأفضل ،وهو عالم جرىء فاضل يمانى الأصل ، فصور صورة دعوى من امرأة تطلب الطلاق من زوجها ، لأنه ارتد عن الإسلام بقراءته فى هذه المصاحف ، ولا تحل له بعد ذلك .

وأصدر أعجب قرار صدر عن المحاكم وأطوله وأحفله بالأدلة العلمية والبحوث النافعة ، والنقول النادرة ، وكشف فيه خفايا مقاصد عامة المستعمرين ، نقلا عن دهاقينهم ، وردّ فيه على طه حسين فى كتاب « الشعر الجاهلى » ، وعلى الرصافى فيما نقله عنه أمين الريحانى ، واشتمل القرار على نص فتاوى المفتين لاسيما فتوى مفتى الحنابلة فى دمشق ، الشيخ جميل الشطى ، المؤرخة فى شوال سنة 1360 هـ التى يقول فيها : « إن ادّعاء الإجماع على وجوب موافقة رسم القرآن ، لرسم مصحف عثمان ، ادعاء لا يقوم عليه برهان ، كما سيأتى البيان ، ومن ادعى ذلك فعليه هو أن يأتى بالدليل » ، واشتمل قرار القاضى على ما يؤيد ذلك من ملاّ على القارى فى شرحه للشاطبية ، وعن زكريا الأنصارى فى فتاواه ، وعن العز بن عبد السلام الذى قال كما نقل عنه الزركشى فى البرهان : « لا يجوز كتابة المصاحف الآن على الرسم الأول ، لئلا يوقع الجهال فى الخطأ » واشتمل القرار على رد شيخ قرّاء الشام الشيخ محمد سليم الحلوانى ، الذى كان أقرب الناس إلى الشيخ الكافى بعد أبى وأعمامى ، وكان يرافقه ولا يفارقه . فلما أصدر هذه الرسالة قاطعه وابتعد عنه ، وعندى صورة من هذا القرار ، لكنها ناقصة مبتورة . فلعل عند أهله صورة كاملة منها ، ولعل بعض الناشرين ينشرها فى كتا ب بإذن منهم . وللشيخ الأهدلى بنت طبيبة فاضلة فى دمشق ، وبنت هنا زوجة لطبيب فاضل ، فيمكن أن يطلب نص القرار منهما .

* * *

وقع الشيخ وقعة انكسر فيها ظهره ، وقرر الأطباء أنه لا شفاء له ، وأن عليه أن يبقى مثبتاً بالكرسى ، ما بقى له من أيام .

وقامت الحرب العامة الثانية ، وهو على هذه الحال ، وانقطع ما بيننا وبين تونس فلم يعد يرد عليه من المال ما كان يرد ، ففكرت أنا وابن عمى الدكتور سامى - رحمه الله - فى شىء نقدمه إليه ، فلم نقدر على أكثر من أربع ليرات

ذهبية انكليزية ، وذهبنا إليه ولكن حرنا كيف نقدمها له . فجعلت أمهد بكلام طويل للوصول إلى ما جئت من أجله ، فأحس وقال وهو يضحك : قُل رأساً ماذا تريد ؟ قلت : شيء قليل من أولادك ، أنا وسامى قال : هات ، وأخذها من غير تردد ، فعجبنا . وكنت يومئذ قاضياً فى دوماً وكان فيها بعض المغاربة ، وكنا ندعو مسلمى الشمال الأفريقى جميعاً مغاربة ، لا نفرق بين طرابلسى (ليبى) وتونسى وجزائرى ومراكشى (مغربى) .

فجاءنى بعد أيام أحد هؤلاء المغاربة ، وكان رجلاً صالحاً كبير السن ، فجعل يثنى على الشيخ الكافى ويدعو له ويقول : لقد عرف حاجتى فأعطانى أربع ليرات انكليزية .

وأختم بحادثة طريفة ، حدثنى بها السيد مكى الكتانى ، وهو ابن الكتانى الكبير السيد محمد بن جعفر ، صاحب الرسالة المستطرفة التى لا أعرف فى بابها مثلها . قال : قدم الشام الشيخ صالح التونسى فدعاه الشيخ الكافى هو والشيخ زين العابدين (كلاهما شيخى أنا وأستاذى) إلى الغداء وحدد لهما ساعة الطعام .

فجاءا قبل الموعد بأكثر من ساعتين . قال : أنا ما دعوتكما الآن ، دعوتكما الساعة كذا : « وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم » فاذهبوا ، وارجعوا فى الموعد . فغضبا ولم يرجعا .

قال السيد مكى ـ رحمه الله ورحمهما ـ : وجئته فخبرنى ، فقلت له : إنك تحب سماع الحق ، ولو كان ممن هو تلميذك ، ومن هو مثل ولدك . قال : نعم . قلت : الحق أنك أخطأت . قال : كيف ؟ قلت : ضيفان جاءاك ، والشيخ صالح قادم من سفر ، أفما كانا يستحقان منك خيراً مما رأيا ؟ قال : وما العمل ؟ قلت : تُعدّ لهما دعوة جديدة ، وتدعوهما . قال : فإن لم يحضرا ؟ قلت : (أى قال السيد مكى) أنا أحضرهما . قال : وذهبت إليهما فى بيت

الشيخ زين قالا : أرأيت ما صنع الشيخ ؟ قلت : وما صنع ؟ فخبراني . قلت : أفلا عذرتماه ؟ رجل مقعد مربوط بكرسيه يحتاج أن يبول أو أن يتوضأ وأنتما قاعدان أمامه ، تقيدان حريته وتمنعان حركته ؟ إن الأولى بكما ، وأنا تلميذكما ومثل ولدكما ، أن تحمدا الله على الصحة ، وأن تعذراه في المرض ، قالا : وما العمل ، قلت : أنا أجعله يجدد الدعوة لكما ، فهل تستجيبان إن دعاكما ؟ قالا : نعم .

وكذلك يصنع أهل العلم ، وأصحاب الدين ، يختلفون ولكن سرعان ما يرجعون فيتفقون ، لا يحمل أحدهم غلاً للآخر ، ولا يدخل قلبه الحقد عليه أو البغض له .

***

الشيخ الكافي صورة للعالم الذي يعطي من ذاكرته أكثر مما يقدم من فكره ، مستقيم في ذاته لكن لا يخالط المجتمع حتى يقوم غيره . عنده الكثير ولكن ليس عنده الأداة التي ينقل بها ما عنده إلى الناس ، فليس بذي قلم ، ولا أعطي لسان محاضر أو خطيب .

إنه لا يصلح داعياً إلى الله ، ولا موئلاً للشباب يدلهم على الله . ليس الفارس الذي يحمل العلَم ، ولا الجندي الذي يخوض غمرة القتال ، ولا الخطيب الذي يبعث الهمم ويثير العزائم ، ولكنه مثل أمين المستودع الذي تودع فيه الأموال ، ويحفظ فيه العتاد . فهو أمين عليه يؤديه كاملاً عندما يحتاج إليه .

وأمين المستودع يؤجر ويشكر ، ولكن لا يكون كالقائد الذي يرسم الخطط ، ويقود الجيش ، ويحمي البلاد .

إنه طراز من العلماء نحتاج إليه لكن لا نعول عليه .

***



- الشيخ عبد المحسن الأسطوانى
- حسن الحكيم القوى الأمين
- مع بعض مشايخى
- الشيخ أمجد الزهاوى
- أنور العطار شاعر الحب والألم والطبيعة

الشيخ عبد المحسن الأسطواني

لما كتبت عن الشيخ الكافى وقلت : إنه دخل المائة الثانية من عمره ، ظن ناس أنى أبالغ ، واستكثروا أن يبلغ عمر امرئ فى هذه الأيام مائة عام ، مع أنى أعرف من المعمرين كثيرين عاشرتهم وخالطتهم ، أو أدركتهم وسمعت عنهم ، أو دنوت منهم وإن لم أداخلهم .

منهم شيخ علماء الشام وكبير قضاتها : الشيخ عبد المحسن الأسطوانى الذى عاش مائة وثمانية عشر عاماً .

لا أقولها مجازفة كما يجاز ف العامة من المسنين ، حين يسألون عن أعمارهم ، فيزعم أحدهم أنه عاش مائة وعشرين أو مائة وثلاثين ، وما له على دعواه دليل ، وإن لم يكن إلى تكذيبه من سبيل . بل أقولها عن تحقيق ، فمما يثبت ما قلت أن الجامع الأموى فى دمشق قد احترق فى مطلع القرن الرابع عشر سنة 1311 ، وأعاد الشاميون عمارته ، هذه العمارة التى تبهر الزائر ، وتدهش السائح . كان الشيخ عبد المحسن الأسطوانى مساعد رئيس اللجنة العليا التى أشرفت على البناء . وكان نائب دمشق فى مجلس النواب العثمانى قبل الحرب الأولى بزمان طويل .

***

لو رجعتم بمناسبة الحديث عن احتراق الجامع ، إلى كتابى « الجامع الأموى» الذى طبعته وزارة الأوقاف فى دمشق أيام الوحدة ، وهى تبيعه للسياح [1] ، لوجدتم فى الصفحة الثالثة والثمانين منه هذا الكلام :

(1) وتقبض هى الثمن ! ! .

أجدادنا الأولون كانوا أهل حزم وعزم ، وكانوا أصحاب فكر وبيان فكتبوا . . . تاريخهم كله ، وسجلوا مفاخرهم ومعايبهم ، وأخبار جدهم وهزلهم ، فنحن نعرف عن القرون الأولى التى مر عليها أكثر من ألف سنة كل شيء ، كأننا نعيش فيها ، ونجهل من أخبار القرون الأخيرة كل شيء ، لا سيما القرن الماضى .

« وهذا شيء عجيب ولكنه الواقع » .

« ولقد أردت أن أكتب قصة الأموى ، فلم أجدها فى تاريخ من التواريخ فاعتمدت فى حديثها على أستاذنا الأكبر الشيخ المعمر الجليل عبد المحسن أفندى الأسطوانى ، وهو - حفظه الله - ، أعجوبة العجائب ، جاوز المائة (كتبت هذه المقالة سنة 1379) ولا يزال فى حدة ذهنه ، وقوة ذاكرته ، وكثرة علمه ، وسرعة بادرته ، وحضور نكتته ، كما كان فى شبابه .

« وبعد فهذه هى القصة أذكرها هنا لأن كثيراً من كهول أهل الشام فضلاً عن شبانهم نسوها ، ولا يعرفون قصة حريق الأموى وبنائه :

« كانت ضحوة يوم السبت رابع ربيع الثانى سنة 1311 هـ ، وكانت دمشق آمنة مطمئنة ، والناس منصرفون إلى أعمالهم فى الأسواق المطيفة بالأموى ، والنساء فى بيوتهن الحافة بالجامع ، فما راعهم إلا صريخ يصرخ كأنه النذير العريان : أن لقد احترق الأموى ، فترك التجار مخازنهم مفتوحة ووثبوا ينظرون ، وصعد النساء على السطوح ، وتراكض الناس من كل جهة ، وإذا الدخان ينبثق من سقف الجامع ، ولم يكن فى دمشق فى تلك الأيام مصلحة إطفاء (وقد أنشئت على إثر هذا الحادث) ، وحار الناس ماذا يصنعون فاستبقوا إلى سجاد المسجد ومصاحفه يخرجون ما يصلون إليه منها ، وعمد

بعضهم إلى الماء يصبّونه ، وإلى المعاول علّهم يحصرون النار ، ولكن النار كانت أسرع منهم ، إذ كان خشب السقف قديماً جافاً ، وعليه من الأصبغة والأدهان طبقات ، فما شم رائحة النار حتى التهب كله دفعة واحدة ، كأنما قد صب عليه البنزين . وكانت الرياح في ذلك اليوم غربية شديدة ، فما مرت نصف ساعة فقط حتى صار السقف كله شعلة واحدة ، وجعلت قطع النيران تتساقط من كل مكان ، فالتهب الجامع كله ، ولم يعد أحد يستطيع أن يقترب منه ، فوقفوا ينظرون ، وكأن النار التي تأكل مسجدهم تأكل قلوبهم ، ولكن العجز أمسكهم وقيدهم ، وكانت غمد (أي أعمدة) المسجد قديمة أكثرها ، ومربوطة بأطواق الحديد ، فتشققت من النار ، ثم هوى البناء كله ، وزلزلت الأرض ، وكانت ساعة من ساعات الهول ، وامتدت النار تسوقها الرياح الغربية إلى الأسواق المحيطة في المسجد ، وانجلى الدخان عن الخراب الشامل . لم يبق من الأموي إلا المشهدان عند باب البريد ورواق الصحن ، غدا الرواق الممتد بين باب النوفرة إلى مشهد الحسين . أما سبب هذه الكارثة فهو أن أحد العمال الذين يشتغلون على سطح المسجد ، راقه المنظر من حوله ، فاشتهى أن يدخن نارجيلة (شيشة) فأحرقت هذه الشيشة الجامع كله » .

ولست أريد الآن أن أذكر حريق الأموي ولكن أريد أن أقول : إن هذا الشيخ (الشيخ عبد المحسن الأسطواني) كان التاريخ الحي الذي يمشي لدمشق . كان يعرف كل بقعة منها ، ويروي تاريخها .

سألته مرة ، فقلت له : إن سور دمشق لا يزال باقياً ، والأبواب السبعة معروفة قائمة : باب الفرج (باب المناخلية) ، وباب الفراديس (باب العمارة) ، وباب السلامة (باب السلام) ، وباب توما ، والباب الشرقي ، والباب الصغير (باب الشاغور) ، وباب الجابية . فأين الباب الثامن الذي كان

يسمى باب النصر ؟ قال : وأين تقدر مكانه ؟ قلت : فى رأس سوق الحميدية ، فضحك وقال : أصبت كان هناك وأنا أعرفه .

قلت : لماذا نجد للقلعة خندقاً من الجهة الشرقية (فى العصرونية)[1] ، وليس لها من الغرب خندق ؟ قال : وماذا يوجد فى موضع الخندق ؟ قلت : سوق الخجا . قال : هو ذاك ، لقد استأذن والد محمد أفندى الخجا الحكومة ، فاشترى منها الخندق ، وردمه وبنى هذا السوق[2] .

وأنا أعرف أخوين من آل الخجا ، بنى أحدهما مسبحاً ، والآخر مسجداً ، ومنهم رجل هاجر إلى المدينة اسمه كامل أفندى الخجا ، رأيته فى زيارتى الأولى للمدينة المنورة 1353 هـ .

ومن المصادفات الغريبة أن أول شارع فتح فى دمشق : وهو شارع جمال باشا ، لما انقضت الحرب وأرادوا أن يمحوا اسم جمال باشا فلا يذكر ، سموه شارع النصر ، يريدون النصر على الأتراك ، فجاءت مصادفة ، كأنها عن تعمد ، فأصابوا الحقيقة من حيث لا يقصدون .

***

أمضى الشيخ هذا العمر الطويل فى مناصب الإفتاء والقضاء ، وكان معدوداً من صدور العلماء ، يرجعون إليه ، ويعتمدون فى الفتوى عليه ، لما كان العلماء فى دمشق متوافرين وكانوا كثيرين . ولقد خطر على بالى وأنا أكتب هذا سؤال هو : كيف نحكم على الرجل بأنه عالم ؟ ما هو مقياس العلم؟

---

(1) نسبة للقاضى ابن أبى عصرون من قضاة الدولة الأيوبية .

(2) وقد سمعت الآن أن سوق الخجا قد أزيل كما أزيل ما كان يحجب الأموى من غربيه وجنوبيه .

لما وضعنا نظام قسم الدراسات العليا فى كلية الشريعة فى مكة أصرَّ نفر منا على اعتبار الشهادة هى المقياس الذى لا يعتبر غيره ، فلا يكون مدرساً فيها إلا من هو دكتور ، وعارضت أنا ، وقلت لمعالى الوزير العالم ابن العلماء ، الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ : لو بعث الله جدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب هل كنت تستطيع أن تجعله مدرساً ؟ بل لو جاء أحمد بن حنبل وهو لا يحمل شهادة ، هل كنت تملك أن تجعله معلما فى مدرسة متوسطة ؟ إن الله الذى أبلغ ابن عبد الوهاب وابن حنبل ما بلغاه بلا شهادة ، قادر على أن يبلغ ذلك غيرهما ، وأول من حمل شهادة الدكتوراه فى الدنيا من منحه إياها ؟ إن قلنا: إنه دكتور دخلنا فى باب المحال ، أى فى الدور والتسلسل ، فلم يبق إلاّ أن نقر بالواقع وهو أن أول من منح الشهادة كان رجلا لا يملك شهادة . فالشهادة شرط لا ألغيه ، ولكن لا أجعل المعول كله عليه .

وإن جاوزنا حد الوظائف الرسمية ، فمن هو العالم ؟ كيف نميزه ؟ إن كانت الشهادة ليست الشرط اللازم الكافى ، وكانت الشهادة يمكن أن تكون شهادة زور ، تؤخذ بالحيلة ، أو تشترى بالمال فهل نميزه بالتأليف ؟ هذا الشيخ عبد المحسن الذى أتكلم عنه شيخ علماء الشام ، بل هذا المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى الذى يقر له علماء الشام جميعاً بالرياسة ، ما تركا تأليفاً ، وأمثالهما كثير . كثير من العلماء ما خلفوا أثراً ، ولا ألفوا كتاباً بل ما كتبوا مقالة فهل ننفى أنهم كانوا علماء ؟ .

ما هو المقياس الصحيح للعالم ؟ المقياس الذى لا يتخلف ولا يخطئ ؟ أنا أعلم من جواب هذا السؤال نصف العلم ، فأقول : لا أدرى .

ولكن الذى أدريه ، أن علماء القرن الماضى والذى قبله كان علمهم غالباً

علم رواية ، حتى أنك عندما تنظر فى ترجمة أحدهم ، تجد أنه قرأ كتاب كذا وكتاب كذا فى النحو ، وفهمها وحفظها ، ولكن ما حصلت له الملكة التى تجعله يقول فلا يلحن ويقرأ فلا يخطئ . وأنه قرأ الكتاب الفلانى والكتاب العلانى فى الفقه وفى الأصول ، ولكن ما استنبط ولا حاول أن يستنبط من الأدلة مثل الأحكام التى حفظها ، وأن يبين حكم الله فيما جدّ للناس من معاملات ، كما بيّن الأولون ما كان منها أيامهم . أى أنهم يحيطون بما وجدوا علماً ويقتلونه فهمًا ، ولكن لا يزيدون عليه شيئاً .

وعلماء هذه الأيام يلمّون بالعلم أكثر مما يغوصون فى الكتب ، يفكرون ويكتبون ويؤلفون لكن اطلاعهم على ما كتب الأولون أقل مما ينبغى لهم .

عالم القرن الماضى علمه أكبر من عقله ، وعالم اليوم عقله أكبر من علمه .

ولست أعمم الأحكام ولكن أصف ما عرفت ، والذى عرفته قليل من كثير .

الشيخ عبد المحسن الأسطوانى سَنِين الشيخ بدر الدين الحسنى (أى أنه فى مثل سنه) ، بل لقد رأيتهما مرة والشيخ عبد المحسن يقول للشيخ بدر الدين أنا من سنك . والشيخ بدر الدين ، على عادته فى قلة الكلام ، وفى قطع الجملة وإتمامها بإشارة من يده قال : لا ، يابه - وكانت تلك كلمته - أنت وأشار بيده إشارة تدل على أنه أكبر .

الشيخ بدر الدين كان رجل جِدّ ، قليل الكلام ، لا يكاد ينطق إلا جواباً لمسألة ، أو شرحاً لمعضلة ، وإن كان فى درسه يتدفق تدفق النبع الفياض .

أما الشيخ عبد المحسن فكان رجلاً مع علو منزلته ، وكبر قدره مزّاحاً يحب النكتة ، ولا يمسكها ، ولو كان مجيئها من تحت خط الاستواء البشرى (أى من

تحت معقد الزنار) وأحفظ عنه في ذلك الكثير ، ولكن لا سبيل إلى ذكره في جريدة سيارة تتلقفها أيدى الرجال والنساء والكبار والصغار .

وما ذلك بقادح فيه ، فإن من سلف هذه الأمة من علمائها الكبار ، من كان يمزح مثل هذا المزاح .

***

لما تركت التعليم وانتظمت في سلك القضاء سنة 1941 وانتقلت بعد سنوات قاضياً في محكمة دمشق الكبرى ، كان الشيخ عبد المحسن كبير القضاة ، وكان رئيس محكمة التمييز الشرعية ، وكنا نرجع إليه إذا اعترضتنا معضلة .

كنا جماعة من القضاة نتناقش في مسألة تتعلق بالنفقة ، وكنت أعرف أنها في حاشية ابن عابدين فرجعت إلى الحاشية فلم أجدها . وأصررت على أنها فيها ، وأنكر زملائي أن تكون المسألة في الحاشية . فذهبنا إلى الشيخ عبدالمحسن ، وكانت المحكمة الشرعية ومحكمة التمييز في دار كبيرة من الدور الدمشقية الفخمة القديمة ، وذلك قبل بناء القصر العدلي الذي جمع المحاكم كلها ، فسمع مني ومنهم ، وقال : الحق معك ، ولكن لماذا لم تجدها وهذه الحاشية أمامك ؟ فسكتُّ . قال : لأنها لم تذكر في باب النفقة ، ولكنها جاءت عرضاً في باب أدب القاضي .

كان اطلاع الشيخ عبد المحسن على كتب المذهب الحنفي : أصوله وفروعه ، اطلاعاً عجيباً وكان في الجملة جوّال الفكر ، متحرر الذهن ، ولكن لما صدر قانون البينات وأنقذنا من القيود الشكلية التي لا داعي إليها ، ولا ضرورة لها في سماع الشهادات ، وجعل قبول الشهادة أو ردها للقاضي ، على أن يعلل للقبول أو للرد ، عارض الشيخ هذا القانون ومنع تطبيقه في

المحاكم الشرعية وأعادنا إلى ما فى « المجلة » وهو أن القاضى آلة مسجلة ، عمله أن يسمع شهادة الشاهد ولا يناقشه ، فإن كانت الشهادة مصرحاً فيها بكلمة « أشهد » وكانت جامعة لشروطها الشكلية قبلها ، وإن نقص شرط منها ردها ، وإن كان الصدق يظهر من كل كلمة فيها ، وإن نطق الشاهد بكلمة «أشهد » وأدى الشهادة على هيئتها قبلت ، ولو كانت كاذبة رائحة كذبها تملأ جو المحكمة ، والكذب يقطر من كل حرف فيها .

ثم تكون « التزكية » ، والأصل فى التزكية أن تكون من إنسان معروف بالصدق والأمانة ، له منزلة فى النفوس ، لا يختلف اثنان فى عدالته . ولقد كان من سنن القضاة الأولين أن القاضى الذى ولى قضاء بلد يبحث ويحقق ، ثم يسمى من يرتضى أمانتهم ودينهم ، وهؤلاء هم العدول ، فمن كان يريد تثبيت عقد أشهدهم عليه ، فكان عملهم قريباً من عمل كتّاب العدل فى أيامنا .

وأقول بالمناسبة إن الذى وضع كلمة « كاتب العدل » ترجمة لكلمة «نوتير» الفرنسية هو الأستاذ مصباح محرم ، من قدماء القضاة أيام العثمانيين : الذى كان رئيس محكمة التمييز فى دمشق على عهد الشريف فيصل بن الحسين . وكان أبى رئيس ديوان المحكمة ، وذلك بعد خروج الترك من دمشق ، وقد أخذها من قوله تعالى : ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: 282] .

هذا أصل التزكية ولكنها انتهت إلى أن صارت لعبة أو فضلاً من مسرحية . يسمع القاضى الشهادة ، فيكلف المدعى أن يأتى بمزكية ، فيخرج فيجلب اثنين ممن يجدهما أمامه فيزكيان الشاهدين ، وتنتهى الرواية ، ويصدر الحكم ، ويسدل الستار ، ولو اقتصر الأمر على هذا لهان ، ولكن كان عندنا شهود يدعوهم الناس شهود المصطبة يقعدون فى المحكمة ، وهم على درجات : شاهد من الدرجة الثالثة ، يحفظ ما تلقيه عليه ، ثم يدلى به إلى القاضى ، وهذا أرخص الشهود أجراً . وشاهد من الدرجة الثانية يكون على شيء من

العلم والفهم ، وشاهد من الدرجة الأولى أو من درجة ممتاز ، وأجره أيضاً ممتاز . يكون عارفاً بشروط الشهادة ، فقيها عالماً ، ولكنه كعلم إبليس ، يتخذه وسيلة للدنيا ، فكلما فتح عليه الخصم باب اعتراض سده بما أصاب من العلم .

ولقد كنت وأنا صغير أذهب مع أبى لزيارة الشيخ عبد المحسن فأقبل يده وأيدى أمثاله من العلماء ، كما كان يصنع أمثالنا من الصغار ، مع أمثاله من الشيوخ الكبار . واستمر ذلك حتى صرت قاضياً عنده ، فكنت أقبل يده كلما دخلت عليه ، فيظن من يرانى أنى أفعل ذلك لأنه رئيسى ، فأفهمتهم أنها عادة تعودناها من الصغر .

ولكنى مع هذا التقدير له ، وهذا الإجلال لعلمه عارضته لما منع تطبيق قانون البيّنات ، وخطبت وكتبت أرد عليه ، وأذكر أن البينة لا تنحصر فى الشاهدين ، بل إن الشاهد الواحد مع يمين المدعى مما ثبت به الأثر ، وأن الأخذ بالقرائن القضائية أمر معتبر ، وقد وردت فى ذلك السّنة ، وأن الإسلام لا يحجر على العقول ، ولا يجمّد الأفكار ، وكان اعتمادى فيما قلت على كتاب « الطرق الحكمية » لابن القيم أولاً ، وعلى كتب أخرى كثيرة .

فتغيّر الشيخ علىّ قليلاً ولكنى ما باليت ، لأن علىّ أن أكون مهذباً مؤدباً وأن أوقر الكبير ، ولكن إذا جاء الدين فلا مجاملة لأحد . ومضيت فى معارضته ، أخطب فى النوادى وأكتب فى الصحف ، وأثير من يقدر على الإفصاح ، وكنت فى شبابى إلى العنف أقرب منى إلى الرفق ، وإلى الشدة أدنى منى إلى اللين ، فتبدلت الآن مع الشيب والصلع وصرت أرفق وألين ، وإن كان الطبع لا يتبدل بالتطبع :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وانتهى الأمر بأن انتصرنا ، أعني انتصر الحق الذى نؤيده ، وطبق قانون البينات فى المحاكم الشرعية ، وبقى فى نفس شيخى على شىء .

بقى على رأس عمله إلى أن بلغ السنة الثالثة بعد المائة ، ولا تعجبوا من ذلك فإن قانون التقاعد فى سوريا (قانون المعاشات) لا يطبق على علماء الدين من الأئمة والمفتين ، بل يبقى الواحد منهم فى عمله حتى يخرجه منه ملك الموت .

لما ترك الوظيفة صار يمضى أكثر وقته فى بيته بل فى فراشه . والعجيب أن جسمه قد صغر وتضاءل وانضم بعضه إلى بعض ، حتى صار كجسم ابن عشر سنين . والإنسان ينمو ثم ينمو حتى يبلغ أشده ثم يأخذ بالنقص فتقصر قامته ، وتضمر عضلاته ، ولقد نقص طولى أنا الآن عما عليه كان .

حتى صار فى آخر أمره يرقد على سرير ، وأمامه سرير عليه زوجته التى عاش معها أكثر من سبعين سنة ، فإذا دخل عليه بعض الضيوف تغطت بلحافها .

وجئنا مرة نزوره مع الشيخ العانى ـ رحمه الله ـ ، والأستاذ يوسف الحسنى ، وجماعة . وأظن أنه كان معنا الأستاذ سعيد الأفغانى ، فوجدنا السرير الثانى فارغا ، فجئنا نقعد عليه ، فصرخ بنا بلهجة تمثيلية مضحكة : «المرة ، المرة » (المرة بمعنى المرأة وردت فى الشعر القديم) فنظرنا فإذا هى لما رأتنا دخلت تحت اللحاف فصارت من ضآلة حجمها كأنها كومة ثياب .

واختلفنا مرة فى عدة المرأة التى يفرق القاضى بينها وبين زوجها بطلبها ، هل تبدأ عدتها من تاريخ حكمه بالتفريق ، أم من تاريخ تصديق محكمة التمييز ؟ فقلت أنا : من تاريخ الحكم ، لأن محكمة التمييز لا تنشئ طلاقًا

جديداً ، ولكن تثبت الطلاق الأول . وقلت : نحتكم إلى الشيخ عبدالمحسن . فقال قائل [1] منا : إنه كبر ، يشير إلى أنه ربما أثر الكبر على ذهنه ، فأضعف ذاكرته وأفسد محاكمته . وكان عمره يومئذ مائة وإحدى عشرة سنة .

فقلت : سترون . وغدونا إليه ، فعرفنا ودعانا بأسمائنا ، ورحب بنا . فعرضنا عليه المسألة ، فمال إلى قولي ، وجعل يأتي بالدليل بعد الدليل من حفظه ، ويدعو بالكتاب بعد الكتاب من مكتبته ، فيقلب صفحات قليلات فلا يبطئ حتى يقع على المسألة فيعرضها علينا .

ولما أردنا الانصراف قال : سأبعث إليكم غداً مع الصغير بنصوص أخرى .

تدرون من هذا الصغير الذي سيبعث بها معه ؟ هو ولده الأستاذ عبد اللطيف المستشار معنا في المحكمة (محكمة النقض) وكان قد قارب الستين من العمر .

* * *

والشيخ عبد المحسن لو أوتي مع ذكائه النادر ، وعقله الوافر ، وعلمه الزاخر ، لو أوتي معها لساناً بليغاً ، وقدرة على البيان تعدل قدرته في العلم لما قام له إنسان ، ومثله في ذلك أستاذنا في كلية الحقوق سعيد المحاسني ، أقدر وأعلم وأذكى محام مدني شرعي عرفته على طول ما أمضيت من عمري في المحاكم ، وما رأيت من البلدان ، ومثله أستاذنا ، وإن لم يدرسنا ، الذي كان سلفي في القضاء في محكمة النبك ومحكمة دوما ، ومحكمة دمشق الفقيه الحنبلي ، من أسرة كل رجالها فقهاء حنابلة ، هو الشيخ حسن الشطي ، ومثلهما أستاذنا سليم الجندي الذي كان في العربية إماماً . وكذلك ترى أحيانا

---

(1) هو أخي رفيق الكلية ، وصديق العمر العالم المحقق البليغ الشيخ مصطفى الزرقا .

بلغاء أبيناء ، إذا كتبوا أورق القلم فى أيديهم وهو قطعة من خشب أو حديد ، وأثمر ما لا تثمر مثله الحدائق الغناء ، والبساتين الفيحاء ، وإذا خطبوا جعلوا أعواد المنابر شموعاً تضيء بلا نار ، وكهرباء تمشى فى الأعصاب بلا أسلاك ، فتوقظ النائم وتقيم القاعد ، وتجعل الأعصاب الباردة برد الثلج تغلى غليان ماء الشاى ، وتحول « مادرًا » ، من كان مثلاً مضروباً فى البخل ، إلى حاتم الذى كان رمز الكرم ، ولكنه مع هذه الفصاحة كلها ، وهذا البيان كله ، فارغ الرأس من العلم ، وتجد العالم المفكر الذى وسع رأسه ما أنتجت رؤوس العلماء وما اشتملت عليه كتبهم ، تجده عيياً إذا قال أو خطب ، ركيكاً أسلوبه إذا ألّف أو كتب ، كأن الله الذى لم يجعل هذه الدنيا دار كمال ، لم يؤت الكمال فيها أحداً غير الأنبياء .

***

لم يكن الشيخ عبد المحسن شجاعاً صدّاعاً بالحق ، ولكن لم يكن ناطقاً بالباطل ، كل ما يصنع أنه يبتعد ما استطاع عن مواقف الإحراج ، إلاّ إن ألزمه الشرع أن يبين حكم الله ، فما عهد عنه أنه كتمه أو قال بغيره .

وهو من كبار العقلاء لذلك قارب أن يعد من كبار الجبناء ، ذلك أن الشجاع لو فكّر وقدّر ما يتعرض له من المخاطر لما أقدم ، لأن « الإقدام قتال» ، كما قال المتنبى ، بل لو فكر المرء بعقله وحده وحسب احتمالات الضرر أو السلامة إن أراد أن يجتاز شارعاً تمر به السيارات ، ويزدحم فيه الناس لما اجتازه إلا إذا كان ينوى الشهادة فى سبيل الله ، فلا يكون الموت حينئذ موتاً ، بل هو الحياة الباقية التى لا موت بعدها .

لقد مضى ـ رحمه الله ـ ومضى علمه معه ، لأنه ما استودعه القرطاس ولا حفظه فى الصحف ، ولا روّاه (بتشديد الواو) تلاميذ له اصطفاهم وخرّجهم وعلّمهم . مضى معه علمه كما مضى علم الشيخ بدر الدين الحسنى الذى كان

فهرساً ناطقاً ومحساباً « كمبيوتر » حياً لأكثر ما تحت أيدى الناس من كتب فى علوم الدين وفى علوم الدنيا التى كانت معروفة فى عصره . دأب كل واحد منهما على المطالعة ، يمضيان فيها أكثر ساعات الليل والنهار ، لا سيما الشيخ بدر الدين الذى لم يكن له عمل إلا القراءة والإقراء ، ثم لم يؤلفا كتاباً ولم يتركا رسالة .

* * *

حسن الحكيم الهوى الأمين

أتكلم عن معمَّر آخر ، وكلمة المعمر ـ بفتح الميم ـ أما الذى عمره ، فهو الله ، ومن شائع الأخطاء أن يقال : فلان من المعمرين ـ بكسر الميم ـ.

عن رجل كان يوماً على رأس الحكم فى الشام ، وكان اسمه على كل لسان، ثم نسيه الناس ، حتى أن كثيراً من قراء الجريدة من الشباب ، من أهل الشام ، سيقولون : من حسن الحكيم ؟ .

حسن الحكيم ـ يا شباب ـ واحد من بضعة رجال كانوا أنظف وأشرف وأعف من عرفته سوريا . لا أستثنى ولا أتحرج ، ولا أغلو ولا أبالغ .

رجل كانت أموال التبرعات للثورة ، تمر تحت يده لو شاء أن يأخذ منها ، كما أخذ غيره ، لما رآه أحد ، ولو رآه لما لامه من رآه ، لأنه ممن جمعت هذه التبرعات لمثله .

وجاء العيد فكتب إلى أهله فى الشام ، وكان فى وادى السرحان ، مع سلطان الأطرش ومن لجأ إليه من بقايا الثوار ، لما ضاقت بهم الديار .

جاء العيد فكتب إلى أهله ألا يحرموا الأولاد من فرحة العيد ، وأن يشتروا لهم الثياب والأحذية ، من أرخص الجيد ، لا أجود الرخيص ، ولكن من أين الثمن ؟ .

يسحبون من رصيده فى المصرف ؟ إنه لم يكن له طول عمره مال محفوظ فى مصرف ، ولا مدخر فى الدار ، بل يبيعون ما يستغنى عنه من الفرش التى ينامون عليها ، ما كانوا ينامون على أسِرَّة ، ومما يستغنون عنه من القدور

و(الطناجر) من المطبخ ، لا من الحلى ، فما كان أهله من ذوات الحلى ، ولا كن من المترفات المنعمات ، ولا يبيعون من فاضل الأثاث ، فما كان فى بيته من الأثاث أكثر من الضرورى ، يبيعونه وينفقون منه على أنفسهم ، ويرسلون إليه ما يفضل عنهم ليعيش به .

رجل تقلد أكبر المناصب . صار وزيراً غير مرة ، وصار رئيس الوزراء ، وما ملك إلا شقة صغيرة ، صغيرة جداً ، عادية جداً ، فرشها عادى جداً . وعاش أكثر عمره بعد أن ترك العمل على راتب تقاعدى (على معاش) ، لا يبلغ راتب معلم ابتدائى مبتدئ ؛ ذلك لأن الأسعار لما غلت ، والرواتب لما ارتفعت ، لم ينل ارتفاعها معاشات المتقاعدين إلا قليلاً ، فبقيت كما كانت أو قريباً مما كانت ، ما زادت إلا زيادة ضئيلة فى الأيام الأخيرة ، ولقد كنت أنا لما أحلت على التقاعد ، فى المرتبة الممتازة ، فى أعلى درجات السلم الوظيفى ، وما يبلغ معاشى الآن فى الشام ، بعد الخدمة الطويلة جداً ، ما يعادل خمسمائة ريال .

إن كان فى السياسيين وفى الزعماء وفى الرؤساء من يظن أنه صار من طينة غير الطين الذى خلق الله منه الناس فترفع عليهم ، ونأى بجانبه عنهم ، وشمخ بأنفه عليهم . . . . فإن حسن الحكيم بقى وهو وزير كما كان وهو موظف صغير ، بقى ابناً للبلد وأخا لأبناء البلد . بقى يحمل زنبيله (سلته) ويذهب إلى السوق فيشترى الخضر والفاكهة لأهله ، ويقف على الجزار يتخير القطعة التى يريدها ، فيقطعها له ، فيحملها إلى أهله ، كما كان يقف من قبل .

وهذا الذى يحبب الزعيم إلى الشعوب ، لا سيما نحن العرب . يحبون أن يشعر الزعيم الناس أنه مثلهم ، وهذه سنة سيد الزعماء ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما رأى الرجل يرتعد من هيبته ، قال له يطمئنه : إنما أنا ابن امرأة من

قريش كانت تأكل القديد . يقولها صادقاً - ﷺ - كما علمه الله أن يقول : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ مثلكم في ولادتي وموتي ، في مرضي وصحتي ، في تركيب جسمي : جهاز تنفسي ، وجهاز هضمي ، لكني اختصصت بأنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف : 110] .

كانت أول مرة سمعت فيها باسم حسن بك الحكيم لما جاءت لجنة الاستفتاء الأميركية برئاسة المستر كراين ، التي أرسلها الرئيس الأميركي ، فكان هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر يصحبان اللجنة ليسمعاها رأي شعب الشام ، رأي الشعب السوري في الحرية وفي الانتداب ، حين كانت الأسواق تضج بهذا النشيد ، تصدح به الحناجر في كل مكان :

نحن لا نرضى الحماية . . .

لا ولا نرضى الوصاية . .

نحن أولى بالرعاية . .

لبني العرب الكرام .

ثم لم أسمع به إلا عندما أرسل الجنرال غورو إنذاره المشهور للملك فيصل ابن الحسين ، بأن يقبل الانتداب الفرنسي ، ويسلم سكة حديد سوريا للجيش الفرنسي ليستعملها ، وأن يقبل النقد السوري ليتعامل الناس به ، وأن يسرح الجيش . سمعت يومئذ اسم حسن بك الحكيم الذي كان مديراً عاماً للبرق والبريد ، وشاع في الناس أن الملك فيصل بن الحسين قبل الإنذار ، ولكن حسن بك لم يرسل البرقية بالقبول . ثم كذّب حسن بك هذا الذي شاع وبقي سر البرقية مجهولا إلى الآن ، أو بقي مجهولا مني على الأقل .

ولما كان الاضطراب الخمسيني العظيم ، النادر المثال سنة 1936 ، وكنت

قد ابتعدت رسمياً عن العمل الطلابى ، وصرت موظفاً ، وتولى أمر الطلاب جماعة من إخواننا أظهرهم الدكتور منير العجلانى ، قررت الكتلة فك الإضراب وفتح البلد ، وعارض هذا جماعة شهبندر وزكى الخطيب ، وكان حسن بك من أقرب الزعماء إليه وعارضه تبعاً له جماعة من الشباب كالأستاذ محمد كمال الخطيب .

كان من المقرر أن يخطب الدكتور العجلانى فى الناس ، ولكن صوته لم يسمع الناس ، فقدمنى للخطابة وكنت إلى جنبه فى شرفة قهوة الكمال ، تحت جامع تنكز . وإننى لأتخيل الآ ن المشهد كأنه أمامى ، مع أنه مر عليه الآن ثمانية وأربعون عاماً[1] . كانت ساحة المرجة (ساحة الشهداء) على سعتها ممتلئة بالناس ، حتى أنها لو هطلت الأمطار غزيرة لما بلغت الأرض منها قطرة . وما كان عندنا فى تلك الأيام مكبرات للصوت ، ولا عرفناها ، فخطبت خطبة ليس هذا موضع الكلام عنها ، لأننى إنما أتحدث عن حسن بك الحكيم وربما عدت إلى حديث الإضراب والمعاهدة .

لم أقابله مواجهة إلا فى العراق ، وكان لاجئاً إليه ، بعد أن لجأ حيناً إلى عمان ، وتوالت اجتماعاتنا وسهراتنا ، فوجدت فيه دمشقياً أصيلاً ، ومسلماً متمسكاً ، ورجلاً مستقيماً صادقاً صريحاً يعلن رأيه لا يبالى أوافق رأى من كان حوله أو خالفهم ، بعيداً عن الرسمات والمظاهر والتكلف ، أما نزاهته ونظافة يده وأمانته ، فإن ألد أعدائه لم يستطع أن ينال منها ، أو أن يطعن فيها ، أو أن ينكر عليه شيئاً منها .

كان أحد النفر الذين عرفوا بالنزاهة ، حتى صار المثل يضرب بهم فيها ، منهم عارف النكدى ، وقد مر بعض حديثه ، ومنهم زكى الخطيب الزعيم

(1)من تاريخ كتابة هذا الفصل .

الوزير المحامى ، وهو ابن عم أمى : أبوها الشيخ أبو الفتح الخطيب . وهو ابن الشيخ أبى الخير الخطيب ، فهو ابن عمها ، وابن عم محب الدين الخطيب .

عرفته من فوق المنبر فقد كانت العادة فى الشام ، كلما كان اجتماع ، ولو كان عقد نكاح فضلاً عن حفلات المناسبات الدينية والوطنية . كذكرى الهجرة وبدر ، كانت العادة فى الشام فى هذه الاجتماعات أن يخطب الخطباء والحفلة التى لا يخطب فيها خطيب كالعرس الذى لا تغنى فيها مغنية . وكان الخطباء يومئذ معدودين منهم زكى الخطيب ، والشيخ بهجة البيطار ، والشيخ جودة الماردينى مدير المدرسة الكاملية ، وهو أول شيخ فى دمشق حلق لحيته ولبس الحلة (البذلة الإفرنجية) ، واعتمر فوقها بالعمامة ، فكان منظره مفرداً عجباً . ثم لما كبر على الطنطاوى ، وجاء على أثره مظهر العظمة ، ومحمد كمال الخطيب ، انضموا أو ضمهم الناس إليهم فصاروا من خطباء الحفلات ، وكنت أنا من بينهم أكثرهم خطباً ، وكان الناس لى أشد طلباً .

ولقد خطبت فى عقود لا أحصيها ، منها عقد الشيخ مصطفى السباعى ـ رحمه الله ـ وعقد الشيخ الدكتور محمد الصباغ ، وعقد الشيخ فخرى الحسنى ، كما خطبت فى جنازات لا أستطيع عدها ، كجنازة الشيخ بدر الدين ، والشيخ محمود ياسين ، والشيخ عبد القادر الخطيب ، والشيخ أبى الفرج خطيب الجامع الأموى ، وهو والد الصديق الدكتور عدنان نائب رئيس مجمع اللغة العربية فى دمشق ، وهو أيضاً ابن عم أمى ، أبوه هو الشيخ أبو الفرج الخطيب وشقيقه الأستاذ صلاح الدين الخطيب شيخ القضاة فى الشام ، هو والد زوجتى .

أعود إلى حسن بك الحكيم فأتساءل : هل هو سياسى يعد فى السياسيين؟ الجواب : لا أظن . إن للسياسة أخلاقا ما كان لحسن بك نصيب منها ، فما

ميزته إذن ؟ ميزته الصدق والأمانة ، وأنه إن ولى عملاً أداه على ما يرضى الله ، ويريح الضمير ، ويكفل المصلحة .

ولما ولى رياسة الوزارة سنة 1941 مع الشيخ تاج ـ والشيخ تاج خال زوجتى ، شقيق أمها ـ كنت قاضياً فى النبك ، فخاف قوم من بطشه وشدته ، وآمل قوم كانوا يتزلفون إليه بالترقى والنفع على يديه . فقلت للفريقين : إنكما على خطأ . إن حسن بك لا يعرف الحقد ولا الانتقام ، ولا يؤثر فيه التزلف ولين الكلام ، بل إنه لا يراعى فى المصلحة العامة أى صلة شخصية ، فهو يعزل أو ينزل صديقه الأدنى من الموظفين إن كان سيئاً لا يصلح ، ويرفع وينفع عدوه إن كان صالحاً ، فانتظروا تروا .

وانتظروا فكان كما قلت .

ما كان حسن بك عالماً ، ولكن كان على إلمام جيد بالعلوم الإسلامية والعربية ، يكتب كتابة لا يعد بها فى البلغاء ، ولكن يعبر بها بأسلوب صحيح عما يريد من المقاصد ، ينظم بعض الشعر ، وما كان شاعراً . وعندى مقطوعة بخطه فى وصف الشاى الأخضر الذى كنت أصنعه ، يثنى علىّ فيها ثناء الكبير على الصغير ، ليست الآن تحت يدى ولكنها عندى ، كتبها لما كنا فى بغداد فى عشر الثلاثين (أى فى الثلاثينيات) .

ولى وزارة المالية غير مرة ، وصار رئيس الوزراء وبقى يعيش كما كان يعيش أولا : يركب الترام ويقف على اللحام .

عندى مقالة طويلة وجهتها إليه لما ولى المديرية العامة للأوقاف ، ولم تكن لها يومئذ عندنا وزارة ، عنوانها « إلى القوى الأمين حسن الحكيم » فيها اقتراحات نافعة للأوقاف حقق ما استطاع تحقيقه منها ، وهى فى جريدة ألف باء يوم 18 أيلول (سبتمبر) 1937 .

وقدم مرة للحكومة ، برنامجاً إصلاحياً شاملاً . فكتبت فى « النصر » أو فى « الأيام » ، نسيت ، كلمة ـ ليست تحت يدى ـ أقول فى آخرها : إما أن تأخذوا ببرنامج حسن الحكيم ، أو أن تنزلوا بضيافة أسعد الحكيم . وكان الأستاذ الكبير ، العالم الأديب عضو المجمع العلمى ، الدكتور أسعد الحكيم ، أول طبيب اختصاصى فى الأمراض العقلية فى الشام ، وكان مدير مستشفاها .

لما ولى رئاسة الوزارة أقبل الناس أفواجاً على شيخنا ، الشيخ محمد بهجة البيطار ، وهو ابن خالته ، وهو أصغر منه سناً ، ولكن حسن بك يعرف له قدره ويكبر فيه علمه ، ويصغى إليه ، ويستمع منه . وقد عرفتم أن شيخنا الشيخ بهجة لم يكن يرد سائلا ، ولا يرفض طلباً لطالب ، فحار ماذا يصنع . وكنا عنده ، فقلت له : تسمع اقتراحاً من تلميذك ؟ قال الشيخ : نعم . قلت : ليس بينك وبين حسن بك حاجب ولا بواب ، فتخبره بما أنت فيه ، وتسأله هو المشورة فيما تصنع .

فأخذ بذلك ، وعرض الأمر على حسن بك فاتفقا على أن يستمع الشيخ بهجة كل طلب وكل شكاة ، ويخبر بها الرئيس حسن بك ، ويقول للناس : أنا علىّ أن أوصل الطلب أو الشكوى ، وهو يقبل ما يراه حقاً ، ويرد ما يراه باطلاً . وكان ذلك فاستراح شيخنا ، ورضى الناس ، وأنصف أقواما من ظلامات كانت واقعة عليهم ، وكشف أقواماً كانت لهم مطامع يسترونها بمظاهر التقوى والصلاح . كان رجلا من طراز نادر ، لو أحصينا أمثاله فى الناس لما وجدنا من أمثاله إلا قليلاً ، ولكننا أمة لا تقدر رجالها ، أمضى ثلث القرن الأخير من حياته التى امتدت مائة وأربع سنوات فى حالة أدنى إلى الفقر وإلى الحاجة ، ما وجد منا من يكرم شيخوخته ، ومن يسهل عليه حياته .

فى كتابى « مقالات فى كلمات » الذى طبع سنة 1379 هـ فصل عنوانه

«تكريم الأحياء» ، قلت فيه : ذكرت البارحة معروف الأرناؤوط الذى وليت تحرير جريدته « فتى العرب » سنة 1930 م وكتابة افتتاحياتها ، معروف الذى غنى للجمال وهتف للحق والخير ، وخلف فى الأدب والصحافة أثمن تراث ، فعجبت من الأدباء ، وعتبت على الصحفيين ، كيف نسوه جميعاً وأهملوه حتى لم تقم له حفلة تأبين ؟ ومثله يوسف العيسى من كان فى فن الصحافة إماماً .

وأعجب منهما النابغة العبقرى الذى قُصفَ قَصْف الغصن الطرى ، بعدما ملأ زهره الأرض عطراً أحمد شاكر الكرَمى ، الذى أعطاه الله ثلاثة إخوة أدباء ، فلم يخطر على بال واحد من الثلاثة أن يفى لأخوة النسب ولا لأخوة الأدب ، فينفض « الميزان » مجلة الأستاذ الكرمى حتى يخرج منها آثاره ، وينفض الأذهان حتى يجمع منا أخباره ، وتركوه ينسى خبره ، ويمحى أثره .

والعلماء ، هل كان حظ العلماء أوفر من حظ الأدباء ؟ [1] .

من ألف فى سيرة السيد محمد بن جعفر الكتانى [2] ، والشيخ عطا الكسم[3] ، والشيخ نجيب كيوان ، والشيخ أبى الخير عابدين ، والشيخ أمين سويد ، والشيخ مسعود الكواكبى ، والشيخ محمود ياسين ؟ ومن كتب عن الشيخ عيد السفرجلانى الذى لبث سبعين سنة كوامل ، يعلم الناس ، حتى كان من تلاميذه الولد ، وأبوه من قبله ، وجده من قبلهما ، وحتى صار نصف الكهول من المتعلمين فى الشام فى تلك الأيام من تلاميذه ، والشيخ عبدالقادر المبارك ، أستاذ البلد ، والشيخ محيى الدين الخانى ، شيخ المعلمين ، والذين مضوا من عباقرة الفن والصناعة ، وأعلام الخلق والنبل والإحسان ، من كل

(1) بلغنى من قريب أن أحدهم كتب عنه كتاباً فتشت عنه فلم أصل إليه .

(2) وحفيده صديقنا الأستاذ المنتصر .

(3) وولده رئيس وزراء سورية اليوم .

رجل سيرته قصة بارعة من قصص الخير ، ودرس قيم من دروس الأخلاق .
وإذا كنا ننسى الأموات لأنهم لا يذكرون ، لا يشكرون ، فَلِمَ لا نكرم الأحياء من العظماء ونقوم بحقهم ونكرم جهادهم ؟ .

لماذا لا يقيم القضاة والمحامون حفلات التكريم لشيخ القضاء مصطفى برمدا ـ واسمحوا لى أن أدع الألقاب فإنما أكتب مؤرخاً لا مادحاً ـ ولا يقيم أهل العلم حفلات للشيخ عبد المحسن الأسطوانى ، ولسليمان الجوخدار ، وأبى الخير الميدانى ، ولشيوخ التعليم : سعيد مراد ، وعبد الرحمن السفرجلانى ، ومصطفى تمر ؟ وأهل الأدب : كمحمد كرد على ، والمغربى ، والجندى ، والبزم ؟ ويقيم الجامعيون لشيوخ الجامعة : لشاكر الحنبلى ، وعبد القادر العظم ، وفارس الخورى ، وجميل الخانى ، ومصطفى شوقى ، وسعيد المحاسنى ، وأمثالهم من رجال السياسة والعلم والأدب .

إنى لأرجو ألا تذهب هذه الكلمة كما تذهب صيحة على شاطئ البحر الهائج ، لأن الأمة التى لا تكرم نابغيها ولا تقدر رجالها ، يقل فيها النبوغ وتقفر من الرجال .

هولاء الذين كتبت عنهم هنا كلهم ذهبوا إلى رحمة الله ، وكثير منهم نسيه الناس ، وهذا الرجل الكبير حسن الحكيم الذى تكلمت عنه اليوم نسيه الناس من قبل أن يموت . وكم من الرجال عظماء نشؤوا فينا فى هذه السنين الأواخر فأهملنا ذكرهم ، وطمسنا أثرهم ونسينا أسماءهم .

إن الميت لا ينفعه فى الدنيا ثناء ، إنما تنفعه مغفرة الله ، ودعوة صالحة ينالها بها . ولكن أدعو إلى ذكر هؤلاء والثناء عليهم وعلى أمثالهم فى كل بلد ؛ لتكون سيرهم عند نشرها قدوة للناشئين من الشباب ، ومشاعل تضىء لهم طريق الحق والصواب .

مع بعض مشايخى

كنت فى المدرسة كلما ذكر أستاذنا الجندى أو أستاذنا المبارك اسم كتاب أسرعت إلى مكتبة دارنا أفتش عنه ، فإن لم أجده بادرت إلى شرائه ، على ضيق ذات يدى وقلة مالى ، فسمعت يوماً اسم كتاب « المعمَّرين » لأبى حاتم السجستانى فاشتريته ، فإذا هو كتاب صغير جداً ، فيه مبالغات ، ولكن مؤلفه كبير بين الرواد ، ولما تحدثت عن الشيخ الكافى والشيخ عبد المحسن الأسطوانى ، وقد عاش الأول مائة سنة ، والثانى مائة وثمانى عشرة ، ذكرت بعض من عرفت من المعمرين .

منهم رجل يلى الشيخ عبد المحسن فى السن ، ولكن لماذا لا أذكر القصة من أولها ؟

كنت سنة 1363 هـ قاضياً فى دوما ، وكنت أركب الترام من دارى فى المهاجرين إلى المرجة وهى ساحة الشام الكبرى ، مركز البلد يومئذ ، ثم أركب الترام منها إلى دوما ، فكان الطريق يستنفد منى ساعتين كاملتين . وكنت يومًا فى الترام ، وكان مزدحماً براكبيه كما تزدحم فى العلبة أسماك السردين . وكان إلى جانبى فتى من المتأدبين ، فقال لى : من هذا الشيخ المهيب الطلعة ، البادى الأناقة ، ذو الشيبة المشرقة ، والعمامة الإسطنبولية ، الذى لا ينفك ينظر إليك ؟ فتلفت حيث أشار ، فلما أبصرته أسرعت إليه فقبّلت يده ، وحييته بتحية فيها المحبة والإكبار ، فجعل يسألنى عن حالى وعملى ، حتى بلغ الترام آخره فى ساحة المرجة ، التى سميت بعد ساحة الشهداء ، فقال لى : إلى أين ؟ قلت : إلى دوما ، فهل تتفضلون بزيارتها ؟ فضحك وقال : ألا تدرى أنى كنت سلفاً لك فيها ؟ قلت : لا والله يا سيدى ، فمتى كان ذلك ؟ قال :

احزر. فذهبت أقول قبل عشرين . . قبل ثلاثين سنة. . وهو يضحك فلما عجزت وسكت قال : لقد كنت قاضياً في دوما سنة 1301 هـ .

ولما فارقناه جعل صاحبي يلحف عليّ بالسؤال عنه ، وأنا ذاهل عن سؤاله لا أسمعه ، أفكر في هذا الشيخ : أي تاريخ حي في ذهنه ؟ أي دنيا في ذاكرته؟ وأتصور هذا الدهر الطويل بين أيامه وأيامي في دوما هذا العمر الكامل ، اثنتان وستون سنة ، كم تبدلت فيها الأيام ، وتغيرت الوجوه ، وقامت وقعدت الحكومات ، وكانت حروب وكان سلام ، وولد ناس ومات ناس ، وذهب الأتراك وجاء فيصل ، وذهب فيصل وجاء الفرنسيون ، وذهب الفرنسيون وجاء الاستقلال ؟ وكان حرب البلقان ، ثم حرب سنة 1914 ، وحرب 1939!!.

ولقد تبدل في البلد كل شيء ، وهذا الشيخ ثابت لم يتبدل ، مقيم على حاله لم ينزح عنها ، وأحاول أن أتخيل ما في رأسه ، وكيف ينظر إلى هذه الدنيا . .

فأذكر به أهل الكهف . . وأي فرق بينه وبينهم ؟ وهل في سكان دوما الذين يبلغون خمسة وعشرين ألفاً (في تلك الأيام) من يعرفه لو جاءهم ، أو يذكر أنه كان قاضياً فيها ؟ وكم تكون سنه اليوم ، وقد كان قاضياً في دوما منذ اثنتين وستين سنة ؟ وقضاء دوما أكبر أقضية سورية كلها ، ولم يكن يولاه يومئذ من هو دون الثلاثين ؟ .

وضاق رفيقي ذرعا بسكوتي ، فجذب يدي فانتبهت ، فقال : من هذا الشيخ ؟ قلت : ألا تعرفه ؟هذا العالم الجليل ، هذا الذي كان مفتي الديار الشامية سنة 1325 ، قبل ولادتي أنا بسنتين ، بعد المفتي الأشهر محمود الحمزاوي ، والمفتي المنيني ، والمفتي شيخ قطنا ، وقبل أبي الخير عابدين ،

وعطا الكسم ـ رحمهم الله ـ والمفتي الأسطواني الذي جاء بعدهم ـ رحمه الله ـ أيضاً . ولي الإفتاء والبلد حافلة بالعلماء الأعلام ، فلم تطل ولايته ؛ لأنه أراد أن يسير الأمور على ساق الحق وحدها . والأمور في الدنيا لا تمشي غالباً إلا على ساقين من حق وباطل . وهذه الكلمة مروية عن ابن عباس ، قالها عن علي بن أبي طالب ، ولست أدري هل قالها فعلاً أم تقوّلها الرواة عليه ، ونسبوها إليه ؟ .

نظر هذا الشيخ لما ولي الإفتاء فرأى الأوقاف يأكلها متولّوها ، وفيهم الباشوات والوجهاء الكبار ، وأهل الحل والعقد في دمشق . ورأى بستان الأعجام الذي أقيم عليه اليوم حي الحلبوني من أفخم أحياء دمشق ، قد تقاسمه هؤلاء بحجج واهية ، وحقوق مزعومة أدّعوها على الأوقاف . فمنهم من كان له حق « القيمة » ، وهي في عرفهم الجدران وجذور البرسيم والدمنة ، يريد أن يمتلك البستان بها . وكان في الشام رجل وجيه مسموع الكلمة في الشام ، وعند السلطان في اسطنبول ، فقام الشيخ يحاربه بسيف الحق ، وأقبل المتولون يحاربونه مع هذا الرجل بسيوف الشغب وإيفاد الوفود إلى حاضرة الخلافة في اسطنبول ، وإرسال الكتب والمضابط . والحكومات في كل زمان ومكان ، إنما تحب الموظف الذي يألف ويؤلف ، ولا يهيج الناس عليه ولا يثير اللغط عليها ، فنقلوه إلى منصب أعلى ، ورتبة أكبر ، ولكنهم أبعدوه عن إفتاء الشام .

ذهب قاضياً إلى المدينة المنورة ، إذا سألتم أحد الشيوخ من أهل المدينة ، ممن يذكر تلك الأيام يخبركم خبرها .

وكان هذا الشيخ نائب الشام في مجلس النواب العثماني ، وكانوا أربعة نواب يقومون مقام المجلس النيابي في الشام الآن بطوله وعرضه وارتفاعه ، ولا أدري متى كان نائباً ، ولكني أذكر أن شاعراً دمشقياً من شعراء تلك الأيام

أرّخ سنة إرسالهم على طريقة حساب الجمّل ، التى كانت رائجة ، وكان الشعراء يتبارون فيها ، فكان التاريخ أسماء النواب الأربعة : « سليمان ورشدي والشفيق ومحمد » وهذا من عجائب التاريخ ، وسليمان هو هذا الشيخ الذى أتحدث عنه ، الشيخ سليمان الجوخدار ، ورشدى هو رشدى بك الشمعة ، والشفيق : شفيق بك المؤيد ، وآل المؤيد فرع من آل العظم ، ومحمد هو محمد فوزى باشا العظم والد خالد بك العظم .

كان هذا الشيخ الرئيس الأول لمحكمة التمييز (النقض) عشر سنين ، وكان وزير العدل مرات ، فكان على علو سنه أشد الوزراء مضاء ، وأحدهم ذكاء ، وأجرأهم على الإصلاح . هذا بطل معاهدة الشعبانى اقتنع بها ورآها في مصلحة الشعب فدافع عنها ، وناضل دونها ، واحتمل فى دفاعه ما لا يحتمل سياسى فى الدنيا من أذى العامة ، وسخرية الناس ، وما عرضوه له من المهانة . ولم يَنِ ، ولم يتقاعس ، ولم يؤثر السلامة .

كان هذا الشيخ أستاذ الشريعة فى كلية الحقوق ، وكان قاضى منطقة الزيتون أيام العثمانيين ، وقد تنبه ببعد نظره ، وصدق فراسته ، إلى ما كان يبيته الأرمن ، ونبّه الحكومة إلى الخطر قبل وقوعه ، ولكنها لم تأخذ بتنبيهه ، فقامت ثورة الأرمن التى لا نزال نقرأ فى الجرائد عقابيلها وبقاياها وما يصنع الأرمن برجال الترك .

والعجيب أن هذا الرجل على علمه الكبير ، وعلى أنه ولى أكبر المناصب القضائية فى الشام ، وكان له أظهر الأثر فى السياسة لم يكتب عنه أحد ، حتى أن الأستاذ خير الدين الزركلى لم يذكره فى الأعلام .

اتصل بعد ذلك حبلى بحبله ، فكنت أزوره فى داره فى المهاجرين مع الأستاذ سعيد الأفغانى ، والأستاذ الشيخ عبدالقادر العانى ـ رحمة الله عليه ـ

والأستاذ يوسف الحسنى وجماعة ، فكنا نجد عنده تاريخًا ناطقًا ، ما قرأه فى الكتب فوعاه فى ذهنه ، ولكن عاشه .

كان منهجه اليومى أن يقوم قبل الفجر فيتهجد ، ثم يذهب فيصلى الغداة فى مسجد الحى ، ويبقى فيه إلى ما بعد طلوع الشمس ، ثم يعود إلى داره فيأكل شيئاً خفيفاً ، ثم يمشى ساعتين كل يوم ، فمن ذلك كنت ترى وجهه وهو فى هذا العمر مورداً طافحاً بالصحة والقوة ، ثم يشترى حاجات داره بيده ، ثم يعود إلى الدار فلا يخرج منها إلا إلى الصلاة .

فإذا صلى العشاء انقلب إلى فراشه ، لا يكلم أحداً بعده إلا فى ضرورة لابد منها ، أو إيناس ضيف دخل عليه ، أو فى حديث العلم .

وقد خبرنى أنه لما صار قاضياً فى (القضاء) - والقضاء أصغر جزء فى التقسيمات الإدارية فى البلاد العثمانية والبلاد التى انبثقت عنها كالشام ، كان يجد الموظفين يسهرون كل ليلة عند قائم المقام ، فيمضون الوقت كله فى أحاديث تافهة ، أو فى اغتياب الناس ، أو فى الدس عليهم . أى أنهم يهدرون أوقاتهم فيما لا نفع لهم فيه ، بل فيه الضرر عليهم ، فجعل يجمعهم على كتاب يقرؤونه أو درس يسمعونه ، ثم اخترع طريقة جديدة ما أظن أن أحداً سبقه إليها ، وهى أنه كان يعمد إلى الطبقة المتميزة من الموظفين ومن المتعلمين فى البلد الذى ولى قضاءه ، فإذا كانت جلسة اختار للجلسة التى بعدها موضوعاً من الموضوعات العلمية أو الفكرية أو الاجتماعية ، ثم قال لهم : ليعد كل واحد منكم نفسه للكلام فى هذا الموضوع فى الجلسة المقبلة ، ودلهم على المراجع فى هذا الموضوع ، فمن أراد منهم وقدر رجع إلى هذه المراجع فدرسها فازداد بها علماً ، ومن لم يقدر ، أو لم يرد هيأ نفسه للكلام فيه ، ولقد جربت هذه الطريقة لما عينت قاضياً فى النبك سمة 1941 - وسيأتى الخبر

بالتفصيل ـ فوجدت فيها خيراً كثيراً .

هذا الرجل واحد من عشرات ، بل من مئات من الرجال ، كان فى حيواتهم [1] وفى أفكارهم درس للناس لو أن تراجم حيواتهم دونت وكتبت وألفت فيها الرسائل ، ولكن خبره ضاع فى الدنيا كما ضاع الكثير من أخبار أمثاله من كبار الرجال .

***

وممن عرفت من الجنود المجهولين والرجال العاملين الذين لم تصل إليهم أضواء الشهرة فيعرفهم الناس ، ولكن الله يعرفهم ويثيبهم برحمته ويجزيهم على أعمالهم : معلم الشام الشيخ عيد السفرجلانى ، وقد كتبت عنه كثيراً . وكان من أوائل من فتحوا المدارس الأهلية الابتدائية فى دمشق ، لبث سبعين سنة معلماً ، تعلم عنده الولد ، وأبوه من قبله ، وجده من قبلهما . وقد رأيت فى سجلاته أن أبا الجد قد تعلم عنده . كانت له مدرسة فى المناخلية فى دمشق ، إلى جنب باب الفرج ، وهو أحد الأبواب الباقية لدمشق . وسور دمشق وأبوابها لم تذهب به أحداث الزمان ، ولا يزال باقياً إلى الآن ، ثم انتقل إلى المدرسة الجقمقية ، عند باب الأموى الشمالى الذى يفضى إلى باب الفراديس من أبواب دمشق السبعة ، وهذه المدرسة من أجمل المدارس الأثرية فى دمشق ، وقد عنيت بها مصلحة الآثار أخيراً ، فجددت بناءها ، وأعادت نقوشها ، ولكنها أغلقت أبوابها ، والعمارة المطلوبة فى الإسلام ليست عمارة الأركان والجدران ، ولكنها عمارة العلم والإيمان ؛ ولذلك أثبت الله للمشركين أنهم عمروا المسجد الحرام حين قال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة : 19] . ولكنه نفى عنهم عمارة

(1) حيوات جمع حياة .

العلم والإيمان ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة : 18] .

هذه المدرسة هى التى تعلمت فيها فى نهاية الحرب الأولى ، ثم صرت معلماً فيها ، وكان أبى من تلاميذها ، وصار معلماً فيها ، وكل ذلك والشيخ عيد السفرجلانى هو صاحب المدرسة وهو مديرها ، وقد كتبت عنه كثيراً فلا أعود الآن إليه ، وأذكر أنه لما توفى سنة 1931 كنت أشتغل فى جريدة « الأيام» عند الأستاذ عارف النكدى ، فكتبت مقالة عن الشيخ عيد ، فقال لى بعض إخواننا هناك : ومن هو الشيخ عيد ؟ أنشغل القرّاء بشيخ كتّاب ؟ .

فثرت عليه وأسمعته ما لا ينتظر سماعه منى ، وبينت له أن شيخ الكتاب هذا ، وأن معلمى مدارس الحضانة والمدارس الابتدائية ، هم الذين يضعون الأساس ، ولا يقوم البناء إلا على أساس ، مهما كثرت طبقاته وعلت شرفاته ، فينبغى أن نطالب معلم الابتدائى بالكثير من العلم ومن الخلق ، وأن نعطيه الكثير من المال ومن التقدير .

وكان لشيخنا الشيخ عيد السفرجلانى ولد هو أستاذنا عبد الرحمن السفرجلانى . كان من أقدم المعلمين فى دمشق يدرس الرياضيات ، ثم صار المدير الثانى (وكيل المدرسة) فى مكتب عنبر . وقد اخترع لنا ، لما كان مديرنا فيه ، مكافآت مطبوعة مذهبة مكتوبة بالخط الكوفى والخط الفارسى والثلث ، سماها الاستحسان والتقدير والامتياز ، وجعلها درجات ، ولا تزال عندى طائفة منها ، لو أنها وضعت فى إطار وعلقت على جدار لكانت لوحة فنية ، يريد أن يحفز بها الطلاب إلى الجد وإلى الاجتهاد .

عاش عمراً طويلاً جداً ومات وقد بلغ عمره السابعة والتسعين ، لم يبق بينه وبين المائة إلا ثلاث سنوات . رأيته يوما فى مجلس شيخ القضاء فى الشام ، مصطفى برمدا ، الرئيس الأول لمحكمة التمييز (محكمة النقض) وكان يستقبل الناس صباح الجمعة إلى وقت الصلاة فإذا دنا وقت الصلاة ، استعد فذهب

وذهبوا إلى المسجد لأدائها ، لا كمجلس العقاد يوم الجمعة ، وقد حضرته مرة مع أخوى الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا ، والأستاذ نهاد القاسم ، وزير العدل أيام الوحدة ـ رحمة الله عليه ـ فوجدت القوم لا يصلون ، ويبقون فى هذا المجلس إلى الساعة الثانية ، فتركناهم وخرجنا . أقول : إنى وجدت الأستاذ عبد الرحمن مرة فى مجلس مصطفى بك ، وكان فى المجلس الأستاذ جميل بك الدهان ، الرجل المعمر الذى كان المدير العام للأوقاف ، وكان قبل ذلك متصرف حمص دهراً طويلاً ، فجرى ذكر أيام المدرسة فاشتركوا جميعاً فى الحديث عنها ، فاستأذنت وسألت مصطفى بك : هل كنتم فى مدرسة واحدة ؟ فقال الأستاذ عبد الرحمن : نعم ، فضحك مصطفى بك ، وقال : نعم ؛ ولكن كنا نحن التلاميذ ، وكان هو الأستاذ ، ودخل فجاء بصورة قديمة يبدو فيها مصطفى برمدا وجميل الدهان ولدين صغيرين واقفين مع التلاميذ ، والأستاذ عبد الرحمن قاعد على الكرسى مع المعلمين وله شاربان معقوفان .

وكان من تلاميذه شكرى بك القوتلى ، أى أنه عاش حتى رأى تلاميذه قد بلغوا أعلى المراتب وجاوزوا من أعمارهم الستين سنة . ولما أصدر حسنى الزعيم قراراً بإلغاء الأوقاف الذرية ، واحتاجوا إلى من يحسب أنصبة المستحقين فيها ، وقد يبلغون أحيانا المئات فى وقت طويل يستمر عشرات من السنين ، كان أول الحاسبين الذين يقسمونها ويعرفون الفرائض ، ويتقنون الحساب الأستاذ عبد الرحمن السفرجلانى ، والشيخ جميل الشطى مفتى الحنابلة .

وكانت له أجوبة عجيبة . كنت مرة راكباً فى سيارة النقل الجماعى فى الشام ، وكنت فى الصف الأول ، والسيارة كبيرة ، فيها ستون راكباً وهى مزدحمة ، فسمعت ضجة من ورائى فسألت الجابى (الكمسارى) : ما القصة؟ فضحك وقرب فاه من أذنى وقال : والله شىء عجيب ، أترى هؤلاء البنات ؟ فرأيت ثلاث بنات شابات متبرجات واقفات فى ممر السيارة . قلت : نعم .

قال : لما صعدن تعرضن لهذا الرجل العجوز ، وأسأن إليه بالكلام ، فتناولهن بسلسلة من النكات والأجوبة المسكتة ، حتى جعلهن هزأة بين الناس ، ولا يزال يتكلم ينتقل من مثل إلى مثل ، ومن موعظة إلى موعظة ، ومن نكتة إلى نكتة ، وكلها تنصب على رؤوس هؤلاء البنات كصب الحميم ، ولم يكد يتم كلامه حتى سحبت إحداهن حبل الجرس ، لتقف السيارة . ووقفت ونزلن هاربات منه .

***

ولما كنا صغاراً كان شيوخ المعلمين فى الشام ثلاثة : الشيخ محيى الدين الخانى ، وأسرة الخانى منسوبة إلى خان شيخون . وهى أسرة كبيرة ظهر منها علماء أجلاء ، ورجال كبار منهم الدكتور حسنى سبح وصلاح والكواكبى وجميل الخانى ، أحد الذين وضعوا المصطلحات العربية الطبية مع إخوانه حمدى الخياط ومرشد خاطر وشوكت الشطى ، والثانى الأستاذ عبد الرحمن السفرجلانى ، وأسن منه وأكبر فى القدر يومئذ الأستاذ سعيد مراد .

ولما انتهت الحرب الأولى وأغلقت مدرستنا التى كانت منسوبة بالاسم لجمعية الاتحاد والترقى ، وإن لم يكن بين الجمعية وبينها صلة بالفعل ، وأغلقت هذه المدرسة ، ذهبت ـ كما عرفتم ـ إلى المدرسة السلطانية ، وكنا إذا قلنا : المدرسة السلطانية ، أردنا بها يومئذ المدرسة الثانوية ، كان المدير الأول أى المدير العام الأستاذ سعيد مراد ، وكان المدير الثانى أى مدير القسم الابتدائى الأستاذ شريف أقبيق ، وأسرة أقبيق أسرة دمشقية صغيرة ، وأظن أن معنى أقبيق باللغة التركية : الشارب الأبيض ، ولست متحققاً .

كان للأستاذ سعيد مراد يومئذ هيبة فى نفوسنا ، بل رهبة ، لعلو منزلته ولأنه المدير الأول ، الذى يأمر وينهى هذه المجموعة الكبيرة من الأساتذة ،

وهذا الجيش المحشود من الطلاب . وكنت أصنع أحذيتى عند حذاء كبير ودكانه مواجهة للباب الجنوبى لمسجد بنى أمية ، الذى يفضى إلى الحرام ، أى إلى بيت الصلاة رأساً . وكان صاحب هذه الدكان شيخاً بعمامة من آل الأسطوانى .

والمشايخ الذين كانوا يعملون فى التجارة والصناعة كثيرون ، ربما عدت يوماً إلى الكلام عنهم ، يتكسبون بعملهم لئلا تدفعهم الحاجة إلى الخضوع للحكام ، أو إلى استجداء احترام العوام ، أو إلى مد أيديهم إلى أصحاب الأموال ، وهذه سنة سلفنا من الصحابة والتابعين والأئمة الكبار ، يتكسبون أموالهم بعملهم ، وما ذل العلماء إلا عندما مدوا أيديهم إلى أرباب الحكم ، أو أصحاب الأموال .

أعود إلى الموضوع : ذهبت يوماً لأفصل حذاء جديداً ، وكنت تلميذاً فى السلطانية الثانية ، فرأيت فى الدكان ما جمد خطواتى ، وثبتنى فى مكانى فلم أستطع أن أتقدم ، وظهر ذلك علىّ ، وجذب الأنظار إلىّ ، فما الذى وجدته؟ .

وجدت مديرنا الأستاذ سعيد مراد ، وكان أقرب إلى الطول ، وكانت له لحية صغيرة شقراء ، فاستدعانى واستدنانى ، وثبت روعى ، وكلمنى كلام أب محب ، لا كلام أستاذ مرهوب .

ومرت الأيام الطويلة وصرت قاضى دمشق ، وكنت يوماً على قوس المحكمة أنظر فى قضايا الناس ، والقاعة الكبيرة ممتلئة بالمحامين والمتقاضين والشهود والموظفين ، وكلهم مستعجل يريد أن ترى قضيته وينصرف ، فنظرت من الشباك ، فرأيت فى ساحة المحكمة رجلا كبير السن ، قائما على قدميه ، قد أحنى الدهر ظهره ، فعرفت فيه مديرنا الأستاذ سعيد مراد .

فقلت للإخوان : أنا مضطر لرفع الجلسة عشر دقائق ، ونزلت من فوق القوس ، وخرجت من القاعة ، وهم يحسبون أننى إنما خرجت لحاجة طبيعية عارضة ، لابد منها ، ولا يستغنى عنها ، وأنى ذاهب إلى الحمام ، فرأونى قد ذهبت إلى هذا الشيخ ، فقبلت يده وسألته أن يدخل معى لأقضى حاجته ، إن كانت له حاجة . فدخل معى فأصعدته القوس إلى جانبى ، وقلت للحاضرين : هذا شيخ المعلمين ، وهذا أستاذى علمنى كما علم آلافًا وآلافا من أبناء هذه الأمة ، أفلا ترون من حقه على وعليكم وعلى البلد أن أستمهلكم لأنظر لما جاء من أجله ؟ .

قالوا : نعم . وظهر الرضا على وجوههم ، وبان أن فى هذه الأمة لخيراً كثيراً ، وأن الكرم والنبل لا يزال فى أعماق قلوبها ، ولكن ربما غطت عليه المطامع أو هموم الأيام .

ونظرت فى حاجته وقضيتها ، فسألنى : من أنت ؟ قلت : انظر إلىّ لعلك تعرفنى . فنظر ولكن بصره قد ضعف فلم يتبينى . فقلت له : أنا فلان . فذكرنى ودعا لى وترحم على أبى . وأوصلته إلى باب القاعة حتى خرج ، ولا يزال منظر دموعه وهى تقطر من لحيته التى كانت يوماً شقراء فصارت بيضاء مثل الثلج منظراً لست أنساه وأحمد الله عليه .

ولم تمض إلا أيام حتى جاءنى من يخبرنى أن أستاذنا سعيد البحرة قد توفى ، وأن داره قريبة من المحكمة ، وأن الناس على عادة أهل الشام يجتمعون فى بيت من بيوت الجيران للاستعداد لتشييع الجنازة ، وكذلك كنا . كنا إذا كان فرح ، أو كانت مصيبة ، فالفرح فرح أهل الحارة جميعاً ، والمصيبة مصيبتهم جميعاً ، يفتحون أبوابهم ويقدمون ما عندهم ، مشاركة فى الفرح أو مواساة فى الألم .

لم أكن أحضر مثل هذه الاجتماعات ولكنه أستاذنا ، كان يدرس الفلسفة ولم أقرأ عليه إلا مدة قصيرة جداً ، لذلك ذهبت فأجلسوني في صدر القاعة وحفوا بي إكراماً للمنصب لا لشخصي ، لأن لمنصب القضاء عند الناس حرمة ليست لغيره من المناصب ، وكان الناس يدخلون ويخرجون ، فنظرت فإذا بين الداخلين الأستاذ شريف أقبيق ، وهو مديرنا الثاني في المدرسة السلطانية ، لما كان الأستاذ سعيد مراد مديرنا الأول ، فقمت إليه فقبلت يده على عادتنا في تلك الأيام . كان فيها الصغار يقبلون أيدي الكبار ، يحترمون مدرسيهم وأولي الفضل فيهم ، وعزمت عليه إلا أن يجلس في مكاني وقلت للحاضرين : هذا أستاذي ، ومهما علا المرء ، أو اغتنى ، أو ارتفع قدره ، فإنه يبقى أمام أستاذه صغيراً ، كما كان من قبل ولداً صغيراً . وكان لذلك أطيب الأثر في نفسه .

***

ولست أحصي الآن من قرأت عليه ، أو جلست بين يديه ، أو استفدت منه فإنهم كثيرون لا يحصون ، ولكنها ذكريات ، أذكر ما حضرني منها ، وما دعت المناسبة إلى ذكره . ومن ذكرته لا أؤرخ هنا لحياته ، ولا أتتبع أخباره ، ولا أجمع آثاره ، فلست في مقام المؤرخ ، ولكني في موضع من يتذكر .

وكان في دمشق مجلس الشيوخ ، لست أعني مجلس الشيوخ الذي يكون في البرلمانات ، فما هذا بمجلس له سلطان ، ولا له صفة رسمية ، ولكنه مجلس يضم جماعة من أجل شيوخ البلد ، ولا يقبل فيه إلا من جاوز الستين من العمر ، فكان فيه جلة العلماء ، وكان فيه من كبار الموظفين الإداريين ، وكان فيه من الوجهاء الذين لهم في تاريخ البلد ذكر ، ولهم في إصلاحه أثر .

أذكر منهم ـ ولست أحصيهم ـ : الشيخ عبد القادر المغربي ، والأستاذ محمد كرد علي ، وفارس الخوري ، وبديع المؤيد ، ومحمود الصباغ ،

والرئيس هاشم بك الأتاسى ، وجماعة كثيرون لا تحضرنى الآن أسماؤهم ، ولكن فى ذهنى الكثير من أخبارهم ، ومنهم من سأعود إلى الكلام عنه إن شاء الله كلامًا مفصلاً .

ما كنت عضواً فى هذا المجلس ، ولكن كنت المراقب الثانى . أما المراقب الأول فهو الأستاذ جودة الماردينى ، كنت أحضره مستأذنًا منهم لأدون ما أسمع فيه من أخبارهم ، ومن ذكرياتهم ، ومن أخبار البلد التى لا أجدها إلا عندهم ، ولكنى وهذا من نقائصى لم أكتب شيئاً من ذلك ، بل استودعته ذاكرتى .

وكانت ذاكرة وفية ، وكانت قوية ، وكانت لا تضيع أمانة ائتمنتها عليها ، ولا تضعف عن حملها فأضعفتها الأيام ، فلم يبق مما حوت إلا القليل . وهذا القليل هو الذى أضعه فى هذه الصفحات .

* * *

الشيخ أمجد الزهاوي

لما كنا صغاراً كان شيوخنا أحسن الله إليهم ـ يبعدوننا عن كل ما يفسد ملكتنا الأدبية أو يدخل العجمة والضعف على أساليبنا ، لذلك لم أقرأ قصص « ألف ليلة » حتى كبرت وصلب عودى واشتد ساعدى ، فلما قرأتها وجدت شهرزاد « كلما أدركها الصباح سكتت عن الكلام المباح » .

فإذا انقضى النهار ، ودجا الليل ، عادت فوصلت ما كانت قد قطعت ، ومشت من حيث وقفت .

وأنا اليوم مثل شهرزاد ، مثلها فى حديثها ومقالها ، لا فى حسنها وجمالها .

قطعت الحديث فى الحلقة الماضية لما صعد المنبر الشاب العراقى الموصلى ، وفارقتكم قبل أن أسميه لكم .

فاعلموا الآن أن اسمه محمد محمود الصواف .

ولقد عرفتم أنى أقمت فى العراق سنينًا مدرساً فيها ، من سنة 1936 أتنقل ما بين البصرة فى أقصى الجنوب ، إلي كركوك فى الشمال ، ولكنى لم ألق الصواف ولم أسمع به . وأنى لى لقاؤه أو معرفة اسمه ، وقد كان طالباً يمشى مع الآلاف والآلاف من أمثاله ، فى طريق بعيد عن أضواء الشهرة ، ثم تفجرت مناقبه رأساً ، فذهب إلى مصر طالباً ، ولم يكن فى سن الطلاب ، بل

كان كبيراً ، أحسب أنه كان فى الثلاثين من عمره ، وقد أودع الله صدره من الحماسة نبعاً لا يغيض .

وكل امرئ يأتى عليه حين من زمانه تتفجر فيه حماسته ثم تهدأ ، كالبركان يثور ثم يخمد ، والريح تهب ثم تركد . والصواف بركان ظل أبداً نشطاً عاملاً . لقد بلغ الآن السبعين ولو حاول أن يصبغ لحيته ، وأن يستر شيبته ، ولا يزال إن كلمك تورد وجهه ، وعلا صوته وهدرت كلماته ، وظهرت حماسته . وأنا من هذا القبيل ولكن حماستى كانت لهباً طويل اللسان ظاهراً للعيان ، فصارت ناراً بطيئة كمثل الفحم الحجرى ، وربما كانت نار الفحم الحجرى أشد حراً ، وأطول عمراً ، ولكن لا لهب لها . فإن ألقت فيها الأحداث وما أكثر أحداث الدنيا ، رشة من البارود الناعم صارت قنبلة .

أما أثره فى العراق فأرجو ألا يكون حديثى الذى سأتحدث به سبباً فى نقص ثوابه من الله الذى عمل له وحده ، وما أظن أنه طلب جزاء إلا منه وحده ، وأنا إن مدحته فما أمدحه رغبة ، وليس عنده شيء أرغب فيه ، ولا رهبة وما لديه ما أرهبه أو أخافه منه ، لذلك كان مدحى إياه ، أو مدحى غيره ، لله . كما أن نقدى ـ إن نقدت أحداً ـ لله ، لا نفع لى أرجوه من الأول ، ولا خطر علىّ أخشاه من الثانى .

ولو نظمت ديوانا فى مدح إنسان وهو حى ، أو ديوانا في رثائه وهو ميت ، لما نفعه ذلك ولا ضره ، ولعمل مثقال ذرة من الخير وترك مثقال ذرة من الشر أجدى على الإنسان وأرجح فى الميزان من ذلك كله .

بل أنا قد رثيته فعلاً لما شاع أنه قتل . . أيام حكم عبد الكريم قاسم . وألفوا

في قصة قتله رواية لو أخرجت فيلماً لكانت من أخلد المآسى الأدبية . وكان لى يومئذ حديث دائم من إذاعة دمشق فذكرته وعرفت قصة قتله ، فلما جئت أقول : ـ رحمه الله ـ انعقد لسانى ، وشرقت بدمعى وغلبنى البكاء ونذرت زوجتى لما رأت جزعى إن كان الخبر مكذوباً أن تذبح لله خروفاً ، ثم تبين كذب الخبر وذبح الخروف ، وأظن أن الصواف ـ شفاه الله ـ سيحس فيدفع لى الآن ثمنه ! بل لا أريد ، قد سامحته ، على أن يذكر لى أنى وفرت عليه ثمن الخروف .

وكل هذا سيأتى خبره كما ستقرؤون خبر الجرائد اللبنانية التى كانت تمشى في ركب الناصرية ، وترون عناوينها الكبيرة التى روت قصة « ذبح الشيخ الطنطاوى » يوم الانفصال ، يوم ألقيت تلك الكلمة التى لم تبق إذاعة عربية لم تعدها ، ولم تكررها . وفى هذه المقالات تفاصيل عن ذبحى لا أدرى بأى براعة صحافية استطاعوا الوصول إليها ومعرفتها ، وأنا المذبوح لم أعلم بها ولم أعرفها .

***

كان فى العراق كما كان فى الشام وفى مصر ، وإن كان الذى في مصر أكبر وأكثر ، بل كان فى كل بلد إسلامى ، علماء كبار ، تجل أقدارهم ، وترتفع فى الناس منازلهم ، وتقبل أيديهم ، ويطلب دعاؤهم ، ولكن أكثرهم على طريقة علماء القرن الماضى .

إنهم مشايخ صالحون يحفظون ما يقرؤون ، ويفتون الناس ويعلمونهم ما يحفظون ، ولكن لم يكن فيهم إلا قليل جداً من الذين يفكرون فيضيفون جديداً

إلى القديم الذى تعلموه وحفظوه . كان العلم عندهم أمانة أدوها كاملة ، ما نقصوا منها شيئاً ، لكن ما زادوا عليها شيئاً ، ولا جددوا فيها ، ولا بدلوا طرائقها . والكلام على علماء الأمس وعلماء اليوم ليس هذا موضعه ، وربما وجدت موضعه فأفضت فى الكلام فيه .

كان فى العلماء قليل جاؤوا بجديد ، استعملوا عقولهم ولم يجعلوا عمدتهم ذاكرتهم ، كالشيخ محمد عبده الذى سمعت به ولم أدركه ، والسيد رشيد رضا ، والشيخ مصطفى المراغى ، والسيد الخضر الحسين ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، والشيخ محمود شلتوت . ومثلهم كثير فى مصر . وليسوا سواء : منهم من غلب ذكاؤه وفكره على علمه واطلاعه كالشيخ محمد عبده ، ومنهم من كان علمه أكثر ولكن لم يبلغ بالذكاء والتفكير هذا المبلغ كالشيخ رشيد رضا . ومنهم من كان عبقريا كطنطاوى جوهرى ، والعبقرية إن رسمت لها خطاً بيانياً ـ كما يقول الرياضيون ، أو استحدثت آلة لتخطيطها وتوضيحها كآلة تخطيط القلب فى ضرباته ـ لرأيت هذا الخط يعلو كثيراً ويهبط كثيراً ، حتى أن العبقرية لتدنو أحيانا من الشذوذ فيختلط بها ، ولا يكاد يميز عنها .

وكان فى العراق الألوسيان : المفسر المعروف والأديب المصنف صاحب «بلوغ الأرب» الذى كان أستاذ الأثرى استفاد منه ، وروى عنه ، ووقف على طبع كتبه .

***

كنت يوماً أحدث الشيخ أمجد الزهاوى عن أيامى فى كركوك قبل الحرب الثانية فقال لى : أليس عجيباً أننا كنا نرى ناراً تخرج من بين الصخور ، أو

صخوراً إذا أتيت منها لهباً اشتعلت فلم يخطر على بال واحد منها أن يحفر حولها ليرى مصدرها وسرها .

بل إنهم أهملوا عقولهم حتى اعتقدوا أنها نار مقدسة ، وسموها باب كركر . وأعجب منه أن الأمم تتقدم ونحن أحياناً نتأخر . أجدادنا كانوا يحاولون دراسة كل ما حولهم ، يبحثون عن القانون الإلهى الذى يسيره ، لا يكتفون بالمراقبة والفكر ، بل إنهم يعمدون إلى التجربة ليتبينوا صحة ما يرون هل هو صحيح أم هو من خداع العيون ، فسبقوا بذلك الناس إلى العلم التجريبى ونحن نكاد نقدس النفط .

فلما جاء من يتخذ الوسائل ، ويعد العدة ، وينزل فى باطن الأرض بأجهزته وآلاته ، وصل إلى مصدر هذه النار فاستخرج النفط الذى أغنى البلاد، وأفاد العباد .

هو الذى قاله الشيخ أمجد ينطبق عليه هو . كان كنزا مخبوءاً فكشفه الصواف . عاش الشيخ أمجد قاضياً فى الموصل فما عرفه أحد ولا عرف أحداً، حتى إذاجاء الشيخ الصواف عرف به الناس واستفاد مما عنده من العلم ومن العبقرية ومن النبوغ . لولا حماسة الصواف لما ظهرت هذه العبقرية المخبوءة . ولولا عبقرية الشيخ ما أثمرت حماسة الصواف ، ذلك أنها إذا كادت تخبو النار فنفخت فيها اشتعلت ، ولكن إن نفخت فى رماد بارد لم يظهر لهب النار .

لقد أعدته حماسة الصواف . أفتحسبون أن العدوى إنما تكون فى الأمراض وحدها ؟ لقد قرر خبير من خبراء الجمال اسمه البحترى أن الجمال يعدى كما تعدى الأمراض ، أفتحبون أن أقرأ عليكم تقريره العلمى ولو خرجت عن

الموضوع ؟ بل لقد خرجت فعلاً فسامحونى .

أما الشيخ أمجد وإننى أنقل لكم ما كتبته عنه فى حياته بإذنه قرأته عليه قبل نشره .

الشيخ أمجد كان بركة العصر ، وإنى لا أعرف فى العلماء مثله ، استفدت من صحبته فوائد كثيرة فى خلقى وفى تفكيرى .

عرفت الشيخ أول ما عرفته فى دار العلوم (الكلية الشرعية فى الأعظمية فى بغداد) وكان أستاذاً فيها ، وكنت أدرس فيها الأدب وأنام فيها ، وذلك سنة 1937 أو قريباً منها ، ثم تركت العراق وعدت إلى الشام فلم أره إلا فى المؤتمر .

ولقد عجبت من هذا النشاط الذى عراه فى شيخوخة ، فى السن التى يخمد فيها عادة فى نفوس أهله النشاط ، وعهدى به أنه كان قاضياً منعزلا ، منفرداً بكتبه وتلاميذه وأولاده ، فلما ترك العمل وبلغ السن التى يستريح فيها أمثاله انتفض انتفاضة فإذا هو يرجع شاباً : شاباً فى جسده ، وفى همته . وإذا هو ينتقل بقفزة واحدة من حياة بلغ فيها الغاية فى العزلة إلى حياة بلغ فيها الغاية فى الاختلاط ، فكان هو الرئيس لجمعية إنقاذ فلسطين وجمعية الآداب الإسلامية وجمعية الأخوة الإسلامية (أى الإخوان المسلمين) وجمعية التربية الإسلامية ، وإذا هو يصلح مدارس الأوقاف ، ثم يفتح مدرسة ابتدائية وثانوية أهلية ، وإذا هو يرحل إلى الهند أولا وثانيا ، ويرحل مرات ومرات إلى الشام والحجاز ومصر .

لما رأيته فى المؤتمر وسلمت عليه وذكرته بنفسى ، وقد درست معه فى مدرسة واحدة سنة كاملة ، قال لى : أنا لا أذكرك ، فحسبت ذلك منه تكبراً

وترفعاً واعتزازاً بالنفس وتجاهلاً للناس ثم علمت بعد ـ لما صحبته ـ أنه كثير النسيان ، وأنه صادق لا يعرف المداهنة ولا المجاملة ، فإذا كان لا يذكرني فيستحيل أن يقول لي : إنه يذكرني ، أو أن يجامل فيسكت إيهاماً وتضليلاً .

وقد ينسى من أمور الحياة ، القريب منها والبعيد . أما مسائل العلم فهو يذكرها مهما طال المدى ، ثم أخذت آلفه ثم أحببته ، ثم حل من نفسي من التجلة ومن المحبة محلاً لم يحتله إلا القليل ممن لقيت من فضلاء الرجال .

لما لقيته في المؤتمر بهذه العمامة المشوشة دائما ، التي اتسخت جوانبها من كثرة العرق ، واحمرت من صبغ الطربوش ، ورأيت ثيابه التي كانت أقرب إلى أن توصف بالرثاثة ، ورأيت شعره الذي لم يعرف الحلاقة من شهور ، ظننته فقيراً ، حتى لقد احتلت فجئته بقميص وبشاش للعمامة ، وقدمت المقدمات ليقبلها مني ، فلما رأى ذلك ضحك وقال :

ـ أفندي ، ظننتني فقيراً ؟ أنا أملك 16 ألف دونم .

والدونم ألف متر مربع ، وعلمت بعد أن له ذلك كله ، ولكنه لا يباليه ولا يفكر فيه . ورأيته لما كانت الرحلة قد تركه ومشى في سبيل الله ، ولما فاض نهر دجلة وغرقت بغداد كنا في كراتشي ، فحاولت مراراً أن أسأل عن مصير أرضه ، هل غرقت مع ما غرق أم هي قد سلمت مع ما سلم ، فكان يغضب ويقول :

ـ إني خرجت في سبيل الله فلا تشغل ذهني بها ! .

وهذا هو الزاهد حقاً ، الدنيا ملء يده ، ولكن قلبه مملوء بمراقبة الله وذكر الآخرة . كان يأكل الطيبات وينزل فى أكبر الفنادق ، ويلبس - إن وجد - الغالى من الثياب ، فإن لم يجد الغالى لبس الذى وجده ، لا يفرح بهذا الذى أتاه الله فرحاً يطغيه وينسيه دينه ، ولا يأسى ولا يحزن إن استرد الله ما أعطى أسى يؤيسه ويقنطه من رحمة ربه .

هذا هو الزهد حقاً ، زهد بعض الصحابة والتابعين وبعض الأئمة المتبوعين الذين كانوا يملكون الملايين : عثمان والزبير وابن عوف وأبي حنيفة والليث وابن المبارك ، لا زهد الصوفى الذى منع نفسه الفالوذج أربعين سنة ؛ لأن نفسه تشتهيه ، فعاقبها بمنعه عنها ، وهو قادر عليه من الحلال ، لأنه زعم أنه يخاف ألا يؤدى شكره ، فقال له الحسن البصرى : « يا جاهل ، وهل تستطيع أن تؤدى شكر الماء البارد ؟ » .

كان الشيخ أمجد كنزاً مخبوءاً فكشفه الصواف . كان كتاباً عظيماً مخطوطاً ، لا يعرفه الناس فطبعه ونشره الصواف وعرف به الناس .

رأيته لا يبالى طعاماً ، إن جئته به أكل من طيباته ، وإن لم يجد صبر ، فكان لا يقول لشىء منه : هذا طيب ، ولا لشىء منه هذا ردىء . بل يأكل كل ما يقدم إليه ، وكنت أنا على الضد منه ، قلما أستطيع أن آكل فى هذه الرحلة ما أجد ، وطعامى فى بلدى ألوان قليلة معدودة ، فإذا تبدلت ، أو تبدلت طريقة طبخها . لم آكلها ، لذلك كنت ألقى من السفر عنتاً ، وهو - والحمد لله - صحيح الجسم ، قوى المعدة ، فلا يبالى اختلاف ألوانه ، ولا تبدل مواعيده . وإن تركته بلا طعام لم يذكر الأكل .

ولقد حسبت ذلك تظاهراً منه ، فأحببت مرة أن أختبره وهو لا يدرى ، لأعلم هل يتجاهل أم هو لا يدرى حقيقة ، فقلت لغلام الفندق (أى للنادل) : الشيخ لا يريد اليوم طعاماً .

فلم يأته بطعام ، فلم ينتبه ، ولم يسأل . فلما كان موعد العشاء رأيته يقبل على الأكل إقبال جائع ، فسألته لماذا لم يتغدَّ قال : لم يأتونا بطعام .

ولما شك فى طعام فنادق الهند لأن الدار دار قوم لا يؤمنون بالله ولا بالإسلام ، وليست دار أهل كتاب ، بقى شهرين اثنين لا يذوق إلا الخبز والشاى ، وهو يشكو القبض حتى مرض .

لباسه ما قد رأيتم وسمعتم والمال لا يباليه ، والجاه لا يلتفت إليه ، وطالما دخلنا على ملوك وأمراء ، فكانوا يقدمونه ويمدحونه فلا يستهويه المدح ، ولا يؤثر فيه التقديم ؛ لأن همه كله الأمر الذى رحل من أجله وهو « قضية فلسطين» .

وأمره فى الوضوء والصلاة عجب ، فهو موسوس فى الطهارة لا فى النجاسة . فإذا لم ير النجاسة عيانا لم يبال . لذلك كان يصلى على الأرض ، وفى ممر الطيارة ، ولكن المصيبة فيما إذا تحقق النجاسة ، هناك وسوسته وشكه .

ولطالما كنا على موعد مع ملك أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء ، أو فى مؤتمر صحافى فكان يخرج ونصف جبته مبتل يقطر منه الماء ، فإذا لمته ، قال : أفندى تنجست .

وإذا سمع داعى الله ، ودخل وقت الصلاة ، قام من فوره أينما كان وكيفما كان . فهو يترك المائدة الملوكية والحفلات الرسمية ، رأيت هذا منه مرارا على مائدة الملك حسين فى عمان ، ومائدة رئيس وزراء باكستان ، وفى حفلات رسمية عديدة ، ويراه شيئاً عادياً ، ولا يفكر فى مخالفته للعرف ، وإن كانت السنة أن يكمل طعامه ثم يقوم للصلاة . ولقد كان عبد الله بن عمر أتبع الناس لسنة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وكان يأكل مرة فسمع الأذان والإقامة واستمر يأكل ، فلما سئل بين أن هذه هى السنة . ولعل للشيخ دليلاً على ما كان يفعله ويذهب إليه .

وأدركنا رمضان فى سفر وفى مناطق استوائية . كنا فوق خط الاستواء تماماً. فلم يفطر رغم الحر والسفر ، وإن كان الفطر أفضل .

وهو فى الحقيقة رجلان مختلفان : إن جئت للعلم وجدت له ذهناً نفاذاً عجيباً ، يخترق كل معضلة علمية ، لا بالرأى المقول ، بل برأيه هو . ولقد بقيت معه أكثر من سبعة أشهر وكنت أجالسه كل يوم أربع ساعات أو خمساً على الأقل ، يتكلم فيها على الغالب وحده . وهذا يزيد ـ إن صح حسابى ـ على ألف ساعة ، فما سمعت منه من الأحاديث المعادة أو الآراء المكررة إلا القليل، وربما ذكرت بالمناسبة بعضاً من آرائه فى هذه الذكريات .

ولكنه إلى جانب ذلك لا رأى له فى المشكلات اليومية ، ولا يحاول أن يعالجها ، وربما ترك الطريق الواضح المستقيم وسلك الطريق المعوج . لما كنا فى كلكتا ـ وسيأتى تفصيل الخبر ـ ترددنا بين الذهاب إلى دهلى (لا دلهى) أو الذهاب إلى بومباى قال : إنه لا نفع لنا من دهلى وذهبنا إلى بومباى ، ثم نصح

له من فيها بالعودة إلى دهلى فعدنا إليها ، واضطررنا أن نقطع عرض الهند مرتين ، وكانت أقرب إلينا لو قصدناها أولاً .

وأغرب من هذا أنه كان بين دهلى ولاهور مثل قاعدة المثلث المتساوى الساقين ورأسه كراتشى ، فسألته ونحن فى دهلى : أنزور لاهور ؟ قال : لا . فلما وصلنا كراتشى قال : إلى لاهور ، فقلت : أنا لا أذهب إليها ، لما كنت قريباً منها فعرضت عليك الذهاب أبيت ، أفموكل أنا بفضاء الأرض أذرعه لنعود إليها الآن .

وهو ينقاد فيما لا يعرفه كالطفل . كنا نركب الطيارة فأقول له : شد الحزام فيشده ، وأنسى أن أنبهه لحله إذا طارت الطيارة ، فيبقى الساعتين والثلاث ساعات وهو مربوط ، فيقول : أفندى هذا الحزام ، فأفكه له .

ورعه الورع الحق ، لا ورع التظاهر والرياء ، كان ينفق عن سعة من أموال الجمعية فى السفر والفنادق التى يراها ضرورية ، ولكنه لا ينفق قرشاً لحلاقة رأسه مثلا ، لأن ذلك ليس من نفقات السفر ، ولولا أنى أقسمت له مرة أن أدفعها منى ما حلق ، لأنه لم يكن يحمل معه مالاً .

وكانت رحلتنا لقضية فلسطين ، فإن لم يكن للقضية مصلحة من المقام فى بلد لم يقم فيه يوماً ، ولم يمش بغير هذا المقصد فيه يوماً ، ولم يمش بغير هذا المقصد متراً واحداً ، حتى أن (تاج محل) أجمل بناء على ظهر هذه الأرض ، لم يره ولم يمكنى من أن أراه . وقد كنا فى دهلى وهو فى (أجرا) وبيننا وبينه ساعتان بالسيارة ، والناس يقصدونه من أقاصى الدنيا ، لأنه لا مصلحة للقضية فى رؤية تاج محل ، وما جاء فى كتابى هذا من وصفه الذى قال من كتب عن

الكتاب أنه كان وصفاً رائعاً ، إنما كتبته على السماع .

وإذا وقف للصلاة ، نقى قلبه ونفى عنه كل ما يتصل بالدنيا ثم صرخ : «الله أكبر » فتحس أنها قنبلة ألقيت فى وجه الشيطان .

وهو يكره المتفرنجين ويألف المشايخ ، يجلس حيث يجلسون على الأرض ، ويأكل معهم ، وأنا لا أستطيع أن آلف هذا الأسلوب فآكل بأصابعى مثلاً ، ولا أسلوب الإفرنج فى الولائم الرسمية ، وكنت أتضايق فى الحالين .

يكره تقليد الإفرنج لكنه يقرأ ما يصل إليه من كتبهم ، ويروى النافع من أقوالهم ، ويضيق صدره إن حدثته عنهم ، أو قلت له ما يشتم منه رائحتهم ، لا سيما فيما لا يعرف من أمورهم .

وهو لا ينتظر تمام الجملة ، ولا يرقب الشرح ، بل هو يثور بى ويسكتنى وأنا رجل أعرف له قدره ، وأراعى سنه ، ولكن حدة طبعى لا تحتمل ذلك من أحد . فكان يقع بينى وبينه ما يكون بين الولد وأبيه ، والتلميذ وأستاذه .

لما وصلنا بومباى تلقانا الرجل الكريم الذى منّ علينا وهو السيد عبد الله البسام فسألنا : « هل تنزلون فى بنسيون ؟ » .

فغضب الشيخ غضباً ما رأيته غضب مثله ، وقال : « بنسيون ؟ بنسيون ؟ يحسب البنسيون ماخورا أو مكاناً للفسوق ، وحاولت أن أشرح له ما هو البنسيون فما تركنى أتكلم . وأما ذهوله ونسيانه فعجب من العجب .

قال لى مرة ونحن فى بومباى اذهب بنا إلى القنصلية السعودية ثم إلى العراقية فذهبنا فكانت القنصلية العراقية على طريقنا ، فقلت له : ندخل هذه

أولاً ؟ قال : باسم الله . فدخلنا وجلسنا جلسة طويلة ، وتحدثنا عن العراق وأهله . ولما خرجنا قال : هيا بنا إلى العراقية . قلت : كنا فيها . فغضب وقال : ليش ما تقولى . أنا أحسبها السعودية . قلت : أما رأيت العلم ؟ وصورة فيصل بن غازى ؟ أما حدثتهم عن بغداد ؟ ولكنه إلى جنب هذا يذكر من مسائل العلم ما قرأه من ستين سنة ، وهو فقيه حنفى متمكن ، له مشاركة فى كل علم ، كان محامياً ، ثم صار قاضياً ، ثم أمضى عشرين سنة رئيساً لمحكمة التمييز (النقض) ، وأستاذاً فى كلية الحقوق ، ومدرساً فى مدرسة قديمة من مدارس الأوقاف ، هى المدرسة السليمانية ، فلما منع القانون الجمع بين الوظائف وخير بينها اختار التدريس فى المدرسة الوقفية الصغيرة لأنها مدرسة أبيه ، ولأن العمل فيها لله وللدار الآخرة ، وترك رياسة التمييز .

وكان الشاعر الكافر الزهاوى عمه ، ولكنه قاطعه وهجره وأبغضه فى الله ، ولم يخرج فى جنازته لما مات .

هذا هو الرجل الذى كان لى شرف صحبته فكسبت منه علماً وديناً وخلقاً ، رحمة الله عليه وأجزل ثوابه .

***

أنور العطار شاعر الحب والألم والطبيعة

هذه حلقة مفردة ليست منظومة فى العقد ، بل إنها الفصل الذى يأتى بين فصول الرواية (انتراكت) فسامحونى إن أخللت بسردها ، وأعدكم أننى سأعود إليها .

أخذت جريدة « الشرق الأوسط » يوم الأربعاء 1 / 6 / 1405 ، فوجدت اثنين من بلدى ، هفا إليهما قلبى ، وأضرما ـ وما خمدت ـ لواعج الشوق إليه فى صدرى ، وضمخا بالعطر كل ما حولى ، فملأ الطيب مجلسى ، وكيف لا ، وهما عطار يكتب عنه عطرى .

فكأننى انتقلت معهما إلى الغوطة فى أذار ، وقد كللت هام الأشجار فيها الأزهار ، وغنت على أفنانها الأطيار ، وأين منى تلك الديار ؟ أين منى الغوطة ـ يا أسفى على الغوطة ـ لقد قطعوا شجرها ، وبددوا زهرها وثمرها ، وأقاموا عليها مقابر كبيرة للأحياء من البشر ، لا تختلف عن القبور إلا بأنها طبقات فوق طبقات ، وأن لها منافذ يدخل منها الضياء كما تدخل منها شياطين الإثم ، إذا تكشف سر الجار للجار ، حتى يراه فى مخدعه مع أهله ! .

فيا أيها الأستاذ عبد الغنى العطرى لك الشكر .

لقد أحييت فى نفسى طرفاً من ماضى الذى حسبته مات ، حين أثنيت على أنور ، ولا ترجو على الثناء جزاء ولا شكراً ، إنما هو الوفاء ، وما أقل فى

الناس الأوفياء .

لقد صحبت فى طريق الدراسة الطويل ألوفا من الطلاب ، رافقتهم ثم فارقتهم ، مشينا معاً فى الطريق واحد ثم انشعبت بنا الطرق ، واشتبكت المسالك ، فتفرق الشمل الجميع [1] ، وانقضت صحبة المدرسة ، أجمل صحبة وأنقاها ، وأثبتها على نوب الزمان وأبقاها .

أيا حبذا صحبة المكتب وأحبب بأيامه أحبب

إنها الصداقة المبرأة من شوائب المطامع والمنافع ، البعيدة عن المجاملة والمخادعة والنفاق . كنا جميعاً على مقاعد مشابهة ، فرفعت الحياة ناساً منا فأعلت منازلتهم ، وخفضت ناساً ، وتبدلت المقاييس ، واضطربت الموازين ، فتقدم من كان متأخراً فى دروسه ، وتأخر من كان متقدماً .

وكم منجب فى تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينجب

وصار إلى الفاقة ابن الغنى ولاقى الغنى ولد المترب

وقد ذهب الممتلى صحة وصح السقيم فلم يذهب

لم يبق معى على الطريق من هؤلاء الألوف إلا اثنان ، أنور العطار - رحمه الله - وسعيد الأفغانى - سلمه الله - .

وغاب الرفاق كأن لم يكن بهم لك عهد ولم يصحب

إلى أن فنوا ثلة ثلة فناء السراب على السبسب

يقول الأستاذ عبد الغنى العطرى أن أنور العطار ظلم نفسه بعزلته وابتعاده

(1) (أى الجموع) .

عمن في أيديهم مفاتيح الشهرة ، يفتحون أبوابها لمن يرونه معهم ، يغشى مجالسهم ويغلقونها في وجه من ينأى عنهم .

ولكن هل ترى يا أيها الأستاذ العطرى أن هذا من صنع أنور ؟ هل طبعى أنا مثلاً من صنعى ؟ إن الله كما يخلق الرجل قصيراً أو طويلاً ، ولا يد له في طوله وقصره ، يجعله مقبلا على المخالطة أو معرضاً عنها .

وإن كانت عزلة أنور ظلماً منه لنفسه ، فماذا تقول عني أنا ؟ لقد كان هو الاجتماعى بيننا (أنا وهو) وكنت أنا المتوحد المتفرد . كان ينكر عليّ عزلتى ويدفعنى إلى غشيان مجالس الأد ب التى يغشاها ، ولقاء أهله الذين يلقاهم ، فكنت أستجيب له حينا ، وأتأبى سائر الأحيان .

لقد كتبت مقدمة ديوان أنور « ظلال الأيام » من نحو أربعين سنة (سنة 1367) ثم قطع الدهر ما بينى وبينه فابتعدنا قليلاً ، كان هو في الشام وكنت في الرياض ، فلما جاء الرياض ، كنت في مكة ، ثم زرت دمشق إحدى زياراتى القليلة أيام إقامتى هنا في المملكة ، فقابلته في بيته وأخذت لنا صورة، ما كنت أدرى يومئذ أنها المقابلة الأخيرة ، وأن هذه الصورة ستبقى ذكرية عزيزة لأخ فقدته .

لما كان في مستشفى المواساة في مرض موته كنت أنا إلى جواره ، ما يفصلنى عنه إلا بضع غرف ، وكنت مقيداً إلى سريرى ، أجرى لى الصديق الدكتور مظهر المهاينى عملية ما استطعت بعدها أن أذهب إليه فأراه ، ولكن زوجتى زارت زوجته ، فخبرتنى أنه صار جلداً على عظم ، وأنه ليس أنور الذى عرفناه بل هو طيف له على صورته وعلى شكله .

ولما توفاه الله كنت قد خرجت من المستشفى ، فمشيت فى الجنازة وأنا والله فى دنيا غير دنيا الناس ، أصحبهم بجسدى وفكرى ونفسى مع أنور فى أيامنا الخوالى ، ثم لما انتهى الدفن ، ووقف أهله للتعزية تركتهم وجست خلال المقابر ، فقعدت بينها حيث لا يرانى أحد ، وما معى إلا قبور الموتى من حولى والماضى الذى حسبته مات فى خيالى ،وعلى يمينى من بعيد قبر أبى وأمى ، وأمامى من بعيد الحفرة التى ثوى فيها جسد أنور ، وكر شريط الذكريات فلم أعد أعرف أين أنا . لو لا أفكر فى المكان الذى أقعد فيه ، ولا فى الزمان الذى أعيش فيه ، لأن صداقتنا ولدت ذات يوم فى هذه المقبرة .

هل تحبون أن أكشف لكم طرف الستار عن هذه القصة الطويلة ، التى عشتها معه وعاشها معى ؟ .

لابد إذن أن سأعيد عليكم بعض ما كتبت فى مقدمة الديوان ، إنه فلْمٌ طويل ، فلم حافل بكل جميل ونبيل ، ويمر بك فى لحظات وقد تصرمت فى تأليفه وإخراجه خمسون سنة . فلم كنا نحن أبطاله ، وكنا نحن ممثليه ، فصرنا نرى فصوله تعرض علينا من بعيد .

الفصل الأول من هذا الفلم فى مكتب عنبر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (سنة 1923) . عندما أبصرت أنور العطار أول مرة ، أبصرت فيه تلميذاً رقيق العود ، دقيق الملامح أنيق المظهر ، من غير أن يبدو عليه أثر الغنى

شارد النظرات ، يمر فى ظلال الجدران ، خفيف الوطء حالم الخطى ، كأنه طيف يمر على خيال نائم ، يعتزل التلاميذ لا يثب وثبهم ، ولا يلعب لعبهم ، فسألت عنه من يعرفه فقال : هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار .

وما كنت أؤمن يومئذ بغير شعراء الجاهلية والشعراء الإسلاميين ، ولا أرضى لنفسى أن أقرأ شعر المتنبى ، ولا يرضى لى ذلك مشايخى ، لئلا تفسد ـ كما قالوا ـ ملكتى . ولم أسمع باسم شوقى ، فما لى ولهذا الشاعر الذى اسمه أنور العطار ؟ لذلك ما طلبت صحبته ، ولا ظننت أنه سيكون بينى وبينه اتصال ، حتى كانت تلك المصادفة المسعدة التى كان لها فى حياتى أنا ، وفى حاته هو ، أبلغ الأثر .

كانت هذه المصادفة على باب المدرسة (البادرائية) فى ليلة من ليالى رمضان ، كنت داخلاً إليها ، فوجدت أنور خارجاً منها ، فوقف يحيينى ووقفت أحييه ، وكلمنى وكلمته ، واتصل الحديث ونحن قيام تحت مصباح الشارع ، حتى جاء ذكر شوقى فأنشدنى قصيدة له ، قرأها بصوت عذب حالم حنون ، فأحسست أنه كان يمس بكل كلمة من القصيدة حبة القلب منى ، فأحببت شوقى وأحببته . وأنت تلقى المرء أول مرة فتحس بأنك تحبه أو أنك تكرهه ، لا تدرى لحبك ولا لكرهك سبباً .

سر ركبه الله فى نفس الإنسان . وفهمت منه أنه يسكن فى حارة تجاور الحارة التى أسكن فيها ، فاصطحبنا ، وذكرت موت والدى فى تلك الأيام فحدثنى عن موت والده وهو صغير . وجعلنا طريقنا على مقبرة الدحداح ، والطريق منها إلى حارتنا أقصر ، وهنالك على قبر أبيه وعلى قبر أبى ، ولدت هذه الصداقة التى أثمرت شعراً ونثراً ، وحباً وإخلاصاً ، وكانت من أخلص الصداقات ، وإن لم تخل من منغصات ، شأن الناس فى هذه الحياة

وهنالك فى مدينة الأموات ولدت هذه المودة التى لم يستطع أن يعدو عليها

الموت ، لأنها محصنة منه ، ولأن الأدب أكسبها الخلود .

وكرت فصول الفلم تتوالى ، فرأيتنى قد غدوت صديقه وغدا صديقى ، يبثنى شكاته وأبثه شكاتى ، ويجد فى حياتى مشابه من حياته ، وأجد فى حياته مشابه من حياتى ، ألف بيننا اليتم ، وأننا كنا مستورين على حالة هى فوق الفقر ودون الغنى . . حتى كأنى هو ، وكأنه أنا .

وصار يسمعنى شعره فأجد بواكير شاعر متمكن ، لا محاولات طالب مبتدئ ، وأجد فى هذه البواكير قوة فى التعبير ، وجدة فى التفكير ، وأبياتاً سائرة وصوراً رائعة ، يرسلها تترى (أى متتابعة) يستقيها من معين ثابت لا ينضب ، وكنت بطول ما نظرت فى كتب الأدب ، وألفت من آثار البلغاء ، أستطيع ـ على صغرى ـ أن أميز الذهب الخالص من الكلام ، من النحاس المطلى بماء الذهب .

واستقبلت فيه العربية شاعراً جديداً ملهماً ، وفتح له ولإخوانه الثلاثة جميل سلطان ، وزكى المحاسنى ، وأبو سلمى عبد الكريم الكرمى ، وكلهم رفاقنا فى المدرسة ، فتح لهم أستاذنا محمد كرد على أبواب المجمع ، فأقام لهم حفلة تكريمية أنشد فيها أنور العطار قصيدته : « الشاعر » التى رويتها من قبل ، والتى أشار إليها وأثنى عليها الأستاذ العمرى .

وكانت هذه الحفلة سنة 1346 هـ ونشرت قصيدته فى « الحديقة » التى كان يصدرها خالى محب الدين الخطيب فى تلك السنة .

وشعر أنور فى تلك الفترة آهات أبدعها الفن صوراً ، ودموع صاغها البيان شعرا ، ومقطعات حلوة ما أدرى ما الذى زهد الشاعر فيها فلم يثبت منها فى

ديوانه « ظلال الأيام » إلا مقطوعة « الحمامة » .

ورأيت فصول الفلم تتوالى ، أبصر فيها كل دقيق وجليل من حياتي وحياة أخي في الصغر وفي الكبر ، ورفيقي في السفر وفي الحضر ، وأنيسي في المسرة وفي الكدر ، أنور ـ رحمة الله ـ على روح أنور .

رأيت أيامنا في المدرسة ونحن تلاميذ نعيش من الأدب في دنيا الخيال ، إذ أعجزتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو إليه ونتمناه ، لا نصدق متى ينقضي النهار حتى نفر إلى كتب الأدب ، لنقرأ كل بارع من القول ، ونتدارس كل رائع من البيان .

ورأيتنا وقد فرقت الأيام بيننا قليلاً ، فاشتغلت أنا بالصحافة ، وغامرت في السياسة ، وآثر أنور التعليم فكان مدير المدرسة الأولية في منين [1] ، في هذه القرية النائمة في حجر القلمون الأدنى ، ترى مواكب الأحلام بأجمل « عين » وأشدها سحراً وأكثرها فتوناً : عين منين . من لم ير عين منين ، ما عرف سحر العيون ، ولا رأى جمال الينابيع ، ولا رشف راح الجمال على مائدة الكون . . فكنت أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جمعت فيها النعيم ، أسكر سكرين سكر الجمال ، وسكر البيان ، وأخضع فيها لسحرين : سحر الطبيعة ، وسحر الشعر . وأجمع فيها الماضي البهي ذكرى حلوة ، والآتي الشهي أملا مرجى في حاضر ضاع في نشوة اللذة ، حتى لم يبق لنا منه حاضر نحسه وندركه . نقضي الأصباح نستمع إلى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور ، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من الحياة من

(1) منين : إحدى القرى القريبة من دمشق .

قلوبنا ، فصارت تحنو علينا ، وتولينا الحب . وأرقنا عليها البيان ، فأمست تحدثنا : تتلو علينا أحاديث الغابرين ، وتقص قصص الأفلام ، من غسان [1] أصحاب المجد المؤثل ، فنحس كأن قد عاد الماضى ، ورجعت «القصور البلق» عامرة ، وبعث المجد وعاش الحب ، حتى لكأننا نسمع همس العشاق ، وآهات نشواتهم ووسوسة قبلاتهم ، ونرى خيالات العناق من وراء الستار .

أيام سعدنا بها ، وما سعدنا بالصخر ولا بالماء ، ولكن بأحلام الشباب ، رحمة الله على تلك الأيام .

ورأيتنا وقد صرت أنا معلماً فى الجبل من دمشق فى المهاجرين ، وصار هو معلماً فى السفح فى الصالحية . فكنا نرتقب المساء ارتقاباً ، فإذا حل انحدرت أنا من هنا وانحدر هو من هناك ، حتى نلتقى عند العفيف [2] نفرح بهذا اللقاء ، فرح حبيبين التقيا بعد طول فراق .

ورأيت أيام العراق زهرة أيامنا ، أنا وأنور ، وزينتها أيام بغداد . ـ وقد حدثتكم عنى وعنه وعن بغداد ـ كانت أيام بغداد أجدى الأيام على أنور ، ففيها اختزن فى نفسه أجمل الصور ، وفيها نظم أروع القصائد ، وفيها ابتدأ فى حياة الشاعر عهد جديد ، هو عهد القومية وشعر الحماسة الوطنية ، فازدادت بذلك هذه القيثارة وتراً جديداً ، خرجت منه أطيب النغمات .

ماذا أصف ؟ وعم أتكلم ؟ وكيف أستطيع أن أجمع فى كلمات دنيا من

---

(1) غسان : الذى ينسب إليه الغسانيون والغساسنة ليس رجلاً ولكنه نبع ماء نزلوا عليه وموضعه فى جبل الدروز عند قرية سلطان باشا الأطرش .

(2) العفيف : حى من أحياء دمشق يقع فى أدنى سفح جبل قاسيون .

العواطف ، وعالمًا من الذكريات ، وآلافًا مؤلفة من المشاعر كانت أثبت من الزمان ، لأنها بقيت وقد ذهب الزمان ، وكانت أجمل من العمر لأنها هى جمال العمر .

رأيت هذا كله ، وما هذا إلا تلخيص لحياة أنور ، الشاعر الذى عاش حياته كلها كما يعيش الشعراء الخلد الملهمون ، شعراء القلب والروح واللسان، لا شعراء الألفاظ والبيان ، الشاعر فى قلبه المتفتح أبداً للجمال ، المترع بالخير الممتلئ بالحب . وفى لسانه الذى يفيض أبداً بالجمال ، وينفث السحر الحلال .

وفى هذا التلخيص تحليل لشاعرية أنور ، فإذا أخذتم عليه أنه كان حليف الحزن ، صديق الأسى ، قد وقف شعره على تقديس الألم العبقرى ولا شىء يبعث الأدب العبقرى كالألم العبقرى كما قال الفريد دى موسى فى أبياته المشهورات .

لقد بكى الأحلام الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة فى « الخريف » وخلد مظاهر الأسى فى النفس وفى الطبيعة . إذا أخذتم عليه ذلك فاعلموا أنه لم يكن يستطيع غيره ، وأن الشاعر لا يطبع نفسه كما يشتهى ، ولكن يطبعه الله بطابع البيئة والزمان ، ويكون مشاعره فى طفولته ، قبل أن يشعر هو ليكون مشاعره كما يريد ، ولو استطاع امرؤ أن يصغر فمه أو يجمل أنفه لاستطاع أن يبدل قلبه ويحول عواطفه .

لقد نشأ أنور مثلما نشأت أنا ، وفتح عينيه على الدنيا والحرب العالمية الأولى قائمة ، ودمشق فى أشد أيامها ، ومظاهر البؤس والألم فى كل مكان : ولد فى السنة التى ولدت أنا فيها سنة 1327 هـ وقد كبره الأستاذ مؤلف الأعلام

وصغره الأستاذ العطرى ، وميلاده الحق هو ما قلته .

فلا تلوموا أنور إن كان الحزن طابع شعره ، وكان الفرح فيه مثل الفجر الأول ، لا يكاد يبدو بياضه فى الأفق حتى تبتلعه بقايا الليل ، فهذا هو السبب .

ولا تلوموه إن تغزل ، فتكلم عن الرؤى والأحلام ، وترك الحقائق وعلا إلى سماء الخيال ولم ينزل إلى أرض الواقع ، وأنه عمم وجمجم ، فلم يكشف ولم يصرح ، فإن البيئة التقية التى نشأ فيها انور لم تكن ترى فى الحب إلا ذنباً ، على صاحبه أن يستغفر الله منه . فإذا كان فى شعراء اليوم من قصر شعره على مخدع الزوجية بغير زواج شرعى ، وعلى ما يكون بين المرأة والرجل بغير إذن من الله ، وكان شاعر الفسوق والعصيان [1] ، فإن شعر أنور كشعر نُصَيْب الشاعر الذى سمي قومه « ليلى » ليتغزل بها .

إن أنور لم يتصل فى حياته بفتاة على نحو ما يفعل الشباب ، وإنه كان أعف وأشرف من أن يفكر فى هذا أو أن يحاوله . وأنا أقول ما أقول عن معرفة به : أعرف عنه أكثر مما يعرف عنه ولده الذى انبثق من صلبه .

ولا تأخذوا على أنور أنه حبس نفسه فى هذه الدائرة الضيقة ، وقصر عليها شعره ، ولم يخرج إلى الفضاء الأرحب ، ولم يعرف فى الدنيا الواسعة التى يعيش فيها أكثر الشعراء والناس . فإن أنور أمضى صباه كما أمضيت صباى فى عالم ضيق ، كانت حدوده تلك المسالك الملتوية الموصلة إلى مكتب عنبر ، وتلك الساقية الصغيرة التى كتبت عنها فى مجلة « الرسالة » من اثنتين وخمسين سنة ، فارجعوا إليها لتقرؤوها ، وذلك الطريق الموحل الذى كان ينتهى عنده

(1) يأخذها جزافاً ، بلا وزن ولا (قبان) .

العمران ، ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص ، والذى كان اسمه (قفا الدور) وكان نهاية البلد ، فصار الآن شارع بغداد ، وصار فى وسط البلد .

إن أنور يخشى أن يفارق عالمه الشعرى الذى أحبه ، أو يتجاوز حدوده ، كما كان يخشى من قبل ، وأخشى أنا ، أن نتجاوز قفا الدور أو نتخطى مكتب عنبر .

ولكن عالم أنور الشعرى واسع على ضيقه ، لأنه عالم القلب ، إن لم يمتد على وجه الأرض فإنه يمتد فى العلاء صعداً ، حتى ليتصل شعره أحيانا بالدين ، والإيمان ذروة السمو فى هذه الدنيا ، وقد تضيق على المرء الأرض كلها إن اقتصر عليها ، ولا يضيق عليه متر واحد إن سما حتى اتصل بالسماء .

عاش أنور فى عهد جد ويقظة ، وإقبال على العلم والعمل ، وحفظ عشرات القصائد من جياد أشعار العرب ، فجاء أسلوبه كالماء الصافى : فيه عذوبة ولين ، وفيه إن تدفق قوة ومضاء ، وكان فى شعره أثر الجد ومؤهلات الخلود ، لا كأشعار أصحاب المناسبات ، وطالبى إعجاب العوام . وكان نسجه كالحرير المتين المصوف المنقوش النقش البارع ، لا كالنسج الرخيص الذى يتمزق من الشد ، وتذهب ألوانه من رؤية الشمس .

ما مشى أنور على الطريق الذى فتحه له مَنْ قبله من الشعراء ، بل على طريق شقه هو لمن بعده من الشعراء . كان أنور إمام جماعة الشباب ، ولم يكن مؤتماً تابعاً ، ولولا نفس من شعر شوقى فى مثل قصيدته « ليل الحزين » من بواكيره ، وروح من الأدب الفرنسى فى بعضها ، لقلت بأن أنور لم يقلد فى أسلوبه أحداً أبداً . وهل لشاعر مثل الذى لأنور فى وصف الطبيعة ، وفى وصف البلدان ،

وفى وصف الرؤى والأحلام ، حتى يقلده أنور ؟ .

* * *

لقد قلت يومئذ فى مقدمة الديوان : إنه ديوان الوفاء للعربية : نخل مفرداتها فاختار أطيبها ، وعرض أساليبها فاصطفى أحلاها . وديوان الوفاء لأقطارها : جرى بردى منذ الأزل ، وقام لبنان ، فهل قال شاعر فى بردى مثل الذى قال أنور ؟ هل نظم فى لبنان مثل ما نظم ؟ هل يعرف القارىء فى الشعر الحديث قصيدة فى وصف الطبيعة أعظم من « لبنان » التى اشتمل عليها هذا الديوان ؟ .

أنا لا أبالغ ولا أغالى ، وهذا الشعر الحديث بين أيدى الناس ، فمن عرف أعظم منها فليقل .

ولكن « المعاصرة » حرمان ، وأزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه ، وستمحص السنون هذا الشعر وهذا النثر ، الذى يلقى بين أيدى الناس ، فتميز الجوهر من الزجاج ، والذهب من النحاس ، وهنالك بعد أن يذهب الرجال ، وتنقطع الصداقات والعداوات ولا ينفع إلا الأدب الذى يستحق الخلود ، يومئذ تعرف قيمة قصيدة « لبنان » وقصيدة « بردى » ، وهنالك بعد أن يعدو النسيان على أسماء كثيرة تملأ اليوم الأسماع ، وتشغل الناس ، يحتل اسم أنور العطار مكانه مع أسماء الشعراء الخالدين . .

هذا كلام قلته أكثر من أربعين سنة فإن لم يأت ذلك اليوم فلابد أنه آت .

كنا نعد الشعراء الكبار فى دمشق أربعة هم : خير الدين الزركلى ، ومحمد البزم ، وخليل مردم بك ، وشفيق جبرى ، وكان أصحاب الصحف يبدلون

المقاييس فيقدمون من يرونه هم أحق بالتقدير ، فيعرف الناس اسمه ، ويقرؤون شعره ، ويهملون غيره ، فلما هدأت هذه الضجة وانطفأت هذه القناديل ، وسطعت شمس الحقيقة ، احتل كلٌّ مكانه الذى يستحقه . وكان شعراء الشباب من رفاقنا أربعة هم الذين كرمهم الأستاذ كرد على ـ رحمة الله عليه وعليهم ـ : خليفة الشيخ طاهر الجزائرى فى تشجيع الناشئين ، والأخذ بأيدى المبتدئين . وكان أنور العطار أشعرهم ، إن لم يكن أوسعهم أفقاً ، وأكثرهم تنويعًا ، فهو أجودهم ديباجة ، وأحلاهم أسلوباً وأحسب أنه سيكون أبقاهم ذكراً .

وبعد ، فالشكر للأستاذ نجدة فتحى صفوة الذى أعاد لنا ذكرى أنور العطار وما نسيناه ، والشكر للأستاذ عبد الغنى العطرى الذى دفعنى إلى نشر هذا الكلام .

إن الساعة إنما تسير عقاربها ، وتحركها حركتها هذه الملوبات [1] أى اللوالب، وكان عندنا جماعة هم ملوبات (أى لوالب) الحركة الأدبية فى دمشق يدركون خامدها ، ويسيلون جامدها ، ويبعثون اليقظة فيها ، وكان منهم الأستاذ عبد الغنى العطرى .

أعتذر للقراء إن قطعت سلسلة الكلام عن رحلة الشرق وتكلمت عن أنور العطار ـ رحمه الله ـ وأعدهم أننى سأعود فى الحلقة المقبلة من السلسلة .

* * *

(1) الملوب : على وزن مكرم وهو ما يسميه الناس باللولب .

الفهرس


الجزء الأول